الدكتور محمد أمين فرشوخ

موسوعة

عباقرة الإسلام

في العلم والفكر والأدب والقيادة



دار الفكر العربي
بيروت

موسوعة

عباقرة الإسلام

في العلم والفكر والأدب والقيادة



دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش سليم سلام . مقابل مخفر المصيطبة
بناية الشروق . الطابق الأول
ص.ب. ٥٠٧٠ / ١٤ . بيروت لبنان

المقدمة

مَنّ الله تعالى على الاسلام برجـالات عباقرة، اضاؤوا الحضارة بانجازاتهم أمداً طـويلاً. فـاعتـرف بفضلهم أجيـال من المستفيدين، من العرب والأعاجم، وسجّلوا للاسلام علامة انتصار كبرى، وأكّدوا، مؤمنين وغير مؤمنين، ان الاسلام دين وحضارة.

عباقرة الاسلام، ليسوا من العرب فقط، بل هم مسلمون أبدعوا إما متأثرين بالنص الديني، أو حثّهم الاسلام على تحصيل العلم والعمل، فكانت انجازاتهم مدينةً للتراث الديني في مجتمعه ودولته.

وكتابنا هذا، يجمع بين دفتيه شهادات على النبوغ الاسلامي في العلوم على تنوّعها، وفي الفكر والحكمة والاصلاح، وفي الآداب واللغة العربيـة، وفي القيادة والحكم، شهادات في حقول الحضارة كلها، هي منارات اضـاءت تاريخنا، وتاريخ العالم، بنور لمّا ينطفىء بعد.

لقد سبقنا من وَضَعَ كتباً شبيهة بهذا الكتاب، اقتصر فيهاعلى العلماء، أو القادة، أو المفكرين.. وحاول آخرون التعريف باكبر عدد من عظماء العالم باختصار... الاّ أن كتابنا يختلف عن هذه الكتب بما يلي:

- يعرّف بثلاث وسبعين عبقرياً مسلماً في مادة وافية.

- يعرّف بممثلين لكل فرع من فروع المعرفة في حقول أربعة: العلـم، الفكر، الأدب، القيادة.

- يقدّم لكلّ حقل من الحقول الأربعة بمقدّمة توطىء تاريخياً ومعيارياً لما يتضمنه.

- يثبت سيرة العبقري، ومفاصل حياته المهمة، ومنـهـجـه، مع مقتطفات من انجازاته العلمية أو الأدبية أو الفكرية، مقرونة بشهادات النقّاد فيه.

- يعرض المادة في اسلوب سهل، ومنهج يرتّب الأفكار بتسلسل منطقي، يفضي الى

صورة مكتملة لسيرة العبقري وانجازاته.

ـ الاستشهادات والاقوال المنقولة وضعت بين شولتين، دون ذكر مصادرها في الحاشية، توخياً للتبسيط، لكن المصادر الرئيسة للمادة ذكرت في نهاية كل بحث على حدة، لتمكّن الراغب في الاستزادة من الرجوع اليها.

ـ يتوجّه الكتاب في مادته واسلوبه الى الطلاب الثانويين والطلّاب الجامعيين والدارسين عموماً، وهو يمثل مرشداً للباحثين أيضاً، لما فيه من دقّة واحاطة وتوثيق.

ـ ويجد فيه كافة المثقفين والمطالعين، وهواة التراث، والمعتزّون بالتاريخ الاسلامي وعباقرته، مادة غنية بالفائدة والمتعة، تروي قصة الحضارة الاسلامية عبر رجالتها وإنجازاتهم.

ـ وأضيفت الى بعض مواد الكتاب صور ورسوم توضيحية، أو تزيينية ضرورية، خاصة في حقل العلوم: الفيزياء، والفلك، والموسيقى، وفي الرياضيات...

والكتاب، أخيراً، محاولة جديّة، في سبيل موسوعة اسلامية تيسّر المعارف للجميع، في اسلوب ممتع، ومنهج علمي، واحاطة متمكنة. واذا تصدينا لهذا العمل، فلأننا مؤمنون بالدين الاسلامي، وبتاريخه العظيم، وبالطاقات التي وفّرها، ويمكنه دائماً توفيرها، لبناء مجتمع فاضل، تتنافس فيه قدرات اهله على العطاء المميّز.

والله ولي التوفيق.

بيروت ٤ آذار ١٩٨٩
محمد أمين فرشوخ

العلوم عند المسلمين

□ الانجازات العلمية، وجه من وجوه الحضارة في كل امّة. والعلوم لا بدّ لها من تاريخ، اذ إنها لا تنشأ مقطوعة عن جهود الأمم السابقة، ولا تتطوّر مستغنية عن اسهامات الرواد الأول. وما اهتمامنا بعباقرة العلوم في امتنا، الاّ تدليل منّا على اهميتهم في موكب الحضارة العام، هذا الموكب الذي يبوىء، اليوم، الفن الصناعي Technologie والعمل الآلي، صدارة رقيّه.

□ ان وقوفنا على سير هؤلاء العباقرة، واطلاعنا على أهم مبتكراتهم في حقول العلم المتنوّعة، ليس كافياً، بل هو إثارة لفضولنا، وحثّ لجهودنا، ودفع لعزائمنا، لنجدّ في العمل النظري والتطبيقي، متابعين أمجاد هؤلاء الأفذاذ، موظّفين إبداعاتهم، ومطوّرين نظرياتهم، لتحقيق المزيد من الانجازات الرائدة، تمجيداً لتاريخ امتنا المستمر، في الرفعة والتميّز.

□ على كل أمّة ان تعرف أهميتها في العالم، والتاريخ الحقيقي لشعب من الشعوب هو تاريخ حضارته، لذا فاطلاعنا على منجزات امتنا ضروري، كما هو ضروري ابراز دور المبتكرين المسلمين في حضارة العالم. فالصرح العلمي الشامخ للغرب اليوم مدين لروّادنا بانجازاتهم في حقول العلم والفكر. لذا كان لا بدّ من أن نشير الى أهم هذه الانجازات وأثرها في تقدّم العلوم الأساسية، غير غافلين عن المنابع المهمة التي استقى منها علماؤنا، احياناً، عن طريق النقل والترجمة، او التعلّم والاحتكاك.

□ ونعجب بالعبقري، ذاك الذي ينشأ في اسرة عادية، أو وسط فقير، ولا تتاح له امكانات عظيمة، فالمكتبات قليلة، والمختبرات نادرة، والوسائل مفقودة. انه ظاهرة غير عادية في حياة المجتمع، رجل يكرّس وقته وجهده وفكره ومواهبه لخدمة العقل البشري، انه انساني ورفيع القيمة ونادر وخالد هذا العبقري المسلم.

□ اتصل العرب، قبل مجيء الاسلام، بالشعوب المتاخمة لهم، بطرق مختلفة، فتبادلوا معهم معارف عصرهم في الفلك والطب والزراعة... ثم ازدهر النشاط المعرفي اثر تأسيس المدارس الفكرية في البلاد المتاخمة للجزيرة العربية، كمدرسة الاسكندرية التي اسسها الاسكندر المقدوني والتي اهتمت بانشاء مكتبة كبيرة حوت مباحث ثمينة في الفلسفة والعلوم، وخرّجت العديد من العلماء اسهموا في نشر الفكر في كل العالم المعروف يومها، وهناك أيضاً مدرسة الرها، وجنديسابور، وانطاكية...

□ واهتم الخلفاء المسلمون بالعلوم، فطلبوا ترجمتها الى العربية، خاصة في العصر العباسي، فزادوا من العطايا للعلماء، وقرّبوهم، واهتموا بانجازاتهم، واستفادوا منها، فأنشأوا المراصد والمستشفيات، والمكتبات. وهكذا تقدّمت النهضة العلمية وسجّلت خطوات رائدة في مسيرة الحضارة الاسلامية.

□ أشهر النقلة، ممن ترجموا كتب أرسطو وبطليموس وارخميدس ونيقوماخوس وأقليدس هم: ثابت بن قرّة، وحنين بن اسحق، واسحق بن حنين، ويوحنا بن البطريق، والحجاج بن مطر، ويحيى بن عدي، وابن ناعمة الحمصي.. وكثيرون من النصارى، ممن كان يتقن السريانية أو العبرية، أو اليونانية، أو الفارسية...

□ امّا اشهر الكتب المترجمة: فكتاب السند هند في الرياضيات والفلك ـ وكتاب المجسطي لبطليموس في رصد الكواكب ـ وكتاب الاصول لأقليدس.

□ في الرياضيّات: أخذ المسلمون الأرقام الهندية وهذّبوها واستعملوها، ثم اضافوا اليها الصفر، ومنهم انتقلت الى العالم ولم تزل. وهم الذين اعطوا علم الجبر اسمه وتوسّعوا فيه، فوضعوا له الرموز وطوروه وابتدعوا المعادلات وحلولها، كما وضعوا أسس الهندسة التحليلية. وعلم المثلثات الذي يعالج الدالات في المثلث، فصلوه عن علم الفلك ونظموه. ثم ادخلوا «الظل» و «الظلال» و «ظلال تمام» و «القواطع» و «الجيوب»... في قياس الزوايا والمثلثات، واستعاضوا عن الوتر بالجيب، فسهّلوا حلّ كثيرٍ من المسائل الرياضية. امّا في الهندسة فقد كانت اسهاماتهم قليلة، أهمها الاصول التي وضعوها لرسم المضلّعات المنتظمة، وحساب النسبة التقريبية (اي نسبة محيط الدائرة الى قطرها) ورمزوا اليه بحرف ط، وكان يساوي: ٣,١٤١٥٩.

□ في الفلك: أو علم الهيأة، اشتهر كثير

من الفلكيين المسلمين، وكانت لهم مؤلفات عديدة سجّلت انجازاتهم. فقد بنوا مراصد لمراقبة النجوم ودراستها أهمها: مرصد المأمون في بغداد وفي دمشق، والمرصد الحاكمي في مصر، ومرصد ابن الشاطر في الشام، ومرصد اولوغ بك في سمرقند، ومرصد مراغة، ومرصد اصبهان... وقد أثبتوا كروية الأرض ودورانها حول محورها، ووضعوا الجداول لتعيين مواقع بعض النجوم، وحسبوا التقاويم، والاعتدالين، وخلل حركة القمر، وطول السنة الشمسية..

□ في الفيزياء والكيمياء والميكانيك: من انجازات المسلمين في الفيزياء اكتشاف الجاذبية وتحديد الوزن النوعي للعديد من الأجسام، وسرعة الضوء، واهتدوا في علم البصريات الى مبادىء أساسية، أهمها تحديد الرؤية وظاهرتي الانعكاس الضوئي والتكسّر، كما كانت لهم اسهامات في دراسة المرايا الكروية والخسوف والكسوف، والأوهام البصرية وعللها. وفي الكيمياء مارس المسلمون التجارب واستطاعوا اكتشاف الكثير من الحوامض، مثل حامض النيتريك والكبريتيك والطرطير، واكتشفوا الصودا و الزرنيخ والنشادر ونترات الفضة، ومارسوا عمليات التذويب والتصعيد والتقطير والتبخير والتبلّر والتكليس. وفي علم الميكانيك أو الحيل عرفوا الأنابيب الشعرية والروافع، وكانت لهم اختراعات في الساعات والعاب التسلية، كما اخترع ابن يونس رقّاص الساعة.

□ في الطب والصيدلة: اهتم الاطباء المسلمون بالأمراض، فشخصوها ووصفوا الادوية المناسبة لها، وقد اكتشفوا الطب السريري ونظموا التدريس فيه، وفصلوه عن علم الصيدلة، واهتموا بالعلاج النفسي. كما قاموا بالتشريح فتوصلوا الى تعريف الدورة الدموية وامراض العين. والمستشفيات التي انشأوها جعلوها متنوعة للجزام والعمى والجنون، ومنها للرجال واخرى للنساء، ونظموها ورتبوا اجنحتها وامنوا خدماتها ونظافتها ومياهها الجارية وغرف العمليات الملحقة بها، وفي الجراحة اخترعوا الكثير من الادوات الخاصة وابتدعوا ما يخفف الآلام، كما استخرجوا الخيوط من امعاء الحيوان لخياطة الجروح، واكتشفوا طرقاً لتفتيت الحصى واستخراجها.

□ في الموسيقى: عرفوا الاصوات وأنغامها وانواع التلاحين وسمّوا الآلات والأوتار وزادوا فيها. ولاهتمامهم بالرياضيات أبدعوا في علم الموسيقى فبحثوا فيه وأجادوا.

□ في الجغرافيا: جاب الرحّالة بلاد

الاسلام والبلدان المتاخمة، فكتبوا في خطوط طولها وعرضها ومناخها ومدنها ومائها ونباتها وجبالها، كما بحثوا في عادات شعوبها واقتصادهم وفكرهم. وهم اول من رسم الخرائط البرية والبحرية.

□ في الحيوان والنبات: اعتمدوا الملاحظة والتجربة، فصنفوا في النبات وأنواعه وما يلزمه من مناخ وشروط، كما بحثوا في علم الحيوان، لكن ابحاثهم هذه اختلطت بالمنقول والخرافي، وهي اجمالاً قليلة ضعيفة الأثر.

□ لقد اخترنا من عباقرة العلوم مَن يمثّل فروعها، فذكرنا سيرة كل علم وعناصر عبقريته من تحصيل تجربة وتشجيع... مفصلين في اكثر انجازاته، ومشيرين الى ما اقتبسه وما أثّر فيه، مستعينين احياناً بالرسوم والصور الايضاحية.



عباقرة العلم

□ ان معرفة الربان يجب ان تكون: «معرفة المنازل، والاخنان، والدّيَر، والمسافات، والباشيات، والقياس، والاشارات، وحلول الشمس والقمر، والأرياح ومواسمها، ومواسم البحر، وآلات السفينة. . .» ويشير الى ضرورة معرفة تقلّبات البحر والمناخ، وحيوان البحر والبر. . .

□ وفي سلوك الربان يقول: «. . . عالماً بالاشياء، عزّاماً فتاكاً، عادلاً لا يظلم أحداً، لا يغضب التجار، كثير الاحتمال على الهمة، صبّاراً مقبولاً بين الناس، لا يسعى فيما لا يصلح له، اديباً لبيباً والاّ فليس هو معلم بالقاعدة».

□ وفي مهارة الربان يقول: «الحذر كل الحذر خصوصاً في غبّة تيهان وغبّة الحشيش، وربما أتاك المغرب وأنت في الماء الاسود معترضاً على أول الغبّة طول الليل. . . فالحذر في مثل ذلك وهما ستين باعاً على رأس دائرتهما. . . وكل غبّة احسب حساب ريحها وموسمها».

□ ويشرح ابن ماجد لنا سياسته في ترتيب المركب والعسكر، وتوجيه الدفّة ونصْب الحقة «لأن في المراكب ما يكون في تجارته خلل»، وتأمل الآلات وتفقّد الركاب، والسهر ومحاربة النوم.

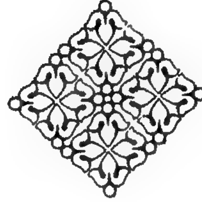
□ ويجمع ابن ماجد الى صفات البحار صفات الاديب الشاعر، فيصف النجوم والقمر والليل والأمواج. . . ويستشهد بأقوال واشعار «من الحديث الشريف وعنترة والاخطل والطغرائي. . . وأمثلة العرب».

□ ويعود الفضل الى ابن ماجد في ايجاد الابرة المغنطيسية، يؤكد ذلك ابن ماجد نفسه حين يقول: «ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب».

□ ورد ذكر ابن ماجد في كتاب المحيط للأميرال التركي سيدي علي بن حسين حين ذكر رحلته الى المحيط الهندي في عام ١٥٥٤ م. وقد خصّه في كتابه باطراء ومديح وسمّاه: «الباحث عن الحقيقة بين البحّارين». وروى فاسكو دي غاما مرافقة ابن ماجد له في احدى سفراته وكان يسميه «كانا كان» ويؤكد المؤرخ قطب الدين النهروالي في مخطوطة: «البرق اليماني في الفتح العثماني» ان هذا الربان هو احمد بن ماجد.

ويشير جيمس بن نسيب الى ان «ذكرى ابن ماجد ما زالت حية في الهند وفي جزر المالديف في النصف الأول من القرن التاسع عشر وهم يعتمدون على القواعد التي وضعها في علم الملاحة». ويشير الاستاذ فيّران ـ بعد

ذكره كتب ابن ماجد ـ بأنها تشتمل على: «معلومات كثيرة نظرية وعملية في علم الملاحة، وهي خلاصة تجارب ابن ماجد الشخصية، وعلى هذا يمكننا ان ننظر اليه كأساس لعلم الملاحة في السنين الأخيرة في القرون الوسطى، ويُعدّ الأول بين مؤلفي علم الملاحة في تلك الأزمان الى العصر الحاضر. فوصفه للبحر الأحمر مثلاً لم يسبقه اليه ولم يجاره فيه أحد بين مؤلفي علم الملاحة من الاوروبيين... اما المعلومات عن رياح بحار الهند والرياح المحلية والطرق وخطوط الطول لمرافىء المحيط الهندي كله فهي متقنة ومفصّلة».



المصادر: البرق اليماني في الفتح العثماني لقطب الدين النهرواني. مخطوط في مكتبة باريس الوطنية ومنه نسخة في الخزانة التيمورية في القاهرة. ـ الملّاح العربي لـ محمد ياسين الحموي، مكتب النشر العربي، دمشق: ١٩٤٧، وكلام بن نسيب وفيرّان منقولان من المرجع الآخير.

ابناء موسى

(منتصف القرن التاسع الميلادي)

□ موسى بن شاكر (ت ـ ٨٣٣ م)، الأب، كان منجماً في بلاط المأمون، ولم تشر اليه كتب التواريخ والفلك، الاّ ان ابناءه الثلاثة: ابـو جعفر محمـد (ت ـ ٨٧٣ م) وأحمـد والحسن، عرف انهم درسوا الرياضيات والفلك والموسيقى والحيل. وكانوا موسرين أنفقوا جانباً من ثروتهم في اقتناء الكتب يجلبونها من بلاد الروم، وفي استخدام الكتبة، وقيل انهم كانوا يجرون عليهم شهرياً خمسمئة دينار.

□ اشتهر ابناء موسى بن شاكر بالبراعة والحيل ورصد النجوم، وكان لهم مرصد في دارهم في بغداد. وقد تميّز كل من الاخوة الثلاثة بعلم من العلوم:

- ابو جعفر محمد كان أوفر اخوته علماً في الفلك وفي الهندسة وفي المنطق.
- احمد كان دون اخيه الاكبر، لكنه يفوقه في علم الحيل.
- الحسن كان الأبرع في علم الهندسة.

□ لأبناء موسى كتب في الفلك والتنجيم والهندسة، وقد ذكر ابن خلكان ان لهم كتاباً في علم الحيل «لهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من احسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد». وهو مخطوط في مكتبة الفاتيكان تحت رقم ٣١٧.

□ «كتاب الحيل» مزين بالرسوم التوضيحية عن الجرار والقناني والاواني والانابيب والفوارات... هذه الحيل لم تكن للتسلية فقط لإظهار المقدرة العلمية، بل للضرورة ايضاً، ففي القرن الثالث الهجري، كثرت الحاجة الى مثل هذه الاواني في المساجد والمنازل واماكن الاجتماع للشرب والوضوء وحفظ السوائل ونقلها. علماً ان العصر ذاك لم تزدهر فيه علوم الميكانيك، ولم يكن للعرب الاّ ما ورثوه عن الأقدمين، لذا يعتبر «كتاب الحيل» انجازاً وريادة علمية وتطبيقية في تاريخ العلوم عند العرب.

□ في الكتاب نماذج صعبة ونماذج سهلة العرض والفهم، منها:

□ «صنعة اخرى للابريق الذي اذا صبّ فيه الماء متصلاً قبل ما يصب فيه ومتى قطع عنه الصب ثم أعيد اليه لم يقبل ما صب فيه».

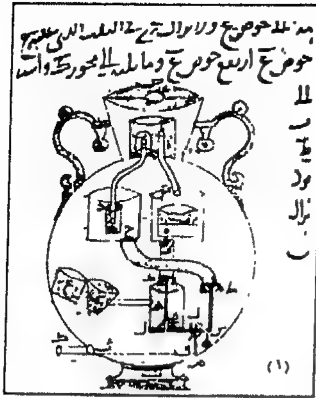
□ «صنعة ابريق آخر يأخذه الغلام فيوضّي منه من احب ويمنع ذلك عن من شاء فلا يصب على يديه شيء من الماء، ويمكن أن يقول صاحبه انه انما يوضي المؤمنين ولا يوضّي الزنادقة، وما اشبه ذلك». وتركيب هذا الابريق يعتمد ضغط الهواء وتأثيره على الماء.

□ صنعة سحارة (وعاء مثقوب من أسفله يستعمل لغسل الخضار) اذا غمست في الماء سمع منها صفير وإذا رفعها الانسان عن الماء ليعمل بها يسمع لها ايضاً صفير. (١)

والتحليل العلمي هو:

١ ـ اذا غطست السحارة دفعة واحدة سريعاً لا يدخل الماء بسهولة من الثقوب السفلى بينما يدخل من الثقب (و) الى الانبوب (دن)، وذلك حسب القانون الأول في الهيدروستاتيك، فاذا فاض الماء من ثقب (ن) ليدخل في الوعاء (م ح) يغطي الماء طرف (ح) ويمنع خروج الهواء من السحارة، فلا يدخلها الماء.

٢ ـ واذا غطسنا السحارة ببطء فالماء طبعاً سيدخل من الثقوب السفلى فيخرج الهواء من



شكل السحارة الموصوفة سابقاً مع اضافات جديدة

(ن)، وحين يصل الماء الى فوق (ن) يعلو طبعاً فوق (آ) حسب مبدأ الاوعية المتصلة، فلا يعود هناك مجال لبقاء الهواء داخلها، مما يعني ان الماء لن يخرج منها.

٣ ـ اذا غطسنا السحارة ببطء ولم نسمح للماء ان يرتفع كثيراً ـ اي الى ما دون (ن)، عند ذلك يخرج الماء بسهولة من السحارة اذا ما رفعناها، لأن في داخلها كمية من الهواء، وايضاً بفعل ضغط الهواء يخرج الماء من ثقوب اسفل السحارة.

□ «صنعة فوارة يفور منها الماء كهيئة السوسنة وان أحببنا جعلنا الماء يفور منها كهيئة الترس. (٢)

□ «صنعة قنديل يتغذّى بالزيت من نفسه».

□ «صنعة سراج يخرج الفتيل لنفسه ويصب الزيت لنفسه وكل من يراه يظن ان النار لا تأكل الفتيل».

«نأخذ نصف كرة معدنية ونعطيها هيئة سراج. نثبّت في اسفل الكرة وعلى موازاة انحنائها فتيلاً قوياً شديد الاشتعال ونضع فوقه صفيحة ضيقة بعرض الاصبع ذات اسنان دقيقة تعمل على دفع الفتيل في اتجاه فتحة الاشتعال.

ثم نركز في وسط الكرة عمود (ع د) ونثبّت عليه دائرة (ج) على شكل البكر والدولاب (ف) ذي اسنان تتداخل في اسنان الفتيل لتدفعه الى فتحة الاشتعال عندما يدور الدولاب.

٣ ـ نأخذ دبّة (فواشة) ونصلها بسلسلة تحمل بطرفها الآخر ثقلاً من الرصاص (م) ومن ثم نحمل السلسلة بواسطة البكرتين (ف) و (ج).

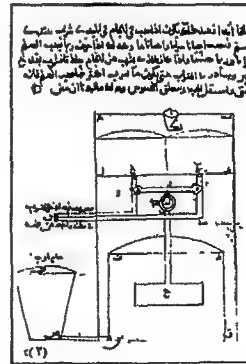
٤ ـ نركز نصف الكرة ومحتوياتها فوق قاعدة معدنية ثابتة (ص).

عمل السراج: نصب الزيت من فتحة (ك) حتى يغمر الدبة (س) عند ذلك ينقص وزن الدبة وذلك بفعل ضغط الزيت من اسفل الى اعلى. عند ذلك يشد الثقل السلسلة فتدور البكرة (ج) ويدور الدولاب (ف) ذو الاسنان بفعل دوران عمود (ع د) المثبت عليه وبذلك تتداخل اسنان الدولاب باسنان الفتيل وتدفع بالفتيل الى الفتحة ليشتعل.

بالاشتعال يتناقص الزيت، تعود بذلك الدبة (س) الى وزنها الطبيعي فيتوقف دوران الدولاب، عند ذلك نعود الى صب الزيت وتعود العملية سيرتها الاولى.

ويظن من يرى أن الفتيل لا تأكله النار».

□ ومن كتب ابناء موسى في علم الحيل. «القرسطون» أي الميزان الذي يوزن به الذهب، وكتاب وصف الآلة التي تزمّر بنفسها.



شكل الفوارة التي يفور الماء منها كهيئة السوسنة اذا اردنا، او كهيئة الترس.

المصادر: مجلة المشرق، بيروت م ٨/ ١٩٠٦، ص ٤٤٤ ـ مجلة تاريخ العرب والعالم ع: ٤٩ ص ١٨ تحقيق د. منى سنجقدار شعراني. تاريخ العلوم عند العرب د. عمر فروخ، بيروت: ٨٠، ص ٢٢٧.

ابن العوام

(ت ـ ١١٨٥م)

□ ابن العـوّام، هـو يحيى بن أحمـد بن العوّام الاشبيلي الأندلسي، كنيته أبو زكريا. ولد في أشبيلية ودرس العلوم على اختلافها. وكان مميّزاً في العلوم الزراعية.

□ اعتنى ابن العوّام بالأبحاث الزارعيـة، فدرسها في كتب الأقدمين، وقام بتطبيقها في جبل الأشرف، القريب من أشبيلية، وهنـاك كان يراقب ويجرّب ويسجل مـلاحظاته عن النبات وانواعه، والزراعة وأساليبها، والحيوان الداجن والبري.

□ لم تلتفت الكتب التاريخية المعنية لحياة ابن العوّام، أو لكتبه، سوى ان ابن خلدون ذكر له كتاباً اسمه: «كتاب الفلاحة»، والذي أعيد اعتباره حـديثاً بعـد أن وُجد في مكتبـة الاسكوريال في القرن الثامن عشـر. فترجم الى الاسبـانية وطبـع عام ١٨٠٢ في مـدريد وعام ١٨٧٨ في أشبيلية، وترجم الى الفرنسية أيضاً، وظهرت طبعته في باريس عام ١٨٦٥.

□ يعتمـد ابن العـوّام في كتـابــه على معلومات العلماء السابقين له ويعترف بفضلهم

مشيراً الى انه استند الى كتبهم، منهم: الدينوري، ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن الفاضل الاندلسي، وابراهيم بن محمد بن البصال الاندلسي، والحجاج احمد الفرناطي، وكلهم علماء في النبات ولهم كتب مميزة في هذا الحقل. كما اعتمد ابن العوام في كتابه على التجارب التي اجراها بنفسه، وقد بيّن ذلك منوّهاً بما زاده الى معلوماته وما يريد اطلاعنا عليه من انجازاته العلمية وملاحظاته.

□ يتكون «كتاب الفلاحة» من جزءين كبيرين، يشتمل الأول منهما على ستة عشر فصلاً، والثاني على ثمانية عشر فصلاً. أهمها:

- معرفة الأراضي وانواعها.
- انواع الزبل العضوي ومنافعه، ورماد بعض النبات بعد حرقه.
- انواع المياه ونبش الآبار، وكيفية معرفة وجود المياه في غور الأرض.
- كيفية انشاء الجنائن، وتنظيمها.
- كيفية زراعة الزيتون وتطعيم نصوبها وزراعة الأشجار المثمرة: كالخرنوب، والكستناء والعناب والفستق، والتفاح، والرمان، والتين، والسفرجل، والمشمش والدراقن، والتفاح...
- تقليم الاشجار المثمرة.
- ري الاشجار المثمرة.
- مكافحة امراض الاشجار المثمرة.
- طرق حفظ الحبوب والبذور والأبصال والعنب والزبيب وسائر الثمار المجففة.
- تربية الأبقار والأغنام والماعز واطعامها، واعداد حظائرها، وامراضها ومعالجة هذه الأمراض.

المصادر: تاريخ النبات عند العرب، د. أحمد عيسى، مصر: ١٩٤٤ ـ

ابن النفيس

(١٢١٠م - ١٢٨٨م)

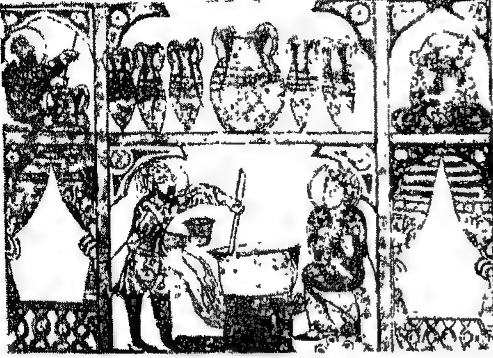
□ ابن النفيس، هو علاء الدين عليّ بن أبي حزم، كنيته ابو الحسن، ويعرف، أيضاً، بالقَرْشي، نسبة الى قَرْش - في ما وراء النهر - ومنها أصله. ولد في دمشق ودرس فيها الطب على مشاهيره، ومنهم مهذب الدين الذخوار، ثم ارتحل الى القاهرة حيث زاول المهنة في داره التي أثّثها لتستقبل المرضى، ودرّس في كتب الرازي وابن سينا وجالينوس. ثم اختاره السلطان بيبرس طبيباً خاصاً له وعميداً لأطباء البيمارستان الناصري الذي أسسه السلطان صلاح الدين، وانتقل، من ثم، عميداً لأطباء المستشفى المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون، وبقي يدرّس ويبحث ويؤلف الى أن وافته المنية في القاهرة، ولأنه كان غير متزوج فقد أوصى بثروته وأملاكه العديدة الى البيمارستان المنصوري.

□ ذخيرة ابن النفيس الطبيّة يسرتها له دراسة معمّقة للطب في دمشق، وممارسة عريضة له، فضلاً عن تدريسه في القاهرة. وقد وظف كل ذلك في تجاربه ومؤلفاته، فكانت انجازاته المميزة. هذا وابن النفيس كان يُخضع أبحاثه لمنهج علميّ واضح، فقد درس اعمال من سبقه من العلماء والأطباء قبل ان يحكم على غير السليم منها ويعتمد على الجيد لبناء نظريات جديدة. وقد اهتم بالظواهر والعوامل المؤثرة في جسم الانسان اكثر من اهتمامه بالطب العلاجي، لذلك يمكننا اعتباره عالماً محققاً بل رائداً في علم وظائف الأعضاء. مع تسجيلنا انجازاته التي سبق بها عصره، وبقيت وحيدة في الصدارة حتى اليوم.

□ من أهم أبحاث ابن النفيس هو ما كتبه عن الدورة الدموية الجزئية (الصغرى) في مؤلفه: «شرح تشريح القانون» لابن سينا، قال: «ان القلب له بطنان فقط، احدهما مملوء من الدم هو الأيمن، والآخر مملوء من الروح (الدم المنقّى بعد مزجه بالهواء) وهو

الأيسر، ولا منفذ بين هذه البطنين البتة. والتشريح يكذب ما قالوه، والحاجز بين البطنين اشد كثافة من غيره. فان نفوذ الدم الى البطن الأيسر انما هو من الرئة بعد تسخنه، وتصعده من البطن الايمن كما قررناه». هذه المقولة ناقضت كل ما سبق من آراء لأبقراط الذي اعتقد ان الدم يسير في الاوردة فقط والهواء يسير في الشرايين، كذلك ناقضت آراء جالينوس الذي لم يزد كثيراً على معلومات ابقراط، مع انه اشار الى عدم وجود منفذ بين تجويفي القلب، مع ظنه ان الدم ينتقل من التجويف الايمن الى الأيسر عبر منافذ خفية، وحده ابن النفيس عارض اراء من سبقه. وحين وصف هارفي «Harvey» العالم الانكليزي، عام ١٦٢٨ الدورة الدموية، مدعمة بالبراهين، اعتقد العالم انه الأول الذي اكتشف هذا الأمر الخطير، لكن العثور على مؤلف ابن النفيس وفيه ما يؤكد اسبقيته في هذا الاكتشاف بقرون عديدة، سجّل الفضل الأول له باعتراف علماء الغرب والشرق معاً.

□ وعارض ابن النفيس ابن سينا في موضوع غذاء القلب فقال: «وجعله الدم الذي في البطن الأيمن منه يتغذّى القلب لا يصح البتة. فان غذاء القلب هو من الدم المنبث فية من العروق المثبتة في جرمه».



من مخطوطة «الحشائش وخواص العقاقير» مكتبة آيا صوفيا

□ اهتم ابن النفيس بتشريح القلب والحنجرة، وكتب ابحاثاً حول النبض والتنفس، كما كانت له أبحاث في أمراض العين تختص بتشريحها ودرس عملية الابصار، ثم الكلام على اسباب امراضها وقواعد صناعة الكحل لمداواتها.

□ ولابن النفيس كتاب مهم آخر هو: «الموجز في الطب» يوجز فيه كتاب «القانون» لابن سينا، رتبه على أربعة فنون:

١ - في قواعد اجزاء الطب العلمية والعملية بقول كلي.

٢ - في الادوية والاغذية المفردة والمركبة.

٣ - في الأمراض المختصة بعضو دون عضو

٤ـ في الأمراض التي تختص بعضو دون آخر، واسبابها، وعلاماتها، ومعالجتها.

□ وقد اهتم ابن النفيس بعلوم اخرى غير الطب، كالفقه والحديث والفلسفة، ألّف فيها أيضاً، ودرّسها، خاصة الفقه. وله في ذلك: «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» و«كتاب فاضل بن ناطق»، مجاراة لكتاب ابن طفيل: حي بن يقظان.

□ من مؤلفاته:
- شرح قانون ابن سينا.
- شرح تشريح القانون.
- الموجز في الطب.
- شرح تقدمة المعرفة لابقراط.
- شرح مسائل حنين بن اسحق.
- المهذب في الكحل المجرّب.
- المختار من الاغذية.
- شرح فصول ابقراط.



المصادر: مخطوط المهذب في الكحل المجرب، الظاهرية، دمشق: رقم ٨٤٣٥ ـ مآثر العرب في العلوم الطبية، د. سامي حداد، بيروت: ١٩٣٦ ـ تاريخ الطب، د. الشطي، دمشق: ١٩٥٧.

ابن الهيثم

(٩٦٥ م - ١٠٣٩ م)

□ ابن الهيثم، هـو الحسن بن الحسن، كنيته أبو علي. ولـد في البصرة وعمـل فيها فترات متقطعة زار خلالها الاهواز وبغداد، ثم فضل ترك الوظيفة والتفرّغ للدرس والتأليف. وحدث أن نُقل عن لسانه الى الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه قال: «لو كنت في مصر لعملت بنيلها عملاً يحصل النفع في كـل حالـة من حالاته من زيادة ونقصان»، فاستقدمه الحاكم بـأمر الله وأجـزل له العـطاء، وكلّفـه دراسـة مجرى النيل. فقام ابن الهيثم مع فرقة هندسية يتبـع مجـرى النيـل حتى وصـل الى مكـان معروف بالجنادلي بالقـرب من خزان أسـوان اليوم، حيث ينحدر النهر بشدّة. وقضى هناك شهـراً، ثم لمـا وجـد، بعـد الـدراسـة، ان المصريين القدماء سبقوه الى ما يفكر به، وان الامكـانات العلميـة المتوافـرة قليلة لتـطويـر ذلـك، رجع الى الحاكم واعتذر منـه، فعـذره الحـاكم واستمرّ في إكـرامه. ثم انعـزل ابن الهيثم في الجامع الأزهر يؤلف وينسخ حتى توفاه الله.

□ كانت الحركة الفكريـة، في عصر ابن الهيثم، ناشطة، فكثـرت الترجمـات العلمية الى العربية. وقد درس ابن الهيثم ما حصل عليه من كتب الأقدمين، وعمد الى تلخيصها وشرحها، فتعـددت مقالاتـه ومصنفاتـه حتى بلغت حوالي ثلاثة واربعين كتاباً في الفلسفة والعلوم، وخمسـة وعشرين في الـرياضيات والعلم التطبيقي، فضلاً عن كتاب في الطب لخص فيه ثلاثين كتاباً لجالينوس. لكن أشهر كتاب له هو «المناظر».

□ كتـاب المناظـر لابن الهيثم يضمّ سبع مقالات هي:

١ - في كيفية الإبصار بالجملة.

٢ - المعاني التي يدركها البصـر وعللها وكيفية ادراكها.

٣ - أغلاط البصـر في ما يـدركه على

استقامة وعللها.

٤ ـ كيفية ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصقيلة.

٥ ـ مواضع الخيالات.

٦ ـ اغلاط البصر في ما يدركه بالانعكاس وعللها.

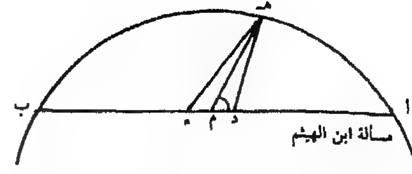
٧ ـ كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالفة الشفيف لشفيف الهواء.

□ أهم آراء ابن الهيثم في علم البصريات:

□ كان المعتقد ان الابصار يتم بخروج عناصر من العين أو شعاع على شكل مخروطي يصب على الشيء المرئي ليحدث الابصار، اما ابن الهيثم فقد قال ان الاشعاع ـ أو الضوء ـ نوعان، يصدر أحدهما عن الأجسام المضيئة بنفسها كالشمس والنار، ونوع عرضي يعكس ضوء غيره كالقمر والمرآة، وقال ان الاشياء تعكس النور وتصيب العين فيحدث الابصار، والاّ فلماذا لا ترى العين ـ وهي سليمة ـ في الظلام؟!. ودرس ابن الهيثم نفوذ الضوء فقال انه لا ينفذ في الأجسام الكثيفة بل في الاجسام الشفيفة، لذلك هو ينعكس عن الاجسام الصقيلة، وتحدّث هنا عن الانعطاف أو الانكسار أي: «Refraction»، وتنبّه «لسرعة الضوء» دون تحديده.

□ أراد ابن الهيثم أن يحسم حقيقة الابصار، فاستقرأ الموجودات، وجرّب، وبحث، وقال: ««لعلّنا بهذه الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدرونصل بالتدريج والتلطف الى الغاية التي معها يقع اليقين، ولكننا نجتهد بقدر ما لنا من القوة الانسانية». ومن تجاربه الريادية انه اتى بوعاء زجاجي كبير فيه حليب ووضعه في غرفة مظلمة كثر فيها الغبار، ثم ادخل الى الغرفة شعاعاً من الضوء عبر ثقب صغير، فتبيّن له انه اذا وضع وعاء الحليب في طريق الشعاع انكسر الشعاع عند سطح السائل ومال نحو القعر متخذاً طريقاً اقصر مما لو كان الوعاء مليئاً بالهواء، وكان من السهل رؤية الشعاع في الغبار، وفي الحليب. كما انه استطاع وصف اجزاء العين وطبقاتها بالتجربة، لتبيان عملها في نقل صور المرئيات الى الدماغ. وقد أصاب في وصف العين تماماً ونقلت عنه تسميات اقسامها الى اللغات الأجنبية.

□ وفي تاريخ علم البصريات مسألة له عرفت ـ ولم تزل ـ بمسألة ابن الهيثم، اهتم لها علماء كبار شرحوها وانتقدوها، وقد تفننوا فيها متناولين بعض أوجهها، خاصة مسألة الانعكاس عن سطح مرآة كروية مقعّرة، ومع ان العلماء زادوا فيها وبسطوها، لكنها لم تزل تحمل الى اليوم اسم: مسألة ابن الهيثم.



□ منهجه علمي، عملي، فقد كان رياضياً وفيلسوفاً محيطاً بالعلوم الطبيعية، يستطيع التخيّل، وتنظيم البحوث والتجربة معاً. وكانت مؤلفاته مبوّبة تحوي المصطلحات العلمية المحددة. اسلوبه العلمي الواضح صار نموذجاً للعلماء. واحاطته بالعلوم وابحاثه لم تكن ابداً نفعية، بل صدرت عن محب للعلم راغب في المعرفة ونشرها. كان يسعى وراء الحقيقة، متجرّداً، مستعيناً بالاستقراء والقياس، وهي الاساليب العلمية التي يمكن ان توصله الى أهدافه.

□ لم ينل ابن الهيثم شهرة كبيرة في الشرق لأنجازاته العلمية، ربما لقلّة من استفاد منها. وقد عُرف اكثر بأخباره المروية في التطبيب وبمغامراته السياسية، وربما عرف بعض الشهرة أيام الحاكم بأمر الله ثم قضى عليها انعزاله. امّا في الغرب، فقد عرفوا قيمته منذ القرن الثالث عشر، ونقلوا عنه معجبين ومؤكدين عبقريته في العلوم البصرية. فقد تأثر به وكتب عنه فيتلو في رسالته عن الضوء، وكذلك بايكون في بحوثه الفلسفية والعلمية وكثيرون وردت اسماؤهم وكتبهم في الموسوعات العالمية. وقد ترجمت كتب ابن الهيثم الى اللغات: العبرية والاسبانية والايطالية واللاتينية والانكليزية والفرنسية، مرات عديدة. لقد كان ابن الهيثم من اكبر العلماء في الشرق وفي الغرب، باعتراف الجميع، «وعلم البصريات وصل الى اعلى درجة في التقدم بفضله وليس غريباً ان يكون الفلكي العظيم كيبلر قد أخذ عنه ما توصل اليه من اكتشافات في علم البصريات، خاصة ما يتعلّق بتكسير الأشعة الضوئية في الجو، كما أكد ذلك العالم الفرنسي لوتيرفياردو».

□ من مؤلفاته:

- كتاب المناظر.
- كتاب الجامع في أصول الحساب.
- مقالة في بركار الدوائر العظام.
- مقالة في خواص المثلث من جهة العمود.
- مقالة في الضوء.
- كتاب صورة الكسوف.
- سمْت القبلة بالحساب.
- كتاب في هيئة العالم.

المصادر: أخبار الحكماء للقفطي - تراث العرب العلمي لقدري طوقان القاهرة: ١٩٦٣ - الحسن بن الهيثم لأحمد دمرداش أعلام العرب ٨٥ - 3 — Enc. Br. 1: 658. — Sarton Int. I 721

الادريسي

(١١٠٠ م - ١١٦٠ م)

□ الادريسي، هو محمد بن ادريس، كنيته ابو عبدالله، معروف بالشريف الادريسي. ولد في سبتة - شمالي المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط - ونشأ وتعلّم في قرطبة، فاطلع على علوم عصره: الفلك والرياضيات والهيئة والجغرافيا والنبات، ثم سكن الأندلس فترة قبل ان يطوّف بالدنيا.

□ زار الادريسي مدن الأندلس والمغرب ومصر. كما زار آسية الصغرى وعاصمتها، ومن أخباره نرجّح زياراته لاوروبا الغربية والشمالية، وبعد استقراره فترة في صقلية، عاد الى سبتة حيث توفي.

□ انتقل الادريسي للسكن في صقلية واتصل بملكها رجّار - روجر الثاني - فقرّبه منه، واستعان به مع علماء آخرين لدراسة جغرافية بلاده والعالم، مستغلاً معارف الادريسي ومهارته في صنع الخرائط الجغرافية.

□ يشير الادريسي في مقدّمة كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» أو «الكتاب الرجاري»، الى ان ملك صقلية، حين اتسع سلطانه، رغب في التعرّف الى جغرافية بلاده الشاسعة، ولم تكن الكتب المتوفرة له تفيده بتفاصيل ما يرغب. فجمع مشاهير العلماء، وبينهم الادريسي، وطلب منهم تحقيق ذلك، فأمضوا خمس عشرة سنة مقيمين عنده، يباحثونه ويسجّلون معلوماتهم المتفق عليها.

□ ويتابع الادريسي في مقدمته قائلاً: «فلما تمّ كل شيء، أمر ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم، ضخمة الجسم، في وزن ٤٠٠ رطل رومي، في كل رطل منها ١١٢ درهماً. ثم أمر الفعلة ان ينقشوا عليها صورة الأقاليم السبعة ببلادها، واطوالها، واقطارها، وسبلها، وريفها، وخلجانها وبحارها، ومجاريها، ونوابع انهارها، وعامرها، وغامرها، وما بين كل بعد من الطرقات المطروقة، والاميال المحدودة، والمسافات، والمراسي المعروفة، ولا يغادروا

فيها شيئاً».

□ وقد ألف الادريسي كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» بطلب في الملك رجّار لما يطابق الصور المحفورة في الدائرة الفضية، فضمّ معلومات هامة عن الأرض وما فيها: طبيعياً وبشرياً، مفصلاً في التجارة والصناعة والزراعة والاديان والملابس واللغات...

□ وقد صحّح الادريسي في كتابه هذا علوم الاوروبيين الشائعة يومذاك، فاهتمّوا به ونقلوا عنه، مركزين على دقة خرائطه، اذ كانت على درجة عظيمة من الصحّة. والادريسي هو أول من رسم خريطة للعالم صحيحة ومعتمدة.



خريطة الادريسي للعامل: الشمال في اسفل الخريطة والجنوب في أعلاها

اهتم المجمع العلمي العراقي بهذه الخريطة، ووكّل بها فريقاً من الاختصاصيين استخدم العديد من صورها الناجحة حتى اخرجها عام ١٩٥١ بشكل جيد، فبلغ طولها مترين وعرضها متراً واحداً

□ رغم نقل الادريسي معلومات عن جغرافيين سبقوه، إلّا أن كتابه تميّز: أولاً بخرائطه، وثانياً بجمعه للمعلومات المشتقة باتفاق اكثر من عالم، من ذلك:

«والأرض ذاتها مستديرة لكنها غير صادقة الاستدارة، والبحر المحيط بنصف الأرض احاطة متصلة دائرتها، فكذلك الأرض، نصفها مغرق في البحر والبحر يحيط به الهواء».

«واستدارة الفلك في موضع خط الاستواء ٣٦٠ درجة، وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين ٩٠ درجة الّا ان العمارة في الأرض بعد خط الاستواء ٦٤ درجة والباقي من الارض خلاء لا عمارة فيه، لشدة البرد والجمود».

وقد جعل الادريسي العالم سبعة أقاليم، وفي وصفه لبلدانها لم يكن دائماً دقيقاً ومستوفياً، فقد استخدم للمسافات الميل والفرسخ لكن لم يذكر خطوط الطول والعرض.

□ ترجم كتابه كاملاً ومختصراً بالعربية (١٥٩٢) وبكل اللغات الاوروبية، وبقيت معلوماته وخرائطه معتمدة فترة طويلة.

□ وللادريسي في الجغرافية، ايضاً،

كتاب آخر قدّمه للملك غليام (غليوم الأول) خليفة الملك رجّار، اسمـاه: «روض الأنس ونزهة النفس» ولم يصلـنا الاّ مختصر مخطوط له، موجود في مكتبة حكيم اوغلو علي باشا في اسطمبول.

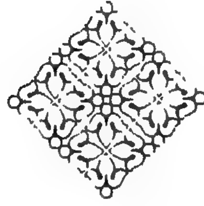
□ من مؤلفاته:

ـ نزهة المشتاق في اختراق الأفاق.

ـ روض الانس ونزهة النفس.

ـ الجامع لصفات اشتات النبات وصروب انــواع المفــردات من الاشجــار والـثمــار والحشـائش والازهار والحيـوانات والمعـادن وتفسير اسمائها بالسريانية واليونانية واللطينية والبربرية.

ـ انس المهج وروض الفرج.



المصادر: أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، صلاح الدين المنجد، مؤسسة التراث العربي، بيـروت: ١٩٦١ ـ تـاريـخ الأدب الجـغـرافـي، كـراتشفسكي القـاهـرة: ٦٣ ـ نـزهـة المشتـاق... للادريسي، روما: ١٥٩٢.

البتّاني

(٨٥٤ م - ٩٢٩ م)

□ البتّاني، هو محمد بن سنان الحرّاني، كنيته ابو عبدالله. ولد في بتّان قرب حرّان. اشتهر بأبحاثه الفلكية والرياضية. أقام أرصاده في الرقة على نهر الفرات، وقد وضع نظريات عديدة في الفلك، ولم يترك العراق، وفيها توفي.

□ للبتّاني أبحاث مهمة في علم المثلثات، وقد اسهم في جعله علماً مستقلاً. استخدم معادلات المثلثات الكرية الأساسية، والخطوط المماسة للأقواس. وقد فضّل حساب الهنود بالجيب، أي بنصف الوتر، على الحساب بالوتر تبعاً لطريقة بطليموس، وفي عمله هذا جرأة العالم الذي فضل الطريقة الأقل شهرة لاقتناعه بها. وهو أول من وضع جداول لظل التمام. كما أسهم في ايجاد الحلول الجبرية لمسائل هندسية عديدة.

□ وقد اشتهر البتّاني برصده للنجوم، رغم عدم توفّر الآلات الدقيقة في عهده.

واعتمد في معلوماته على كتب الأقدمين مضيفاً اليها ما لاحظه وخبره، وذكر كتاب المجسطي لبطليموس فقال: «قد تقصّى بطليموس علم الفلك من وجوهه ودلّ على العلل والاسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعددي. ثم ان بطليموس اشار على الذين سيأتون بعده بأن ينظروا في هذه الصناعة بعين الروية والاعتبار وقال انه يجوز ان يستدرك عليه أحد في الزمن المتطاول اشياء [تبدّلت مع الزمن]، كما استدرك هو على ابرخُس [معلم بطليموس] وغيره من نظرائه اشياء كثيرة، لجلالة هذه الصناعة ولأنها سمائية جسيمة لا تدرك الاّ بالتقريب».

□ والبتّاني مؤمن بأن ما يقوم به هو لتأكيد حكمة الله تعالى، قال في مقدمة كتاب له في الفلك: «ما يدرك بذلك من أنعم النظر وادام الفكر فيه من اثبات التوحيد، ومعرفة كنه عظمة الخالق، وسعة حكمته، وجليل قدرته، ولطيف صنعه، قال عز من قائل: ﴿ان في

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب﴾ البقرة /٢ ـ وقال تبارك وتعالى: **﴿تبارك الذي جعل السماء بروجاً﴾** الفرقان / ٢٥ ـ وقال عز وجلّ: **﴿الشمس والقمر بحسبان﴾** الرحمن / ٥٥ ـ مع اقتصاص كثير من كتاب الله عز وجل يطول وصفه».

□ وللبتّاني منهجه العلمي في الرصد: فقد اكّد ان أهم مقومات عمله هو جمع الأرصاد الوفيرة المتقنة، والمطالعة المعمقة في كتب الأقدمين ونقدها، وتصحيح اللازم بعد انعام الفكر والتأمل. وذلك لأن «الحركات السماوية لا تحاط بها معرفة مستقصاة حقيقية الّا بتمادي العصور والتدقيق في الرصد» وفي هذا اعتراف بجهود العلماء المتتابعة، مع ما في خطواته من موضوعية وبُعد نظر، ذلك لأن الجهود البشرية محدودة «فان الذي يكون فيها من تقصير الانسان في طبيعته عن بلوغ حقائق الاشياء في الافعال كما يبلغها في القوة، يكون يسيراً غير محسوس عند الاجتهاد والتحرّز، لا سيما في المدد الطوال...».

وهو العالم المؤمن بالصبر والتواضع وعدم التفاخر، فالناس طبقات وما يدركه العلماء لا يدركه الآخرون، لكن لا ضرورة للترفع أبداً.

□ صنع البتّاني زيجاً أثبت فيه الكواكب الثابتة لسنة ٢٩٩ هـ، وجعل من هذا الزيج نسختين، والثانية منهما أجود.

□ للبتاني كتب عديدة في الفلك والجغرافيا. منها الزيج الصابي الذي شاع استعماله في اوروبا، وترجم وطبع مرات، من مواضيعه:

ـ معرفة أقدار اوتار اجزاء الدائرة.

ـ معرفة أقدار ما يطلع من فلك معدل النهار.

ـ مقدار ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل.

ـ ومعرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الفلك.

ـ معرفة حركات سائر الكواكب بالرصد، ورسم مواضع ما يحتاج اليه منها في الجداول في الطول والعرض.

المصادر: كتاب الزيج الصابي للبتاني، حققه كارلونالّينو، ١٨٩٩. ـ تاريخ علم الفلك، عبد الحي حمّوده، القاهرة: ١٩٥٢ ـ تراث العرب العلمي، قدري طوقان، القاهرة: ١٩٦٣.

البوزجاني

(٩٤٠ م - ٩٩٨ م)

□ البوزجاني، هو محمد بن يحيى بن اسماعيل، كنيته أبو الوفاء. ولد في بوزجان - بين هراة ونيسابور - درس على عمه المعروف بالمغازلي العدد والحساب، وعلى الماوردي الهندسة. وعندما بلغ العشرين من عمره، سكن بغداد، وفيها وضع ابحاثه الرياضيّة المهمة، فاشتهر وجالس الامراء وأخذ العلماء عنه. وتوفي في بغداد.

□ كان البوزجاني من أهم علماء الفلك والرياضيات في عصره. تميّز عن غيره باضافاته وباسلوبه الواضح في شرح مؤلفات من سبقه. قال فيه ابن خلكان: «وله فيه - في علم الهندسة - استخراجات غريبة لم يسبق اليها».

□ وضع البوزجاني مؤلفات عديدة للخاصة والعامة، فشرح كتب اقليدس والخوارزمي، والّف في الجبر والهندسة، كما وضع اول كتاب في الرسم الهندسي، وله مؤلفات للصناعي والهندسي والاقتصادي.

وأهم انجازاته العلمية:

□ في كتابه «عمل السطرة والبركار والكونيا» وهو ما ترجمه الغربيون بـ: «Constructions Géométriques» «طرق مبتكرة في الرسم الهندسي، ابوابه: .

في عمل المسطرة والبركارات - في عمل الأشكال في الدوائر - في عمل الدائرة على الأشكال - في عمل الأشكال بعضها في بعض - في الاصول والكونيا (المثلث القائم الزاوية) - في عمل الأشكال المتساوية - في قسمة المثلثات - في قسمة المربعات - في عمل مربعات من مربعات وعكسها - في الدوائر المتماسّة - في قسمة الأشكال على الكرة - في عمل الدائرة في الأشكال وهذا الأخير كتاب مهم، ترجم الى اللغات الاوروبية، واستند اليه علماء الهندسة واستقوا منه.

□ أدخل البوزجاني حسابات القاطع والقاطع تمام، وجداول المماس، واوجد

طريقة لحساب جداول الجيب، وكانت جداوله دقيقة، حتى قيل ان جيب زاوية ٣٠ دقيقة كان عنده صحيحاً الى ثمانية أرقام عشرية. وقد وضع بعض المعادلات التي تتعلّق بجيب زاويتين، وكشف بعض العلاقات بين الجيب والمماس.

□ استعاض البوزجاني عن المثلث القائم الزاوية من الرباعي التام بنظرية منالاوس مستعيناً بما يسمّى قاعدة المقادير الأربعة: (جا ١ : جتاحـ = جا ١ : ١).

□ وهو أول من وضع النسبة المثلثية أو الظل وأول من استعملها في حلّ المسائل الرياضية. قال البيروني: «ان الفضل في استنباط هذا الشكل ـ شكل الظل أو المماس ـ لأبي الوفاء بلا تنازع من غيره».

ونظريته:

(ظا ١ : ظا ١ = جاب : ١).

وقد استخرج من القاعدتين السابقتين:

جتاحـ = جتا ١ × جتاب

□ زاد البوزجاني في الجبر على بحوث الخوارزمي ما يمكنه أن يعد اساساً لعلاقة الجبر بالهندسة، فأوجد حلاً هندسياً للمعادلتين:

$س^{٤} = ح$.

$س^{٤} + ح\ س^{٣} = ب$.

□ وحين اختلف العلماء في نسبة الخلل في حركة القمر، وناقشوا ذلك في اكاديمية العلوم الفرنسية في القرن التاسع عشر، ارجعوا فضل معرفة هذا الخلل الى فلكي دانمركي، قبل أن يُثبت لهم الباحثون، فيما بعد، أن معرفة ذلك كان من اكتشاف البوزجاني، وان الفلكي الدانمركي ادعاه لنفسه، ولهذا الاكتشاف اليوم اهميته الكبرى في علم الفلك.

□ من مؤلفاته:

ـ عمل المسطرة والبركار والكونيا.

ـ «كتاب فيما يحتاج اليه الصناع من اعمال الهندسة» ـ الّفه بطلب من بهاء الدولة ليتداوله أرباب الصناعات دون الخوض في المعادلات الصعبة، وهو محفوظ في مكتبة آيا صوفيا.

ـ «كتاب ما يحتاج اليه العمال والكتاب في صناعة الحساب» وهو المعروف بـ «منازل في الحساب»، الّفه للعامة، وفيه كل ما يهم العمّال والتجار وغيرهم من غير العلماء والمتخصصين، وقد جعله سبعة أبواب: في النسبة ـ في الضرب والقسمة ـ في اعمال المساحات ـ في اعمال الخراج ـ في أعمال المقاسات ـ في الصروف ـ في معاملات التجار.

ـ كتاب معرفة الدائرة من الفلك.
ـ كتاب الكامل.
ـ كتاب استخراج الاوتار.
ـ كتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة.
ـ كتاب المدخل الى الارتماطيقي.
ـ كتاب المجسطي، محفوظ في مكتبة باريس الوطنية.



من المصادر: تراث العرب العلمي. قدري طوقان، القاهرة: ١٩٦٣ ـ تاريخ الرياضيات. لطفي وعباس، القاهرة: ١٩٥٥.

البيروني

(٩٧٣ م - ١٠٥٠ م)

□ البيروني الخوارزمي، هو محمد بن أحمد، كنيته ابو الريحان. ولد في خوارزم - في بلاد تركستان الروسية اليوم - وتنقّل بين كوركنج وجرجان وبخارى. . . يتصل بالامراء، ويعمل لهم منجماً ومستشاراً. وكان في جرجان لما استولى عليها السلطان محمود الغزنوي، فحمله مع أسرى غيره من العلماء، ثم اصطفاه منجماً في بلاطه ورفيقاً له في رحلاته الى الهند، فاكتسب من ذلك كثيراً. وبقي البيروني متصلاً بالبلاط الغزنوي بعد وفاة السلطان محمود وتسلّم ابنه السلطان مسعود مكانه، وفي هذه الفترة تحسنت أحواله المادية، وازدادت حريته، فوضع أهم مصنّفاته، حتى توفي بعيد ١٠٥٠ م.

□ البيروني طالب دائم للمعرفة، متجرّد عن كل تعصّب وهوى، تجرّأ على تسجيل «ما استشنع على أرسطو» وصحح «أخطاء بطليموس»، وانّب ونقد وهاجم، وكان على فراش موته حين طلب من عالم يعوده جواباً، فبكى العالم وقال له: أعلى فراش الموت تطلب العلم، فردّ البيروني: أخشى أن ألقى ربي جاهلاً. كان البيروني من اعظم العلماء: رياضياً وفلكياً وجغرافياً وفيلسوفاً ورحّالة. بلغت كتبه اربعمائة وسبعة عشر. يؤخذ عليه انشغاله بالأرقام وايجازه في العبارة، قال في ذلك: «اكتُب. . . لمن له دراية واجتهاد. . ومحب العلم. . ومَن كان على غير هذه الصفة، فلست ابالي أفهم أم لم يفهم. . .»

□ اتقن البيروني العربية والسريانية والعبرية والفارسية وبعض لغات الهند. اهتم بالأرقام والحساب، والهندسة، وتعيين خطوط الطول والعرض للأرض، واهتم برصد الاجرام السماوية وكتابة التقاويم. كما استفاد من رحلاته الى الهند وألّف فيها كتاباً جامعاً فريداً.

□ درس البيروني علم المثلثات وعرف قانون تناسب الجيوب أي: «Sinus» واشتغل

بالجداول الرياضيّة للجيب أي: «Table des Sinus» والظل أي: «Table des Tangentes» استنادا الى جداول وضعها ابو الوفاء البوزجاني. كما انه صمّم جهارا بسيطا لقياس الوزن النوعي أي: «Poids Spécifique» للأجسام، وتوصل الى المعادلة في ذلك (D. P/V) وقد وجد الوزن النوعي الصحيح لثمانية عشر عنصرا أي: «Corps Simple» ومركباً أي: «Corps composé»، ومنها الذهب ١٩،٢٦، وهو الوزن النوعي المعتمد اليوم، وقال ان الذهب سمي هكذا «لأنه سريع الذهاب بطيء الاياب على الأصحاب». وقام البيروني بدراسات على ضغط السوائل أي: «Pression des liquides» وتوازنها أي: «Hydrostatique» كما شرح ارتفاع السوائل في الأوعية المتصلة أي: «Vases communiquants» وصعود مياه الفوارات والينابيع من تحت الى فوق

☐ قاس البيروني خطوط العرض والطول وحدّد أماكن البلدان، وكان همّه في ذلك تحديد موقع الكعبة الشريفة بالنسبة الى غزنة. وتكلم على كروية الأرض وعلى دورانها على محورها، دون أن يصل الى نتائج حاسمة في ذلك، واستطاع تسطيح الكرة، أي نقل الخطوط عنها الى مسطح، مسهّلاً بذلك عمل الفلكيين والجغرافيين بعده.

☐ وقد وضع البيروني نظرية تستخرج مقدار محيط الأرض، مستخدماً قاعدة عُرفت باسمه هي: ب جتام/ ١ حتام، وقد طبق هذه القاعدة على جبل مشرف على البحر وعلى سهل مستوٍ في الوقت نفسه، فوجد ان ارتفاع الجبل ٦٥٢ ١/٢٠ ذراعاً وانحطاط الأفق ٣٤ دقيقة، حينها استخرج مقدار درجة خط نصف النهار، واذا هي ٥٨ ميلاً تقريباً.

س = نصف قطر الأرض
ا = قمة جبل
ا ع = الخط الذي يصل رأس الجبل
ا بمركز الأرض ع
الزاوية ع ا ء = انحطاط الافق

قاعدة البيروني لاستخراج محيط الأرض

☐ اتضح لنا من مقدمة «كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية» ان منهج البيروني العلمي

يتسم بالصفات التالية: الرجوع الى ما خلّفه السلف، ودراسته علمياً قبل بناء الجديد. ولا يكون ذلك الّا باستخدام المقاييس العقلية «بعد تنزيه النفس عن العوارض الرديئة والاسباب المعمية لأصحابها عن الحق. وفي ذلك ينبغي ترك التعصب والتظاهر وأشباه ذلك، ابتغاء للحقيقة». وهذه الميزات العلمية مفخرة لكل عالم، اكّد ذلك علماء الشرق والغرب منوّهين بشجاعة البيروني الفكرية ومنهجه العلمي في البحث

□ وقد سجّل في كتابه الفلكي «القانون المسعودي» ـ الذي يحوي معلومات كثيرة عن تاريخ الأمم وتقاويمها ـ ملاحظات قيمة عن حركة الأجرام السماوية وحركة الشمس وكيفية تبيّنها بشكل هندسي، والخسوف والكسوف وحساب رؤية الأهلّة.

□ أول من تنبّه من الاوروبيين الى مآثر البيروني كان المستشرق نيكولاس دي خانيكوف عام ١٨٦٦ ثم المحقق الألماني ساخاو الذي ترجم كتابين له الى الألمانية والانكليزية، ومما قال فيه: «البيروني اعظم عقلية ظهرت في التاريخ» وقيل فيه إثر ترجمة كتابه عن الهند: «محاولة فريدة من رجل مؤمن يدرس بنزاهة وتجرّد حضارةً وثنية.. ومن جهة تاريخية جاءت هذه الدراسة اكبر ظاهرة علمية في تاريخ الاسلام... وجميع ما كتب من قبل هو أشبه بألعاب أطفال..» واليوم في روسيا جامعة ومدينة باسمه، وجامعات العالم تفخر به وتكرّم آثاره.

□ من مؤلفاته:

ـ كتاب تاريخ الهند.

ـ كتاب مقاليد علم الهيئة وما يحدث في بسيطة الكرة.

ـ كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم.

ـ كتاب استخراج الاوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني.

ـ كتاب التطبيق الى تحقيق حركة الشمس.

ـ كتاب في تحقيق منازل القمر.

ـ كتاب جدول الدقائق.

ـ كتاب جدول التقويم.

ـ مقالة في استخراج قدر الأرض برصد انحطاط الافق عن قلل الجبال.

ـ مقالة في تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض.

من المصادر: الآثار الباقية، ليبزيغ: ١٨٧٨ ـ القانون المسعودي، حيدر أباد: ١٩٥٤ ـ رسائل البيروني، حيدر أباد: ١٩٤٨ ـ أبو الريحان البيروني، محمد جمال الفندي. أعلام العرب ٧٧، ١٩٦٨ ـ

الخازن

(الــربــع الأول من القــرن الثــاني عشر م)

□ الخــازن، أو الخازني، عبـد الرحمن، كنيته أبو الفتح، لم تصلنا أخبار موثـوقة عن حياته، سوى انه ظهر في مرو ـ احـدى مدن خـراسـان ـ واشتغـل بعلم الفلك والفيـزيـاء والميكانيكا والهيدروستاتيكا. وقد خلط الرواة والمؤرخون بينه وبين غيره من العلماء، الاَّ ان المؤلفات المنسوبة اليه، باعتراف الجميـع، تؤكـد انجـازاتـه العلميـة، وأهمهـا: ميـزان الحكمة الذي عثـر عليه صـدفة في منتصف القرن الماضي، فنُشر محققاً، وترجمت بعض فصـوله، لتضـع الخازن في مصـاف العلماء العرب البارزين.

□ اهتم الخـازن بالـريـاضيـات والفلك، ووضع جداول فلكية أسماها: «الزيج المعتبر السيخـاوي» (سنـة ١١١٦)ك، وجداول لتعيين الزمن استنـاداً الى خـطوط العـرض المـارّة بمدينة مرو. وقد اعتمد المستشرق الايطالي نلينـو (Nallino) على ابحـاث الخـازن في أبحاثه عن المسائل الجغرافية والفلكيـة عند العرب.

□ اخترع الخازن آلات ساعدته في وزن الأجسام في الهواء وفي الماء، ممهّداً لوضع الايرومتر لقياس الكثافات ومن ثم الترمومیتر، مقدماً بـذلك خـدمات جلّى لـدراسة طبيعـة الغـلاف الجوي. وقـد توصـل الخـازن الى معرفة الجاذبية حين بحث في سقوط الأجسام وانجذابها نحـو مركـز الأرض، كما قيـل انه عـرف نسبة السـرعة المتصـاعدة في سقـوط الأجسام.

□ وعمـل الخازن على استخـراج الثقـل النوعي للأجسام، وذلك بوزنه الجسم أولاً في الهواء، ثم وزنه نفسه في الماء داخـل وعاء مخـروطي الشكـل مثقـوب على علو معيّن، وقيـاس كميَّة المـاء المنسكبة لمعـرفة حجم الجسم، ومن قسمـة وزن الجسم في الهـواء على وزن المـاء المنسكب يستخـرج الثقـل النـوعي لمادة الجسم المعني. وقـد استطاع بهـذا الميزان الخـاص به، ان يتـوصـل الى قياس الوزن النوعي لأجسام عديدة، فقاربت

الأرقـام التي حصل عليهـا الأرقام الحـديثـة المعتمدة. وقد عزا العلماء اختـلاف الأرقام أحياناً لاختلاف الطبيعة: فماء البحر الداخلي تختلف ملوحته عن ماء البحر المفتوح، والمرعى الخصيب غير المرعى الصحراوي... وهذه لـوحة مقـارنة لبعض ارقـام النسب الحديثـة ومثيلاتها عند الخازن لعدد من السوائل:

المادة	النسب الحديثة	النسب التي سجلها الخازن
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٩	٠,٩٥٨
الماء عند درجة الصفر	٠,٩٩٩	٠,٩٦٥
ماء البحر	١,٠٢٧	١,٠٤١
حليب البقر	١,٠٤ ـ ١,٤٢	١,١١٠
دم الانسان	١,٠٤٥ ـ ١,٠٧٥	١,٠٣٣

من المصادر: ميزان الحكمة للخازن، حيدر أباد: ١٣٥٩ هـ ـ المجلة الشرقية الأميركية ٨٥/ ص ١٢٨ ـ

Aldomiele — La science arabe… Leiden 66, P, 101.

الخوارزمي

(٧٨٠ م - ٨٥٠ م)

□ الخـوارزمي، محمد بن مـوسى، كنيته ابو جعفر، ولد في خوارزم - في بلاد تركستان الـروسية اليـوم - حوالي السنـة ٧٨٠ م (؟)، لكنه عاصر الخليفة المأمون، وعمل في «بيت الحكمـة» الذي انشـأه الخليفـة، وكـان من علمائه المرموقين. لم يصلنا الكثير عن حياته الخـاصة الاّ أن أخبـار انجازاته في حقـول الرياضيات والفلك، وكتبه التي وصلتنا، تؤكد مكانته وتشير الى فضله العلمي الكبير. توفي في بغداد سنة ٨٥٠ م.

□ يعتبر الخوارزمي أول من وضع كتباً في علم الجبر، وهـو أول من فصـل بين علم الحسـاب أي: «Arithmétique» وعلم الجبر أي: Algèbre، ولفـظة «جبر» من وضعـه، استخدمها لحل المعادلات بعد تكوينها. وقد توصل الخـوارزمي الى حلّ المعـادلات من الدرجة الثانية واستخرج قيمة جذورها الموجبة أي: «Racines positives» كما تعـرّف الى المعـادلات ذات الجـذور التخيّليـة أي: «Racines imaginaires» والمعبّر عنها حديثاً بـ: ٥ > ∆ ، وقد يكون تأثر بما توصل اليه اليونان في هذا العلم، لكن المؤكـد أنه عـالـج هـذه المـادة بـأسلوب منـظم واضـح ومتسلسل، جعل العلماء اليوم يـربطون علم الجبر به معترفين بفضله واسهامه الكبير فيه.

□ ألف الخوارزمي كتابه «الجبر والمقابلة» بتكليف من الخليفـة المـأمـون: «كتـابـاً مختصراً، حاصراً للطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة اليه في مواريثهم ووصـايـاهم، وفي مقـاسمتهم وأحكـامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة». وقد وضع الخوارزمي اصطلاحات لعلم الجبر في كتابه هي:

١ - الجذر، وهو ما نسميه المجهول: س. وكان علماء الجبر يسمونه «الشيء».

٢ - المال، وهو الجذر المضروب بنفسه، أي مربع الجذر: س٢.

٣ ـ المفرد، وهو العدد الخالي من الجذر، أي الخالي من المجهول: ٢، ٤، ٢٠، . . .

٤ ـ جزء الشيء، وهو معكوس الجذر: ١/س.

وقد عمد الخوارزمي الى حلّ هذه المعادلات باسلوبين: اسلوب خالٍ من الرموز الواردة، واسلوب يستخدمها فيه. ولم يذكر الخوارزمي سوى ستة أنواع من المعادلات أي: «Equations».

□ كما عالج الخوارزمي في كتابه «الجبر والمقابلة»: مساحة بعض السطوح أي: «Figures planes» المستقيمة الأضلاع والأجسام. ومساحة الدائرة، ومساحة قطعة الدائرة أي: «Segmentcirculaire» وتعيين قيمة النسبة التقريبية ١٦ عيّنها بـ ١/٧ ٣ أو ٢٢/٧. وتوصل الى برهنة نظرية فيثاغورس المتعلقة بالمثلّث القائم الزاوية وذلك في حالة المثلث القائم الزاوية المتساوي الساقين أي: «Triangle réctangle isocèle» وهو أول مَن سمّى العمود النازل من منتصف القوس اي «Corde» بـ«السهم» وتوصل الى حساب طول الوتر بواسطة القطر والسهم. كما استطاع تقديم حلول عملية لتوزيع أنصبة الأرث حسب الشريعة الاسلامية.

□ والخوارزمي وضع ما يسمى اليوم باسمه: حساب لوغاريتم أي «Logarithme»، وهو الحساب الذي يحوّل عمليات الضرب الى جمع وعمليات القسمة الى طرح.

□ ان قيمة الخوارزمي العالمية اعترف بها الاوروبيون وعلماؤهم، وسجلوا له رياداته معتبرينه في علم الجبر أفضل من الاغريق فقد «عزّز في جبره الصفة الحسابية المحض

لتكن حـ هـ = س

ب هـ = ١٤ − س

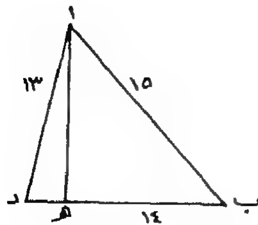
$١٥^{٢} - (١٤ - \text{س}^{٢}) = ١٣^{٢} - \text{س}^{٢}$

ويتج أن س = ٥

الآن $\text{أ هـ}^{٢} = ١٣^{٢} - ٥^{٢} = ١٤٤$

أ هـ = ١٢

المساحة = $\frac{١٢ \times ١٤}{٢} = ٨٤$

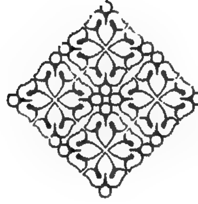


معادلة من الدرجة الثانية للخوارزمي

للأعداد بوصفها كميات متناهية من طريق اظهار كونها عناصر في التكييف والاستقصاء اللامتناهي للخواص والعلاقات، ففي الرياضيات الاغريقية لا تستطيع الاعداد أن تنبسط الاّ بعمليات الجمع والضرب الشاقة، اما رموز الخوارزمي الجبرية التي اصطنعها لتحل محل الاعداد فتحتوي في ذاتها على كمونيّات اللامتناهي».

□ من مؤلفاته:

- الزيج الأول.
- الزيج الثاني المعروف بالسند هند.
- كتاب الرخامة.
- كتاب العمل بالاصطرلاب.
- كتاب الجبر والمقابلة.



المصادر: كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي ط ٣ - القاهرة: ١٩٦٨ - الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي، البرقوقي والتونسي، القاهرة: ١٩٦٤.

الدينوري

(ت ـ ٨٩٥ م)

□ الدينوري، هو أحمد بن داود، كنيته ابو حنيفة. ولد في دينور ـ ايران ـ ونشأ في العراق، لكن المراجع لم تفدنا بمعلومات وفيرة عن حياته وعلمه وعمله، واكتفت بالاشارة الى تنقّله في عدة بلاد. ونستنتج من كتاباته انه كان مُلمّاً بعلوم الأقدمين: دينية ولغوية، وحيوانية، ونباتية. هذا فضلاً عن بُعد همته في الملاحظة الميدانية والاستقصاء والتأمل لاستخلاص الفائدة.

□ وقد عرفنا للدينوري «كتاب النبات» أشير اليه في المصادر القديمة، لكن لم يبق الاّ فصول منه طبعت في ليدن عام ١٩٥٣. يقول الدينوري في صدر أوراقه: «أتينا فيما قدّمنا من أبواب هذا الكتاب على ما استحسنّا تقديم ذكره قبل ذكر النبات نبتاً نبتاً، فلم يبق الاّ ذكر أعيان النبات، ونحن آخذون في تسميتها وبما انتهى الينا من صفته أو شاهدناه، وان كان ذلك اختلافٌ مما يُرى انه ينبغي أن يذكر... ونعتمد في تجنيسها والصفات التي تعم الكل... ونجعل ما نذكر على اوائل حروف اسمائها وان اختلط جلّ الشجر فيه بدقّه واختلط ايضاً الشجر بالأعشاب وبقلها وجنبتها». وهذا القول يثبت ان منهجه علمي اعتمد الموروث والمشاهدة، في نسق منظم معجمي السرد.

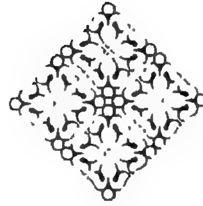
□ ويذكر الدينوري في هوامش اوراقه مصادرَه، فاذا هي مجاميع الأدب واللغة والرحلات، بما فيها كتاب الفلاحة لابن العوام ومعجم البلدان للحموي والنبات للاصمعي. وفي طيات مؤلفه شواهد لغوية واشعار وحكم ومسائل في النحو، بل ومجادلات فكرية.

□ يبدأ بذكر نبت الاراك، «... وقد تكون الاراكة دوحة واسعة محلالاً، ولها ثلاث ثمرات: المرْد (أشده رطوبة وليناً) والكبات (يشبه التين) والبرير (كأنه الخرز الصغار)».

□ وقد ذكر في فصول مؤلفه اكثر من تسعماية وثلاثين نبتاً، منها: آس، اسفند،

بلسن، بلوط، ترمس، تفاح، ثفل، ثوم، جدّاد، جراز، جرجار، جرجير، جزر، حنّاء، حسافة، حلّب، حلفاء، حمص، صناء، خردل، خس، خوخ، دفلى، دلب، ذرة، وشاء، رطب، رمان، صنوبر، طلح، طوط، عرعر، عصفر، علقم، عناب، عوسج، غار، فجل، فقاح، قثاء، قرنفل، قطن، كبات، كزبرة، كمون، لوبيا، مشمش، نارجيل، نرجس، هدال، هليون، هندباء، ورس، وغد، لقطين.

□ اهتم الدينوري بالنبات وحده، وكان تفرّغه له ملفتاً للعلماء، فقد خصّه باهتمامه ذاكراً في ثنايا مؤلفه كل ما يتصل به من وصف لمنبته، والمناخ المناسب له وتشكله دواء منفرداً أو مع غيره، ذاكراً اسماءه وألقابه، واثماره وتفرّعاته، غير غافل عن مصادر هذه الاسماء ودلالاتها وشواهد ذلك في الحديث والنثر والشعر.



المصادر: كتاب النبات، طبع ليدن: ١٩٥٣ ـ تاريخ النبات عند العرب، د. أحمد عيسى، مصر: ١٩٤٤.

الرازي

(٨٦٥م - ٩٢٥م)

□ الرازي، هو محمد بن زكريا، كنيته ابو بكر، ولد في مدينة الري - جنوبي طهران - ولم يلتفت للعلم قبل سن الثلاثين، حين انقطع لدراسة الطب والكيمياء والحكمة. اتصل الرازي بالخليفة العباسي عضد الدولة وعمل له. وقد حقق في حياته انجازات مهمة في حقلي الطب والكيمياء، وبعد وفاته استأذن الأديب الكبير ابن العميد اخته ليأخذ اوراقه وينشرها تحت اشراف اصدقاء علماء، لتعمّ فائدة أعماله بين الناس.

□ ومن بين أهم كتبه التي نشرت بعد وفاته كتاب «الحاوي»، وهو في ثلاثين مجلداً، جمع فيه الرازي طب اليونان وطب الهنود، مضيفاً اليهما ثمرات تجاربه وملاحظاته. ومن الأمراض التي تعرّض لها في كتابه: السكتة والفالج واوجاع العصب واسترخائه والمالنخوليا والصرع والكابوس والتشنّج والكزاز وامراض العيون والأنف والحنجرة والاسنان. وكان الرازي يصف أعراض كل مرض وما يناسبه لمداواته من علاجات وأغذية، ممثلاً على ذلك بتجاربه الميدانية.

□ نال كتاب «الحاوي» شهرة عالمية أوصلته الى مكتبة كلية الطب في باريس في عهد الملك لويس الحادي عشر، (بعد الرازي بخمسمئة سنة) ويحكى ان هذا الملك من فرط اعجابه بالكتاب طلبه من المكتبة لينسخ له اطباؤه نسخة منه، ثم يرجعه، فأبت كلية الطب ان تسمح له بذلك الّا اذا دفع مبلغاً كبيراً مقابل اخراجه. وقد كان ذلك لما للكتاب من أهمية علمية كبرى.

□ وللرازي كتب اخرى في الطب نستدل منها على أنه أول من وصف الحصبة والجدري وفرّق بينهما، مشيراً الى امكانية انتقالهما بالعدوى. وقد وصف تشخيصه لهذين المرضين بدقة، مؤكداً أهمية فحص النبض والقلب والتنفس والبول والبراز عند المريض. وفي دراسة العلماء لاسلوب الرازي في «الطب السريري» اعلان لريادته

في هذا الحقل واثبات لدوره في ابراز هذه الوسيلة الطبية الجديدة التي فصلت علم الطب عن علم الصيدلة. اذ أحدث الرازي اسلوب تشخيص المرض بعد اجراء فحوصات واختبارات معنية ثم كتابة ذلك في تقرير خاص بالمريض مع «وصفة» للدواء الشافي تؤخذ من عند الصيدلي.

□ لقد نال الرازي اعجاب الأطباء في عصره، فتقدمهم حين اختاره الخليفة العباسي المكتفي بالله كي يدله على أفضل الأمكنة لانشاء البيمارستان اي المستشفى. فعمد الرازي الى أربع قطع لحم وزّعها في أربع نواحٍ من مدينة بغداد، وانتظر وهو يراقبها، حتى عيّن آخر قطعة فسدت منها، فأشار الى ان مكان هذه القطعة هو الأفضل مناخاً.

مهمة أيضاً، عرفنا منها استخدامه لـ «فتيل الجرح» ومصارين الحيوانات في خياطة الجروح. وقد قدّم بذلك للجراحة الحديثة خدمات اساسية. وامتيازه العلمي هذا جعله الأبرزمن بين مئة طبيب اختارهم الخليفة عضد الدولة لمستشفاه الجديد، فسلّم إليه ادارة المستشفى عن ثقة بجدارته وعلو مكانته.

□ وللرازي كتب في الكيمياء والصيدلة سجل فيها تجاربه، منها «كتاب الأسرار» الذي نُقل موجزه «كتاب سر الأسرار» الى اللغة اللاتينية عاقداً للمؤلف شهرة في هذين العلمين. يقول الرازي في مقدّمته: انه يشتمل على معرفة معان ثلاثة: العقاقير والآلات والتدابير أي التجارب. وقد جعل الرازي العقاقير ثلاثة أنواع: برّانية (ترابية أو



□ وفي الجراحة كان للرازي انجازات

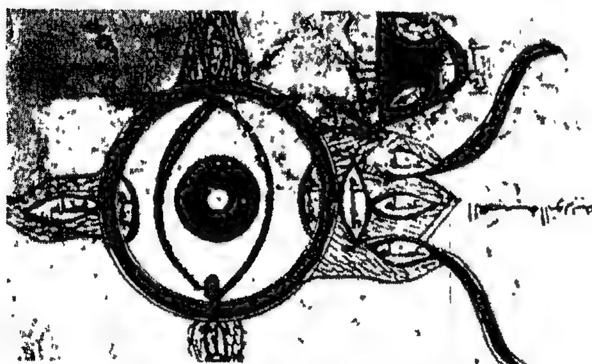
معدنية اي غير عضوية) ونباتية وحيوانية (أي

عضوية). وقد وصف الرازي ايضاً الآلات والادوات المستخدمة في المختبرات: كالانبيق والأقداح والكور والمنفخ والقرْع والبوطقة، كما سجل تدابير (اي تجارب عديدة) مخبرية مهمة. وهذه الكتابات هي الأقرب الى علم الكيمياء الحديث. ويبدو أن الرازي لم يكن قوي الاعتقاد بإمكانية صنع الذهب والفضة، تبعاً لما شاع في عصره.

□ والرازي الرائد العربي الأول في علم الكيمياء، استطاع من خلال تجاربه المخبرية التي سجلها: كالتقطير والتصعيد والتشميع والتكليس والاحتراق، تحضير: عدد من الأحماض ـ والسوائل السامة من روح النشادر أي Amonia والكحول أو الغول من المواد النشوية المتخمرة ـ واكبر انجاز حققه في علم الكيميا كان تحضيره لزيت الزاج اي (حمض الكبريتك) وهو أهم مادة تدخل الصناعة اليوم.

□ واهتم الرازي بالعلوم الفيزيائية فاشتغل بتعيين الكثافات النوعية لبعض السوائل، واقترح لقياسها ميزاناً خاصاً أسماه «الميزان الطبيعي». كما كان للرازي اهتمام بالطب الروحاني، وله فيه كتاب يبرز دور العقل الذي استطاع الانسان به أن يسخر الطبيعة لمنفعته. قال فيه ابن النديم في الفهرست: «كان الرازي أوحد دهره، وفريد عصره، وقد جمع المعرفة بعلوم القدماء، سيما الطب».

□ من مؤلفاته:
- كتاب الأسرار.
- الأسرار في الكيمياء.
- الحاوي.
- كتاب من لا يحضره الطبيب.
- الطب الروحاني.



المصادر: الفهرست لابن النديم ص ٢٤١ ـ الأعلام الزركلي جـ٦ ص ١٣٠ ـ الطب العربي د. داود سليمان علي ـ بغداد: ١٩٦٤ ـ ص ٥٥. الحاوي في الطب للرازي، حيدر أباد: ١٩٥٩.

الزهراوي

(ت ـ ١١٠٧ م)

□ الزهراوي، هو خلف بن عباس، كنيته ابو القاسم. اندلسي عاش في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني، وكان طبيبهما. لكن كتب التاريخ لم تشر الى ولادته ونشأته، واكتفت بذكر أعماله وانجازاته.

□ كان الزهراوي طبيباً عالماً وجرّاحاً رائداً، نال في عصره شهرة كبيرة، وبقي صيته يدوّي في اوروبا أعصراً طويلة. ترجمت آثاره الى اللغات الاوروبية، ودرّست في معاهد الطب، كما تأثّر به الجرّاحون واقتبسوا عنه، معترفين له بإختراعاته لآلات جراحية عديدة، ومؤكدين أهمية تجاربه وآرائه الطبية والجراحية. وقد نال كتابه المعروف باسمه «الزهراوي» تكريماً فريداً حتى طغى على «قانون» ابن سينا لميزاته الخاصة، حتى لقب بأبي الجراحة.

□ يُعد كتابه «الزهراوي» موسوعة طبّية، فهو ثلاثون جزءاً، جعله الزهراوي ثلاثة أقسام: قسم في الطب، وقسم في الجراحة، وقسم في الصيدلة. وقد زيّن قسم الجراحة بصور الآلات الجراحية، فكان أفضل دليل للأطباء العاملين في «الصناعة الطبية» اي الجراحة بفروعها. امّا منهجه فعلميّ موثق، لم يفته ذكر المصادر التي اعتمدها لكتابه أو توكّأ عليها، كما كان لتجاربه وملاحظاته جانب مهم في معلوماته الطبية، يقول: «صناعة الطب طويلة، وينبغي لصاحبها ان يرتاض قبل ذلك في علم التشريح حتى يقف على منافع الاعضاء وهيئتها، لأن الأطباء بالاسم كثيرة وبالفعل قليلة».

□ من انجازاته الطبية والجراحية:

* في جراحة الفك وطب الأسنان.

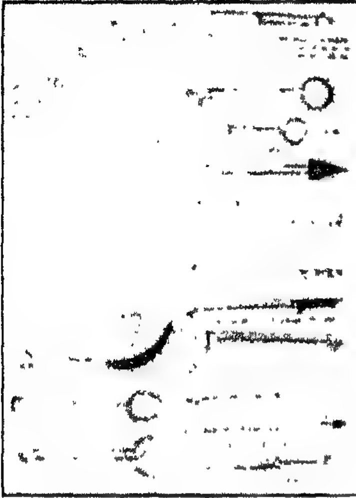
بحث في خلع اصول الأضراس واخراج عظام الفكوك المكسورة، ونشر الأضراس النابتة على غيرها وعلى غير مجراها الطبيعي، كما بحث في تشبيك الأضراس بخيوط الذهب والفضة. وفضّل استخراج الاسنان بلطف، قال: «ينبغي ان تعالج الضرس من

وجعه بكل حيلة، وتتوانى عن قلعه، وليس له خلف اذا قلع، لأنه جوهر شريف، حتى اذا لم يكن بدّ من قلعه، فينبغي اذا عزم العليل على قلعه، يتلبث حتى يصحّ عندك الضرس الوجع، فكثيراً ما يخدع العليل الوجع... فاذا صحّ عندك الضرب الموجع بعينه، فحينئذ ينبغي ان تشرط حول السن بمبضع ببعض القوة حتى تحلّ اللثة من كل جهة، ثم تحركه باصبعك، او بالكلاليب اللطاف اولاً قليلاً قليلاً...» ويصف الزاهراوي الكلاليب على أنواعها، ذاكراً معادنها من الحديد الهندي والفولاذ المسقي الاطراف، مصوّراً الآلات اللازمة موضحاً دور كل منها.

كما بحث الزهراوي في أمراض اللثة وتسوّس الاسنان وتقيّح جذورها. وحذّر من الاقتداء بالدجالين وأساليبهم التي تؤدي الى كسور في الفك.

* في الجراحة العامة.

بحث الزهراوي في النزيف ووصف ضرورة ايقافه بواحدة من أربعة: الكي أو البتر أو الربط وثيقاً بخيوط أو وضع ادوية عليه تقطع الدم، وفصّل في اسلوب الكي استخدام مكاوي زيتونية صغاراً وكباراً عدّة. كما بحث الزهراوي طرق البضع في أمراض العين والنساء والفتوق، كما وصف عملية



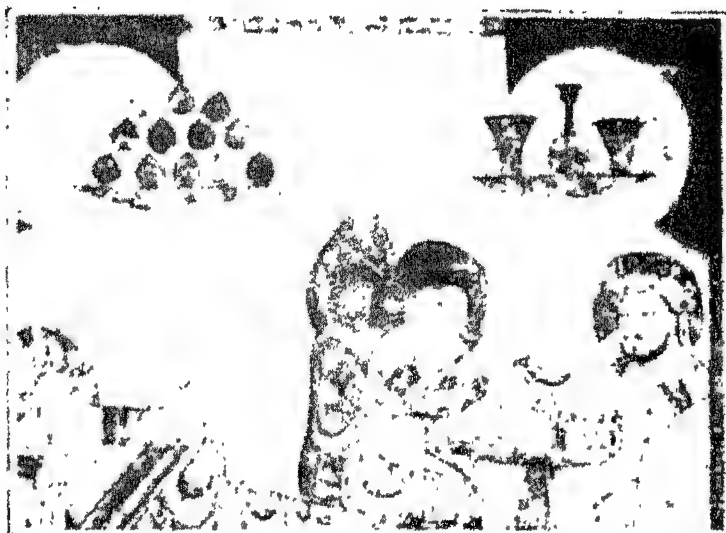
مقالة الزهراوي كما ترجمتها بيترا ارجيلانا عام ١٥١٣

جراحية تفصيلية لإخراج حصاة عند امرأة عن طريق المهبل. وكان اول جرّاح يستأصل الرضفة في حالات تأزمها. وبحث الزهراوي في كيفية استئصال سرطان الثدي، والحبل خارج الرحم، وكان أول من اكتشف ووصف مرض نزف الدم المسمى «هيموفيليا».

□ لقد شهد العلماء المعاصرون بأهمية الاساليب التي استخدمها الزهراوي، ان في جراحة الاسنان، او في الجراحة العضوية العامة، وكان لملاحظاته دور في تقدم خطوات الجراحة فيما بعد. وقد كان الزهراوي بذلك طبيباً معلماً وجراحاً حاذقاً ومخترعاً نابغة.

□ قال ابن ابي اصيبعة في الزهراوي: «كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج. ومع انه اشتهر خصوصاً بالجراحة، فاننا نراه قد جمع بين فروع الطب والصناعة، وكان فيها جميعاً ماهراً، فصحّ فيه القول: هو اشهر اطباء العرب الثلاثة، وصنواه: الرازي وابن سينا».

□ نشر كتابه باللاتينية وبالعبرية وبالفرنسية، وكانت اولى طبعاته عام ١٤٩٧ م.



من مخطوطة «دعوة الاطباء» في مكتبة امبروزيانا

المصادر: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب. د. كامل حسين، ليبيا: ص ٢٦٢. تاريخ العلوم عند العرب، فروخ، ص ٢٨٣ - قصة الطب عند العرب، أحمد حسنين القرني مصر - الطب عند العرب، أحمد شوكت الشطي، مصر.

الصباح

(١٨٩٥ م - ١٩٣٥ م)

□ الصبّاح، هو حسن كامل بن علي الصبّاح. ولد في النبطية - مدينة في جنوب لبنان - في اسرة متعلمة، ومؤمنة. وكان والده يعمل في تجارة الماشية. درج الى الكتّاب اولاً ثم الى مدرسة النبطية الابتدائية. وقد ظهر اهتمام الصباح بالرياضيات والهندسة باكراً، ويُنقل عن والدته تذكرها لتجاربه الأولى مثل نفخه لبالون بالغاز وتطييره في السماء، وعمل كرة أرضيّة. . . وعن احلامه تقول: «انه كان يحدّثها عن رغبته باستخراج النفط من اراضي العرب».

كان يحب العزلة، والتأمل، والتجوّل في البساتين، والمطالعة.

□ درس الصبّاح في بيروت في المدرسة الاعدادية - السلطانية - وفيها برز تفوّقه في الرياضيات، والعلوم فاعجب بكتب الطبيعيات ومنها واحد للأشدودي، وبآخر في الجبر لڤانديك. وحين رغب بدراسة علم المثلثات، قبل تقريرها عليه في المدرسة، وجد انه ملزم بدراسة اللغة الفرنسية ليفهمها، فتفرّغ لذلك في عطلة صيفية كاملة ليتسنّى له دراسة هذا العلم في لغته.

□ دخل الصباح الكلية السورية الانجيلية - الجامعة الاميركية - لكن صعوبات مالية كادت تمنعه عن المتابعة لولا تدخّل اصحابه لدى الادارة، فأعفته منها بعد اكتشافها بوادر نبوغه، وفي الجامعة تابع مطالعاته في الفلك (للفلكي الفرنسي فلاماليون وفي الرياضيات العليا (راينشتين) مطبقاً ذلك على دراساته في الفيزياء.

□ عام ١٩١٦ انخرط الزامياً في الخدمة العسكرية العثمانية، فالتحق بقسم اللاسلكي، وفيه اختلط بالمهندسين الألمان، فتعلّم منهم اللغة الألمانية، وتابع معهم ابحاثه في الكهرباء، فرقّي الى رتبة ملازم اول وتسلّم قيادة مفرزة التلغراف.

□ بعد انتهاء الحرب، غادر الى دمشق فسكنها فترة، ثم انتقل الى بيروت ليعمل

مدرّساً وليشبع نهمه الى متابعة التحصيل في الهندسة الكهربائية، فراسل مكتبة Teubaer في برلين طالباً مجموعة كتب علمية، ثم رغب بالسفر الى فرنسا لمتابعة تخصصه، ولما فشلت محادثاته مع المفوض السامي الفرنسي سافر الى بوسطن وانتسب الى جامعتها.

□ عام ١٩٢١ كان في الولايات المتحدة الاميركية يتابع دراسته في الهندسة الكهربائية، لكن قلّة موارده المالية اضطرته الى ترك الدراسة فترة والإلتحاق بشركة جنرال الكتريك للعمل فيها، ثم انتسب ثانية الى جامعة الينوي لدراسة الرياضيات العليا، لكنه، ايضاً، لم يتابع الدراسة للأسباب نفسها، فعاد ليعمل مهندساً في شركة جنرال الكتريك.

□ يتّضح من رسالة للصباح الى خاله انه لم يكن حائزاً شهادة في الهندسة لكن الشركة عنيته مهندساً، يقول فيها: «... وذلك اثر اتمامي لآلة كهربائية تسمى المربع الوحيد الكرة أي «Monocyclicsquare» والغرض منها انارة المصابيح الكهربائية المسلسلة بنور ثابت مهما تعدّدت المصابيح، وسيظهر اسمي بمجلة الشركة بعد شهرين... على اني أتيت للشركة بدون شهادة... وقد رأيتم ان الشركة اكتفت بذلك الكتاب [من الجامعة] دون شهادة بل اني إذا انفصلت عنها الآن فانها تعطيني شهادة اني استخدمت فيها كمهندس، ولهذه الشهادة اعتبار يفوق اعتبار الشهادة الجامعية...»

□ وتتالت اختراعات الصباح، لكن احواله المالية بقيت سيئة لما ناله من موظفي الشركة من حسد وتمييز حال دون تقدّمه، فضلاً عن ان الشركة لم تكن تكافئه عن اختراعاته مع انها كانت تجني منها اموالاً طائلة. وحين صار يُكتب عنه في المجلات العلمية وذاعت شهرته، اهتم به كلّ من استاذ الكهرباء في جامعة ميلانو فراسله وكذلك مجموعة سمنس الألمانية، وقيل انه تلقى عرضاً من الاتحاد السوفياتي، ولكنه لم يقبل بأي اغراء، فالمختبر في الشركة حيث يعمل كان يوفّر له كل ما يريد من آلات ومساعدة وان كانت الشركة تقتّر عليه في رواتبه.

□ عام ١٩٢٥ بعث برسالة الى احد اصدقائه يشير فيها الى أمرين: «أولهما استنباطي طريقة في تطوير احد الاجهزة الكهربائية حيث جعلته افضل من الجهاز المنتج في شركة وستنكهوس وثانيهما محاولة أحد زملائي، ويدعى براون، قتل اختراعي في المقوّم الزئبقي، لكن رئيسه لم يمكّنه...».

□ في ٣٠ أيار ١٩٢٥، بعث برسالة الى ابيه يقول فيها: «لقد أرسلت الشركة اختراعي في الرؤية باللاسلكي (التلفزة) الى واشنطن ليصدّق عليه من قبل الحكومة...».

□ رغم كثرة اختراعاته أحسّ بان شركته تقسو عليه، فحاول الانتقال الى شركة اخرى لكنها منعته، وحاول مراسلة المسؤولين في البلاد العربية، لكنه لم يصل الى نتائج ايجابية معهم رغم توسط اصدقاء له ذوي نفوذ. فأرسل رسالة الى والده يخبره فيها انه مزمع على شراء طائرة صغيرة تنقله اخيراً الى بلاده.

□ وفي ٣٠ آذار ١٩٣٥، كان في طريق عودته الى منزله بعد أن دفع ثمن طائرة صغيرة

النابغة والمخترع والمفكر حسن كامل الصباح



خاصة، تدهورت سيارته وتوفي. ودارت حول وفاته شكوك عديدة، نشرها يوسف مروّة في كتاب خاص، وملخّصها:

ان عمل الصباح كان صرراً وخطراً على المخترعين في حقول الميكانيك والكهرباء المغنطيسية، وكان يفكر في كهربة البلاد وفي ذلك استغناء عن العمل اليدوي، كما ان اختراعاته في تحويل نور الشمس الى كهرباء وقوة محركة نكبة لشركات البترول، هذا فضلاً عن ان شركته كانت متأكدة من أنه سيغادرها الى البلاد العربية ليعمل فيها ويوظف اختراعاته لحسابها، علماً ان الشركات العاملة في الولايات المتّحدة كانت تتنافس للحصول على اختراعاته من شركته.

□ نقل جثمان الصباح الى لبنان ودفن في بلدته النبطية.

□ قال فيه ايليا ابو ماضي في ١٥ حزيران ١٩٢٩ في مجلة السمير النيويوركية:

«يكبر شأن ذي الموهبة ويصغر لا على قدر موهبته بل على قدر ما في بيئته وزمانه من الاستعداد لتقدير تلك الموهبة واستغلالها... والموهوب الذي يولد قبل زمانه أو في غير مكانه، يعيش غريباً ويموت غريباً... جئنا بهذه التوطئة لندل قومنا على نابغة سوري كبير، على نبي في غير امته وبلاده، على

عبقري لو كان فرنسوياً أو انكليزياً أو اميركياً لكان اسمه الآن ملء الافواه وسيرة حياته ملء الكتب».

□ سجّل حسن كامل الصباح سبعة وستين اختراعاً باسمه، وأحد عشر اختراعاً بالاشتراك مع آخرين، وهناك جدول بها منشور في كتاب د. فؤاد صروف عن حسن كامل الصباح حيث كل اختراع برقمه في مكتب التسجيل وبتاريخ التسجيل في واشنطن مع اسم البلد الذي استغلّه، منها:

- جهاز ارسال تليفزيوني يستخدم الانعكاس الالكتروني.
- مرسل للصور والمناظر.
- جهاز ارسال تليفزيوني يستخدم تأثيرات الشبكة الكهروضوئية في انابيب الاشعة الكاتودية.
- جهاز ارسال متلفز يستعمل فيلماً يحوّل اشعة الشمس الى قوة كهربائية دافعة.
- جهاز لقياس ضغط البخار داخل انابيب التفريغ الكهربائي.
- جهاز ذو صمام لتحويل القدرة الكهربائية.
- جهاز لتفريغ الشحن الكهربائي في الفضاء.
- طريقة لتسخين الكاثود الحار في الانابيب الترميوفية..
- انظمة التحويل واجهزة اثارة التمغنط ذات الصمام الكهربائي.
- جهاز لمعرفة التوزّع الكهربائي على المساحات.
- منظم درجة الحرارة في الانبوب المتوهج.
- عاكس ذو حوض زئبقي ذو مبدّلة عمل ذاتي.
- محرّك للتيار المتواصل من دون مبدّلة.
- طريقة للاستغناء عن المكثفات ذات الوسادة الكهربائية المتواصلة..
- جهاز للقوس الكهربائي في البخار.
- اللحام الكهربائي بالقوس الكهربائي بالتيار المتناوب.

المصادر: حسن كامل الصباح، د. فؤاد صرّوف، بيروت: ١٩٨٣ - يوسف مروة، كامل الصباح عبقري من بلادي، بيروت: ١٩٥٦.

القزويني

(١٢٠٨ م - ١٢٨٣ م)

□ القزويني، هو زكريا بن محمد، كنيته أبو عبدالله. ولد في قزوين، من اسرة عربية تعود بنسبها الى الامام مالك بن أنس. أقام في بغداد في عهد الخليفة المستعصم بالله العباسي، وولي منصب القضاء فترة، دون أن يعيقه عمله عن الاهتمام بالبحث العلمي: الفلك والطبيعة، معتمداً على كتب الأقدمين وملاحظاته الميدانية.

□ أمّا غرض القزويني في كل ما كتب، فالدعوة الى التأمل في خلق الله وتمجيده، لذا كانت كتاباته مؤسسة على ايمانه بخالق واحد للكون ينظمه ويرسمه، وهذا لم يمنعه من المراقبة العلمية والتجربة. يقول في مقدّمه كتابه: «عجائب المخلوقات»: «وما من حيوان صغير ولا كبير الّا فيه من العجائب ما لا يُحصى... وجميع ما في [الكتاب] اما عجائب [من] صنع الباري [من] محسوس او معقول لا ميْل فيهما ولا خلل، واما حكاية ظريفة منسوبة الى قائلها... واما خواص غريبة مما لا يفي العمر بتجربتها... فان أحببت أن تكون منها على ثقة فشمّر لتجربتها. واياك ان تغترّ او تلمّ أو تمل اذا لم تصب في مرّة أو مرتين، فان ذلك قد يكون لفقد شرط أو حدوث مانع، وحسبك ما ترى من حال المغنطيس وجذبه الحديد... فاذا رأيت مغنطيساً لا يجذب الحديد فلا تنكر خاصيته [بل] اصرف عنايتك [الى] البحث عن أحواله حتى يتضح لك أمره». اذن، المراد ليس تقليب النظر في الأشياء، فالنظر تشارك البهائم الانسان فيه، وهو يقصد بالنظر الدراسة والتفكير في المعقولات والتأمل في المحسوسات.

□ أهم مؤلفاته: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وهو قسمان: الأول في الفلك والثاني في الجغرافيا. وصف القزويني المجرّة بانها «كواكب صغار متقاربة»، وعلل الكسوف والخسوف علمياً فجاء دقيقاً جداً: «فسبب خسوف القمر توسط الأرض بينه وبين

الشمس عندئذ يتشكل من وقوع نور الشمس على الأرض مخروط قاعدته صفحة الأرض، فاذا وقع القمر كله في جرم المخروط كان الخسوف كلياً، ويكون كسوف الشمس اذا حال القمر بين الشمس وبين أبصارنا».

□ ووصف القزويني مراحل تكوين مياه الأنهار، فأشار الى ان الأمطار والثلوج المتساقطة على الجبال تغور تحت سطح الأرض وتخزن فيها خلال فصل المطر: «فاذا كان في اسافل الجبال منافذ ضيّقة تخرج المياه في تلك المنافذ فيحصل منها جداول، وتجتمع الجداول الى بعض فيحصل منها أودية وأنهار».

□ وقد رأى القزويني ان الموجودات ثلاث مراتب: الأولى للمعادن «وهي باقية على الجمادية». والثانية للنبات «فانها متوسطة بين المعادن والحيوان بحصول النشوء والنمو وفوات الحس والحركة. اما الثالثة فللحيوان. وعن النبات، تكلم القزويني، فذكر أصنافه وأوصافه وخصائصه، وقد نقل معلومات من سبقه في هذا العلم وزاد عليه.

□ وفي سبب تكوّن الانسان، كتب أيضاً مفصلاً حالاته، جنيناً في الرحم ثم خروجه، وسوياً مؤلفاً من عظام وغضروف وعصب ورباط يشد العضلات الى اللحم وشحم واوردة وشرايين، ولم ينس تفصيلاً في الأذن والعين والأنف والشعر... وقد كان متأثراً بابن سينا، ميالاً الى التفلسف منه الى علم الحياة.

□ وبعد أن أكّد القزويني كروية الأرض وتحرّكها الدائم «والذي نراه من دوران الفلك انما هو دوران الأرض [حول نفسها] لا دور [لا من دوران] الكواكب»، يعمد في كتابه الثاني: عجائب البلدان، للكلام على وصف الأرض وقسمتها، وقد جعلها ـ جرياً على عادة الجغرافيين القدامى ـ سبعة أقاليم، فذكر ما في كل اقليم في مدن وجبال وانهار على الترتيب الهجائي، مستطرداً أحياناً لذكر حوادث تاريخية، أو سير بعض الاعلام، مما له علاقة بالاقليم المذكور.

□ وفي أوصافه نرى خلط الحقيقي بالخرافي، فقد أخذ عن الأقدمين بعض ما ذكروه واعتمده، ومن الحقيقي المهم وصفه للزوبعة اذ قال: «هي الريح التي تدور على نفسها شبه منارة واكثر، تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة فتصادق سحاباً تذروه الرياح المختلفة فيحدث من دوران الغيم تدوير الرياح، فتنزل على تلك الهيئة، وربما يكون سبب الزوبعة ريحين مختلفي الهبوب فتحدث بسبب ذلك ريح مستديرة..» امّا

وصف التنين فقد صاغه خياله على شكل خرافي، وان كان تبريره العلمي ممكن اذ ان ما شاهده هو ما نعرفه اليوم بقمع السحاب المتدلي الى الأرض، يقول: «ينساب على الأرض، والنار تخرج من فيه ودبره والناس يشاهدونه من البعد، وقد أقبلت سحابة من البحر وتدلّت حتى اشتملت عليه وروحته نحو السماء وقد لف التنين ذنبه على كلب ورفعه، والكلب ينبح في الهواء...»

□ من مؤلفاته: ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات.

ـ آثار البلاد وأخبار العباد.



من المصادر: آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني، دار صادر ١٩٦٠ ـ أعلام الجغرافيا والتاريخ، صلاح الدين المنجد بيروت: ١٩٦١.

الكندي

(٨٠١ م - ٨٦٨ م)

□ الكندي، هو يعقوب بن اسحق، كنيته ابو يوسف، ويعود نسبه الى قبيلة كندة العربية القحطانية. ولد في الكوفة، وكان ابوه أميراً عليها. درس في عواصم العلم في العراق: الكوفة والبصرة وبغداد، وهي في اوج لمعانها ايام الخليفتين المهدي والرشيد. وقد ظهر نبوغه باكراً، فانتدب لنقل العلوم من السريانية واليونانية الى العربية، كما كان مؤدباً لأحمد ابن المعتصم. درس الكندي منطق أرسطو وما كتب في تعاليم الفيثاغورية والافلاطونية المحدثة، وألّف في ذلك، فاشتهر سريعاً، وقد انتشرت مؤلفاته لسهولتها ووضوحها وطرافتها، وترجم بعضها الى اللاتينية.

□ بحث الكندي في حكمة اليونان والهنود، كما بحث في العلوم: الفلك والبصريات والطب والرياضيات والموسيقى.

□ هو اول فيلسوف عربي مشائي. وهو المؤسس الأول للفلسفة العربية التوفيقية، وقد ابتدع مصطلحات وتعريفات في الفلسفة استعان بها مفكرو الاسلام بعده، فحسّنوا وكيّفوا تبعاً لنسق تفكيرهم، واهمهم الفارابي فيلسوف الاسلام الاكبر.

□ كان الكندي مهندساً قديراً ومنجماً ماهراً. يقول فيه باكون: «ان الكندي وابن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس». والى مؤلفاته العلمية يُرجع عند القيام بأعمال انشائية، كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات. وفي علم النجوم أعاد بعض الظاهرات والحوادث الى اسباب فلكية واستمدّ من اوضاع النجوم وتحرّكاتها بعض التنبؤات. وفي الكيمياء نهى عن الاشتغال بتحويل المعادن الى ذهب، لما في ذلك من مضيعة للوقت والجهد والمال. ومن تلاميذه في حقول العلوم: ابو العباس السرخسي والبلخي، وحسنويه ونفطويه وسلمويه. قيل فيه: «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم بأسرها، وفيلسوف العرب».

□ والكندي موسيقي من الطراز الأول،

ألّف في ذلك وأبدع، و«الموسيقى عند العرب لم تكن مجرد تطريب دون قيد او كانت لهواً دون شرط، بل كانت غذاء للنفس، ورياضة للفكر، وعلاجاً للجسم، ساهم فيها الكندي». ومن سبقه من الموسيقيين: يونس الكاتب والخليل بن أحمد الفراهيدي ويحيى المكي واسحق الموصلي.

□ تناول الكندي في مؤلفاته الموسيقية قضايا عديدة وضع لها التعريفات والرسومات، منها:

□ في «رسالة في خبر صناعة التأليف» يتناول:

الأبعاد - الأجناس - الجموع - المقامات - الانتقالات اللحون - انواع البناء اللحني - ومن ذلك قوله:

«ولو ان المثنى نصف المثلث فان المثنى اذا مدّ مدّاً مساوياً للمثلث لم تكن لنغمة اطلاقه مساوية لنغمة خنصر المثلث لأن المثنى ثلثاً المثلث». وقد طبعت هذه الرسالة محققة.

□ في «رسالة في اجزاء خبرية في الموسيقى»، يتناول: الايقاعات وكيفية الانتقال من ايقاع الى آخر - اختيار الايقاعات للأشعار والأزمنة الملائمة لها - مشاكلة الألحان للفلك والبروج وتأثيرها في النفس - الألوان ومزجها ببعضها - العطور ومزجها ببعضها -

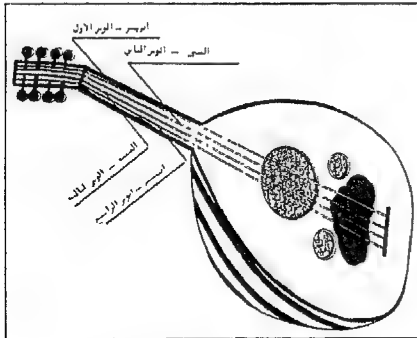
□ في «الرسالة الكبرى في التأليف» أو «الكتاب الأعظم في التأليف»، يتناول أمرين مهمّين في تاريخ الموسيقى هما:

١ - انواع التسويات المشهورة للعود في أيام الكندي.

٢ - تمارين للضرب على العود، مدوّنة بالطريقة الموسيقية المعروفة آنذاك. وهذا الكتاب هو أثمن وثيقة موسيقية للحن مدون عند العرب، ولا يوجد ما يماثله في كافة كتب الموسيقى. والكتاب لم يزل مخطوطاً لم يطبع بعد.

□ وضع الكندي مصطلحات موسيقية منها مثلاً:

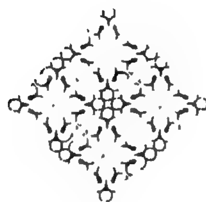
البم - المثلث - المثنى - الزير - الزير الحاد - الدستان - مطلق - طنين - نصف طنين - بقية أو فضلة. ومنها مع مرادفاتها الحديثة:



العود والاسماء العربية لأوتاره

- الاستجالة أي الانتقال أو .Transition
- المحصورة أي النغــمة التي تخرج من خارج الدساتين أو .Out of fret
- الأقوال العددية أي الشعر أو .Poetry
- النسب الزمانية أي الايقاع أو .Rhythm
- محال أي متفق أو .Consonant
- مستقصى أي متنافر أو .Dissonant

□ مؤلفاته :
- رسالة في الايقاع .
- في ذوي الدين والألباب .
- رسالة في ترتيب النغم .
- رسالة الحدود .
- رسالة في خبر صناعة التأليف .
- كتاب المصوّتات الوترية
- رسالة في اجزاء خبرية في الموسيقى
- الرسالة الكبرى في التأليف .



من المصادر: الفهرست ص ٢٥٥ وما بعدها - أخبار الحكماء للقفطي - مؤلفات الكندي الموسيقية، زكريا يوسف، بغداد: ١٩٦٢

المقدسي

(٩٤٥ م - ١٠٠٠ م)

□ المقدسي، هو محمد بن أحمد بن أبي بكر، كنيته ابو عبدالله. ولد في بيت المقدس «القدس»، ونسب اليها. درس الأدب والفقه، واطلع على اخبار الأقدمين من كتبهم. اقام في الشام وفي العراق، فخالط العلماء والادباء والقرّاء والمحدثين والزهّاد، وقام برحلات عديدة نطاف المملكة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها «ولم يبق اقليم الاّ دخلناه. عدا الأندلس».

□ كان المقدسي قوي الملاحظة، غني المحافظة، وصاحب مهارات متنوّعة، يلقى الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومذاهبهم وأعمالهم، فيسجّل ما يلاحظه ويشاهده. يسأل ويجمع، ويقرأ ويتأمل: «ولم يبق شيء مما يلحق المسافرين الاّ وقد أخذت منه نصيباً». وقد أتيح له ان يزور القصور ويخدم ملوكها ليطلع على خزائن كتبهم، تولّى الحسبة، وجلّد الكتب، وخطب على المنابر، واقام في المساجد، وزار المدارس، واكل مع الصوفية والنوتية، طرد في الليالي، وساح في البراري، وتاه في الصحاري، صاحب العبّاد، وخالط السلاطين، وملك العبيد، وباع في الاسواق، مشى في الثلوج، وسكن بين الجهال...

□ كانت حياة المقدسي قاسية وغنية معاً، ورأى ان يبلغ هدفه الأخير، بأن يضع كتاباً عن الأقاليم الاسلامية «يُحيي به ذكره وينفع الخلق ويرضي الرب». ورأى ان يقصد من علوم الأقدمين «ما قد أغفلوه، وهو ذكر الأقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة...» وكان موقناً ان طرافة ما يكتبه سيجد الخلود، اذ ان مضمونه «لا غنى عنه للصالحين والأخيار، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبّه العامة والرؤساء، ينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر».

□ اما منهجه في ما كتب، فاساسه الملاحظات والمشاهدات الشخصية ثم النقل عن الكتب القديمة، ودعائمه: «سؤال ذوي العقول من الناس ـ ذكر الأسانيد لما يقوله أو يعانيه ـ نقل ما في خزائن الملوك ـ مع اجتهاده الاّ ينقل الاّ الضروري مع ذكر المرجع». وقد عاب عليه البلخي والجاحظ اختصاره، واخذ عليه ابن الفقيه ادخاله في الكتاب علوماً لا تليق: «مرة يزهد في الدنيا، وتارة يرغب فيها...».

أمّا الاختصار فقال المقدسي انه منهجه خاصة في اطلاق الأحكام. واستطراده كان للفائدة، ولكي تزيد الفائدة فقد صوّر الأقاليم: «مثلناها، ورسمنا حدودها وخططها، وحرّرنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وانهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المعروفة بالغبرة، ليقرب الوصف الى الافهام، ويقف عليه الخاص والعام».

□ وصلنا كتابه «احسن التقاسيم» وفيه أبحاث في المملكة الاسلامية: بخارى ـ دمشق ـ ارجان ـ جرجان ـ نيسابور، اريحا ـ مصر ـ القسطنطينية ـ... ومنه:

* القسطنطينية: «تكون في العظم مثل البصرة أو أصغر، بناؤها حجر، وهي محصنة كسائر البلدان، منيعة بحصن واحد لا غير، والبحر من جانب على حافته الميدان ودار البلاط ودار الملك على صف. والميدان بين الدارين، ابوابها مقفلة، في وسط الميدان دكّة بدرج... لهم اوقات يجتمعون فيها للعب، فاذا ارادوا أن يتفاءلوا في لعبهم صاروا حزبين وارسلوا الخيل حول الدكة... وللبلد اسواق حسنة والاسعار بها رخيصة والفواكه كثيرة».

* دمشق: «هي مصر الشام ودار الملك ايام بني امية وثَمّ قصورهم وآثارهم. بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أحدث وانابه من طين. اكثر اسواقها مغطاة، ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن. وهو بلد خرقته الأنهار، واحدقت به الاشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار، وثلج وأضداد، لا ترى أحسن من حمّاماتها ولا اعجب من فواراتها، ولا أحزم من اهلها. هي طيبة جداً، غير ان في هوائها يبوسة».

* الفسطاط: «هو مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين، وحوى امير المؤمنين، وفصل بين المغرب وديار العرب، واتسعت بقعته، وكثر ناسه، وتنضر اقليمه، واشتهر اسمه، فهو مصر مصر، وناسخ بغداد ومفخر الاسلام... ليس في الاسلام اكبر مجالس من جامعه، ولا أحسن تجملاً من أهله، ولا

أكثر مراكب من ساحله، آهلُ من نيسابور، واجلّ من البصرة، واكبر من دمشق، به اطعمة لطيفة وادامات نظيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب، خفيف الماء صحيح الهواء، معدن العلماء، طيّب الشتاء، اهله اهل سلامة وعافية ومعروف، كثيرو صدقة، نغمتهم بالقرآن حسنة، وقد استراحوا من اذى الأمطار، وامنوا من غاغة الأشرار، قاضيهم خطير والمحتسب كالأمير». . .

* القيروان: «مصر الاقليم بهي عظيم، حسن الاخباز جيد اللحوم، قد جمع اضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم، مع علم كثير، ورخص عجيب، اللحم خمسة أمْناء بدرهم، والتين عشرة، ولا تسأل عن الزبيب والتمر والأعناب والزيت، هي فرْصة المغربين، ومتجر البحرين، لا ترى اكثر من مدنها ولا أرفق من اهلها، ليس فيها غير حنفي ومالكي، مع الفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية، ارفق من نيسابور. واكبر من دمشق، واجلّ من اصبهان، الآ ان ماءهم ضعيف وادبهم طفيف ولا فيهم ظريف، الماء مخزون في مواجين. . .».

□ كتاب «احسن التقاسيم» مرجع جغرافي مهم للقرن الرابع الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ـ لأنه تفرّد بملاحظات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية لا نجدها في مرجع آخر مع ان الاشارة اليه في المراجع الكبرى قليل امثال: متز، كريمر، بروكلمن، غرونباوم.



المصادر: أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٦١ Brock. S1.410.

□ الإسلام دين وحضارة، فتّح عقول العرب والمؤمنين، وأسهم إسهاماً فعّالاً في طبع نتاجهم الفكري، بل وتأسيس علوم فكرية خاصة به، فالإسلام ليس حركة دينية فقط، انما هو حدث حضاري مهم، تجاوز التأثير في الجغرافيا والتاريخ، إلى التأثير في الإجتماع والإقتصاد، وخاصة في الحقول الفكرية. فالإنقلاب الشامل الذي قام به، عند المسلمين الأوائل، ومَن انضوى تحت لوائهم من سكان الأمم المجاورة، أحدث ثورة، ما زالت مستعرّة حتى اليوم، على كل الأصعدة.

□ إن انتقال العربي الصحراوي، من عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد، خالق كل شيء، وانتقاله من حالة القبلية إلى حالة المجتمع الإسلامي الموحد، واكتساب عادات جديدة، ونبذ رديء التقليد الموروث، وانتقال العربي، أيضاً، من حالة الأميّة واللاثقافة، إلى حالة التعليم والمعرفة، مطلعاً على أخبار من سبق، محلّلاً ومستنتجاً ما يدفعه لمقارعة الحضارات المجاورة، بالسيف والفكر، لهو انتقال نوعي جريء وفعّال، يدين بجملته للدعوة الإسلامية وقرآنها ونبيها عليه الصلاة والسلام.

□ لقد وضع الإسلام نظاماً إنسانياً مجتمعياً للمسلم، ومنحه إلى جانب الطمأنينة الروحية، نفساً وثّابة للإنجاز، وفكراً جائعاً للمعرفة، وضميراً متطلعاً إلى إشاعة العدل على الأرض. فكان التوسّع جغرافياً وثقافياً تأدية لواجب ديني وحضاري معاً.

□ هذه الدعوة الإسلامية، استندت، قبل كل شيء إلى القرآن الكريم، فما فيه من توضيح للعقيدة والنظام المجتمعي الأمثل، صيغ في أسلوب معجز، جعله نبراساً لكل علم وحكمة، مخاطباً العقل والضمير والقلب، مقوّماً الفكر واللسان. هذا الاعجاز القرآني قدّر العقل الحرّ، ورذل التقليد الجامد في التفكير، مُطلقاً روح الإبداع عند الإنسان المؤمن.

□ وقد امتحن المسلم في إيمانه لحظة وفاة الرسول ﷺ، فطرحت المشكلة، مشكلة الحكم، ومشلكة المرتدين، ومشكلة نشر الدين الإسلامي والإختلاط بالحضارات الأخرى... وشُحذت المواهب القيادية والدينية والعسكرية لإيجاد الحلول، وهذا كله أيذان بمولد عقلية متجّددة، ما لبث أن وجدت مسارها، فثبتت وانطلقت كبيرة فخورة منتصرة.

□ وان التوتّر الذي عمّ المجتمع الإسلامي، بين الفينة والأخرى، أتاح لهذه العقلية أن تتبلور، فهناك توتر سياسي حصل عند حكم الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب، هذا التوتّر أدى إلى خلافات متنّوعة يسرت للفرق والمذاهب والشيع أن تنمو، ترافقها اجتهادات وآراء، ما لبثت أن تجسّدت في نتاج فكري غني.

□ كما احتاج المسلمون، في فترات التوتر هذه، إلى إلقاء المزيد من الضوء على الآيات القرآنية توفيراً لشواهد منه تدعم آراءهم ومواقفهم، وتنير أمامهم طرقاً فكرية ومسالك اجتماعية وقيادية... والقرآن الكريم لم يكن ليُفهم كله من قبل المجتمع، إذ لا بدّ لمفسّره من أدوات عديدة منها: اللغة العربية الصحيحة، والمعرفة بأسباب النزول، والعلم بالمعاني والنحو... من هنا تعدّدت السبل إلى تفصيل الدراسات القرآنية، ثم الحديثية، وما دار في فلكهما من علوم معرفية.

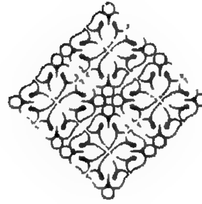
□ وفي فترات التمدّد، اختلط العرب المسلمون بشعوب البلاد المفتوحة، فاطلعوا على حضاراتهم، ولغاتهم، ومذاهبهم، وأديانهم، مما أغنى فكرهم وحثّه على مزيد من التوليد المتجددّ، طمعاً بالمعرفة الإضافية، ورغبة بإعلان معطيات إسلامية جديرة بالإعتناق، فالمسلم كان دائماً فخوراً بدينه رغم انفتاحه على المعارف الجديدة، وهكذا تعدّدت الشروحات الحكمية، والدراسات الفكرية، الإسلامية والمقارنة، المتأثرة بالترجمات أو الأصلية النقيّة.

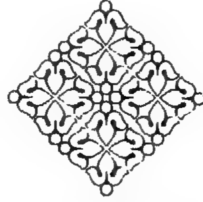
□ هذا الفكر الإسلامي، مثل كل فكر، لا يمكن أن يسْلم من التأثير بفكر الحضارات الأخرى، إذ التواصل طبيعي والإنقطاع شذوذ وانغلاق، فالعقلية عند المسلمين لها مصادر عديدة، في طليعتها الدين الإسلامي، يليه مزيج من الفكر المنقول عن اليونان والهند وفارس... لكن الباحثين اكّدوا أن الفكر الإسلامي ما جاء ليشرح مواضيع غريبة عنه، بل تأسّس ليحلّ مشاكل تعرّض لها المسلمون أنفسهم، في زمن جديد، وتحت حكم

جديد، وبناء لمعطيات تختلف عن معطيات ذاك الفكر المنقول إلى العربية. مما يدفع إلى الإستنتاج بأن الفكر الإسلامي ذو طابع خاص ومميّز.

□ فالحياة العقلية الإسلامية، فيها أفضل الأمثلة الحيّـة، من أسمـاء لامعـة، وروائـع مميزة، ومذاهب فكرية، ذات شأن عظيم... لقد تفتقت قرائح عباقرة الإسلام عن مآثر لم تزل إلى اليوم مدارس ومناهـج معتمدة، في أرقى المعاهدة العلمية في العالم أجمع.

□ وفي الصفحات التاليـة تعريف بعبـاقرة الفكر الإسلامي ومناهجهم ومؤلفاتهم: في علم الكـلام، في المـذاهب، في الحكمـة، في الإصـلاح الديني، في الـدراسات القـرآنيـة والحديثية...





عباقرة الفكر

ابن خلدون

(١٣٣٢ م - ١٤٠٦ م)

□ ابن خلدون، هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، كنيته أبو زيد. ولد في تونس في أسرة عربية. درس القرآن الكريم وتفسيره، والحديث والفقه واللغة على عدد من علماء تونس، وخاصة على أبيه. ثم تنقّل في وظائف إدارية وسياسية عديدة، واشترك في مؤامرات وثورات، فشل في بعضها فتشرد وسجن، ونجح في بعضها الآخر فنال المال والجاه والمراكز الرفيعة. وكان تنقلّه بين مراكش والأندلس، يسمح له، أحياناً، بفترات هدوء، يتفرّغ خلالها للدرس والتأليف. ففي جنوب قسنطينة، في «قلعة ابن سلامة»، انقطع أربع سنوات للكتابة، انجز فيها «مقدمّته» الشهيرة، وكان له من العمر ثلاث وأربعون سنة، ولمّا احتاج إلى مراجع لا تتوافر إلاّ في تونسّ، فقد كتب سلطانها يستأذنه، وحين رضي عنه عاد إلى مسقط رأسه بعد غيبة ربع قرن. ومن هناك سافر إلى مصر، وقصد القاهرة، حيث كانت شهرته قد سبقته فعين استاذاً للفقه المالكي ثم قاضياً لقضاته. وتعرّض في مصر لحسد العلماء والسياسيين، فانتقل إلى دمشق ثم عاد إلى القاهرة ليتسلّم القضاء من جديد، وينكب على التأليف حتى وافته المنية فدفن هناك.

□ كان ابن خلدون طموحاً، وذكياً، ومعتزاً بنفسه، ورث عن آبائه حب السياسة والمناصب، وشجعه أصحاب البلاطات في دولهم المتنازعة، فسعى مع الساعين «وكان رجل الفرص ينتهزها ولا يضيره أن يجزي الخير بالشر». أمّا رغبته في المعرفة فكانت بلا حدود، فاطلع على كتب الأقدمين وأحوال البشر السالفين، مكوّناً ثقافة واسعة.

□ كان ابن خلدون أشعري السلوك، يعتقد أن العقل يقصر عن إدراك الحقائق الغيبية، لذا عوّل على الشرع في حياته الشخصية، بينما هو، في تفكيره معتزلي، وبدا ذلك واضحاً في تآليفه، فهو يعتمد العقل يستهديه لقياس منطقي سليم في استنتاجاته.

□ عرفنا من مؤلفاته: رحلة ابن خلدون في المغرب والمشرق. وقد روى في هذا الكتاب فصولاً من حياته، غير غافل عن جرم اقترفه أو خير أسداه... جمع في كتابه وصفاً لرحلاته، مبرراً فيها شيئاً من التاريخ والجغرافيا والسير، مفتخراً بما أصاب من تكريم وعزّ وجاه. أمّا كتابه الأهم فهو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، وهو في سبعة مجلدات، أهمها «المقدمة».

□ تجديد ابن خلدون يتضح في عرضه فن التاريخ وفلسفته، وعلم العمران ـ أو علم الإجتماع. لقد كان رواة التاريخ، قبل ابن خلدون، يخلطون الخرافات بالأحداث، ويعللون التاريخ استناداً إلى التنجيم والوثنيات... وجاء ابن خلدون يحدّد التاريخ بأنه: «في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها». لأن التاريخ هو «خبر عن المجتمع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال».

□ لقد رفض ابن خلدون مقولات علماء سبقوه، لكنه كان أميناً فيما بثّه في مؤلّفه من آراء لهم، علمية أو دينية، وصريحاً واضحاً في نقده لتلك الآراء وعزوها أحياناً لجهلهم طبائع العمران وسنّة التحوّل وعادات الأمم وقواعد السياسة وأصول المقايسة.

□ لقد اثبت ابن خلدون أنه فيلسوف اجتماعي، بل هو واضع علم الإجتماع، سابقاً بذلك علماء الغرب بعده. وقد كان فريداً نسيج وحده بين علماء التاريخ وفلسفته، فهو لم يكن مؤرخاً عادياً أبداً، قال فيه المؤرخ الأنكليزي توينبي: «في المقدّمة التي كتبها ابن خلدون لتاريخه العام، أدرك وتصوّر، وأنشأ فلسفة التاريخ، وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي عقل في أي زمان». ولا يضير ابن خلدون أن يقول البعض عنه أنه اقتصر في تاريخه على دراسة النواحي الإجتماعية والتاريخية في منطقة محددة وحقبة محددة، ذلك لأن القوانين الخاصة التي استنتجها لم تعد خاصة فقد انطلقت لتعمّ العالم، وهي لم تزل مطبقة على بيئات عديدة وأزمنة عديدة.

□ رتّب ابن خلدون أبواب «مقدّمته» ترتيباً منطقياً، معّ أنه وقع في مراجعات متعددّة في بعضها، تشفع له في ذلك جدّة موضوعه، أمّا أهم آرائه فهي:

* ان الإجتماع الإنساني ضروري، فالإنسان مدني بالطبع. وهو محتاج في تحصيل قوته إلى صناعات كثيرة وآلات

متعدّدة، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بدّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحُصلَ القوت له ولهم ـ بالتعاون ـ قدْرَ الكفاية من الحاجة الأكثر مِنهم بأضعاف.

* بعض أقاليم الأرض أكثر موافقة للسكنى من بعضها الآخر، والبلاد المعتدلة أكثر عمراناً من البلاد المفرطة في الحر أو البرد. وإذا أفرط الحر في البلاد أسود جلد أهلها وغلبت عليهم الخفة والطيش وكثرة الطرب... أما سكان البلاد الباردة فيغلب عليهم الأطراق إلى حدّ الحزن... والإفراط في الخصب والنعيم والأطعمة الغليظة مما يورث قلة المناعة في الجسم ويورث البلادة والغفلة وانكساف الألوان وقبح الأشكال.

* العمران بدوي وحضري، والأول سابق على الثاني ومادّة له. فإن أهل الحضر مهاجرون من البدو. كما أن أهل البادية يقدمون لأهل الحضر ما يحتاجون إليه من الأطعمة النباتية والحيوانية. ثم ان العمران البدوي والعمران الحضري ضروريان وموجودان معاً جنباً إلى جنب.

* العمران البدوي هو الإكتفاء بالضروري من أسباب المعاش، من هذا تتفرّع جميع خصائص البداوة: كالرحلة في طلب المعاش من مكان إلى آخر، والقوة والشجاعة فالبدو أصح بدناً للنشأة والطبيعية.

* أما العصبية فهي شعور جماعة من الناس بأنهم ينتمون إلى أصل واحد ويشدّ بعضهم إلى بعض روابط من المنافع المادية أو من الأحوال الإجتماعية أو من المثل العليا. والأصل فيها أن تقوم على النسب، ولكن النسب وحده قليل الأثر إذا لم يكن معه رابط من المنفعة أو الجوار. ومقومات العصبية: العدد ـ المال ـ السلاح ـ الدعوة الدينية. وهي ضرورية في البادية.

* العرب لا يحصل لهم المُلك إلاّ بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك لخُلُق التوحش الذي فيهم فهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة، وقلّما تجتمع أهواؤهم...

* أهل البوادي من القبائل مغلوبون لأهل الأمصار، لأن الأمور الضرورية في العمران ليست كلها موجودة لأهل البدو.

* الإنتقال من البداوة إلى الحضارة يتم أولاً بسببين: زيادة الثروة التي تدعو إلى الترف والتمتع بثمرة الغنى، وزيادة الجاه التي تدعو إلى التفرّد بالحكم. وثانياً بوسيلتين: أما

أن ينتقل صاحب الجاه الواسع والعصبية القوية إلى حاضرة قديمة يقيم فيها لنفسه ملكاً ويتمتع بما في تلك الحاضرة القديمة من وجوه الراحة والنعيم والترف، أو ينقل صاحب الجاه والعصبية وجوه الترف إلى حيث يقيم فتنقلب البداوة نفسها حينئذ حضارة ظاهرة. . .

* خصائص العمران الحضري: الإستقرار (التحضّر)، والتوسع في المأكل والملبس والمسكن، والتأنق في أسباب الحياة، والترف أي الاخلاد إلى الراحة والتنفس في النعيم والإستكثار في المطاعم والملابس والمساكن، واستبحار العمران أي التوسع في وجوه الحياة، واستجادة الصنائع أي تطلب الدقة والجمال فيها للتباهي في ذلك. وإنشاء الهياكل والمدن دلالة على العظمة والقوة، ثم تكوين الدولة والملك، وطلب العلم.

* والعلم من توابع الحياة في الحضر لحاجة أهل المدن إليه ولأنه أحياناً من عوائد الترف وحب الإطلاع والثقافة. والعقل البشري قاصر عن الاحاطة وعن النفوذ إلى الوجود الغيبي الخارج عن نطاق الحس فلا يجوز له الإدعاء بعلم كل شيء.

□ بحث ابن خلدون في نشأة الكون وسببها وانتهى إلى سبب أول هو الله. وجارى الغزالي في أن القانون تقرّه العادة ولا يمكن للعقل أن يشرحه بالبرهان. والكائنات متماسكة الإجزاء متصلة الحلقات والأسباب، كل واحد مستعد أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً. وبهذا إشارة إلى قانون التطور التدريجي، الذي تأثر فيه بإخوان الصفا. وقد استطرد ابن خلدون إلى دراسة النفس البشرية وقوة إدراكها، فجعلها ثلاثة أصناف: أدناها عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني، وهو الإدراك البشري العادي. ومتوسطها متجه بحركته الفكرية نحو العقل فيسرح في فضاء المشاهدات المنطقية، ومثاله إدراك العلماء والأولياء. وأعلاها مفطور على الإنسلاخ من البشرية ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً للعقل، ومثاله الأنبياء.

□ ابن خلدون عبقري نابغة، وقد بدا ذلك: في أيجاده علم الإجتماع - في تجديده فن كتابة التاريخ وفلسفته-في تحديثه اسلوب العرض التاريخي - وفي أعماله الفلسفية والفقهية الأخرى.

من المصادر: مقدمة ابن خلدون، طبع دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ - التعريف بابن خلدون، محمد الطنجي القاهرة ١٩٥١ - ابن خلدون حياته وتراثه الفكري محمد العنان، ط القاهرة ١٩٥٣.

ابن رشد

(١١٢٦ م - ١١٩٨ م)

□ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، كنيته أبو الوليد. والده قاضي قرطبة وجدّه قاضي قضاة الأندلس. ولد في قرطبة، ودرس القرآن ثم موطّأ ابن مالك، واطلع على فقهه، فتأهل لتولي القضاء في أشبيلية وقرطبة. درس الطب على أبي جعفر هرون، ودرس الفلسفة على نفسه، فبرع في علوم عصره وذاعت شهرته.

حين قصد ابن رشد مراكش، كان على عرشها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وكان وزيره الطبيب الفيلسوف ابن طفيل، ويروى أن أبا يعقوب سأل ابن طفيل شرح فلسفة أرسطو، وكان مولعاً بالحكمة، فأحاله على ابن رشد. وهكذا تقرّب ابن رشد من البلاط، ثم أسند إليه القضاء في أشبيلية ثم صار قاضي قضاة قرطبة. وبعد وفاة ابن طفيل استوزر مكانه. لكن الحّساد كثروا فأوغروا صدر ابن أبي يعقوب - الملقب بالمنصور - عليه، فأمر بمحاكمته وإحراق كتبه مراعاة لرجال الدين في بلاده، ثم نفي ابن رشد حوالي سنة، صدر العفو بعدها عنه، لكنه عاش في عزلة سياسية واجتماعية في مراكش، حتى توفي، فدفن فيها مؤقتاً ثم نقلت رفاته الى مسقط رأسه قرطبة، حيث دفن في روضة آبائه.

□ أحرقت معظم كتب ابن رشد، وهو قد ألف أكثر من سبعين كتاباً ورسالة، بلغنا بعض أسمائها وترجمات بعضها الآخر بالعبرية واللاتينية. ونستطيع جعل مؤلفاته في قسمين: قسم يضمّ شروحاته لآراء فلاسفة اليونان وكتبهم أمثال أفلاطون وأرسطو وجالينوس وبطليموس. وقسم يضم المصنفات المبتكرة في الفلسفة. فضلاً عن كتابه «الكليات» في الطب، والذي نافس به كتاب «القانون» لابن سينا.

□ أهم شروحاته وملخصاته:

جوامع سياسة أفلاطون (وهو تلخيص لكتاب الجمهورية) - تلخيص كتاب

المجسطي في الفلك (لبطليموس) ـ تلخيص كتاب العلل والأعراض (لجالينوس) ـ وعن أرسطو: تلخيص كتاب السماء والعالم ـ تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة ـ شرح السماع الطبيعي ـ شرح كتاب المقولات ـ تفسير ما بعد الطبيعة... وعن العرب: شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ـ مختصر كتاب المستصفى، للغزالي...

□ وأهم كتبه الأصلية:

تهافت التهافت (يناقض فيه كتاب التهافت للغزالي) ـ الرد على ابن سينا في تقسيمه الموجودات ـ مقالتان في علم النفس ـ مقالة في العقل ـ فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من اتصال ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد (في الفقه) ـ الكشف عن مناهج الأدلّة في عقائد الملة (في العقائد وعلم الكلام)...

□ يعد ابن رشد واحداً من ثلاثة فلاسفة أنجبهم المغرب العربي: ابن باجة وابن طفيل وابن رشد. وقد عرفه الغربيون باسم Averroès، وسماه دانتي في جحيم الكوميديا الإلهية بـ «الشارح الأكبر». كان فقيهاً وإمام عصره، كما كان طبيباً بارعاً، وفيلسوفاً عالماً.

رغب العلم منذ صغره، ويقال أنه لم يدع النظر في الكتب إلّا ليلة وفاة أبيه وليلة زواجه. وقد صنّف وشرح وهذّب أكثر من عشرة آلاف ورقة. أمّا مراكزه التي نالها، فما حملته إلّا على التواضع وتجنّب مجالس الكبار في أُنسهم وسمرهم، كما أنه لم يغتن من مراكزه ولا من قربه للأمراء والملوك.

أحب الحق والحقيقة، ونبذ الهوى والتعصّب، كان أميناً في علمه، موضوعياً في أحكامه، قاسياً في هجومه على أخصامه.

* أهم ميزات فلسفة ابن رشد:

□ فهمه العميق لفلسفة أرسطو، وشرحه لآرائه في منهج خاص نفذ منه إلى أغوارها، فميز بين الأصيل والدخيل فيها، وكان بدعاً من الشرّاح.

* تفرقته بين عالم الشهادة وعالم الغيب، مستنداً دائماً إلى قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾، هذه المقولة التي تبنّاها عامة المسلمون، بتنزيههم الله تعالى عن صفات الحوادث وتفريقهم بينه تعالى وبين العالم. سبق ابن طفيل باقراره هذه التفرقة، لكن ابن رشد جعلها عماداً لمذهب كامل في الوجود. فعند ابن رشد لا يجوز تطبيق المعاني الإنسانية على الأمور الإلهية.

* التوفيق بين الشريعة والحكمة، وهي

المسألة التي تناولها كل فلاسفة المسلمين، تلميحاً أو تفصيلاً. رأى ابن رشد أن كلاً من الشريعة والحكمة في حاجة إلى الأخرى، وهما يعبّران عن حقيقة واحدة، وأن كلاً منهما تنحو نحواً خاصاً في ذلك، لكن ذلك لا يوجب وجود خلاف بينهما أو بين روّادهما.

* الدفاع عن الفلسفة: وعماد ذلك العقل أولاً، فوجود العقل بذاته والتسليم بأنه يفكر هما الدليل على وجود حقيقة راهنة في العالم الخارجي، وللموجودات المحسوسة وجودان: وجود كلي حقيقي ووجود جزئي محسوس هو انعكاس للحقيقي الكلي، إذاً، الكليات لا توجد في عالم مستقل بل هي في تجريد الذهن الذي تتم به غبطة العقل الإنساني. وقد جعل ابن رشد كل ما في الكون واجباً.

* جدله مع الغزالي: شهّر الغزالي بالفلاسفة وأعلن تناقضهم، وأراد ابن رشد الرد عليه، فكان كتابه «تهافت التهافت». ومن المسائل التي أثارها في كتابه: كلام الله وعلمه (مكملاً أراء المعتزلة) - العالم وأزليته (العالم أزلي وان الله خلق العالم لغاية قصدها بدليل النظام في جليّة الكائنات) - روحانية النفس -.

* الجمهورية الفاضلة في الإسلام: يعتقد ابن رشد، مثل الفلاسفة المسلمين، أن تنظيم جمهورية فاضلة متقدّمة أمر ممكن إذا درّب الفلاسفة الشعب على الفضيلة ومراعاة المصلحة العامة مشيراً إلى أن أقرب الدول إلى الجمهورية الفاضلة هي حكومة الراشدين لأنها تأسست على الشورى، وحكمت بالعدل.

□ **في الاجتماع، يفضل ابن رشد حياة الجماعة في ظل دولة على حياة العزلة، لأن حياة التوحد لا تثمر صناعة ولا علماً، وعلى الفرد واجب إصلاح المجموع وإسعاده.**

□ **في دور المرأة:** رأى أن عقل المرأة يختلف عن عقل الرجل بالدرجة والكمية بالنوع. فباستطاعتها أن تقوم بكل أعمال الرجل، وأن تمارس الحكم، لكنها قد لا تحسن ذلك، مع أنها تفوقه في بعض الفنون الأخرى كالموسيقى، ذلك أن الكفاءة الطبيعية عندهما واحدة إلاّ أن الرجل عزّزها بالمران، في حين حُملت المرأة بداعي وظيفتها الطبيعية على الإنقطاع إلى الحضانة، فأهملها المجتمع وحُرم فضل تفكيرها.

□ **في الدين: رأى ابن رشد ان الدين أحكام شرعية لا مذاهب نظرية، وحمل على** المتكلمين إذ على الناس أن يؤمنوا بما جاء في الكتاب كما هو، وما في الكتاب هو الحق. لذلك أوجب محاربة العلم الكلامي.

□ بحوث ابن رشد كانت خلاصة الفلسفة العربية وبداية الفلسفة الغربية. استعان بها كل فلاسفة الغرب واقتبسوا منها ودارت حولها نقاشاتهم ومجادلاتهم حتى القرن التاسع عشر. إذ أن الفلسفة العربية اعتمدت على الفكر اليوناني من جهة وعلى معطيات الإسلام من جهة أخرى، فكانت المشادة بين المتكلمين والفلاسفة. وقد انتهى ابن رشد إلى القول بأن الحكمة هي أخت الشريعة، وبين أضاليل الفلاسفة المشائين وردّ عنهم تهم الكفر، فكان الغاية التي قصدتها الفلسفة الإسلامية، بذهن خال من الهوى، وتفكير معتدل.



برج محمد ـ حدائق القصر المسماة
الطباق السبع (قصور الحمراء)

من المصادر: أعلام الفلسفة العربية د. يازجي، د. كرم، دار المكشوف، بيروت: ١٩٦٨ ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، د. محمد مرحبا، عويدات، بيروت: ١٩٧٠ ـ تهافت التهافت، تحقيق د. دنيا، القاهرة: ١٩٦٥.

ابن سينا

(٩٨٠ م - ١٠٣٧ م)

□ ابن سينا، هو الشيخ الرئيس الحسين بن عبدالله، كنيته أبو علي. ولد في أفشَنَه - من قرى بخارى - وكان أبوه والياً على سامان، فتعهّده بالتربية والتعليم، حتى اتقن - وهو دون العشر - القرآن والأدب، فأثار الإعجاب بنبوغه المبكر. ثم رعاه الفيلسوف أبو عبدالله الناتلي فدرسه المنطق. وحين مال الى الطب أخذه عن عيسى بن يحيى. ثم تعمق بالعلوم الشرعية والهندسية... كان في السابعة عشرة حين استدعاه سلطان بخارى لمعالجته من مرض عجز الأطباء عنه، فشفاه، وتدليلاً على فضله، فتّح له السلطان خزائن مكتبته، فانكب عليها يجني فوائدها، ثم احترقت فانفرد بما حفظه منها من ثقافة واسعة.

وكانت المرحلة الثانية من عمره، فترة عطاء وترحال وعمل، جال فيها خراسان وخوارزم وجرجان، زار امراء، واتصل بعلماء ومشاهير، وعمل وزيراً لدى شمس الدين البويهي بعد أن شفاه من مرضه. وكان يؤلف ويعمل ويعقد مجالس الطرب معاً، حتى أصابه هزال ومرض شديد وتوفي في همذان.

□ برع ابن سينا في جميع معارف عصره، بعد أن حصّل ثقافة عريضة وتأمل وجرّب بنفسه. كان جيد الحفظ راغباً بالعلم، يسهر للقراءة والكتابة والتأمل. وهذا الجانب من حياته لم يمنعه أن يعيش الملذات كلها، فأقبل على الدنيا يعبّ منها قدر إقباله على العلم. فلم يكن فيلسوفاً منطوياً على نفسه، بل مؤثراً الإختلاط والحياة النشطة الغنية، وقد عرف في نهاية حياته إيماناً عميقاً، فزهد وتبتّل قبل أن يودّع الدنيا.

□ أقبل على الفلسفة دارساً فلم يترك كتاباً لمن سبقه إلاّ واطلع عليه، قال أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة فحفظه ولم يفهمه، حتى وقع بين يديه كتاب أغراض ما بعد الطبيعة للفارابي، فانفتح عليه ما أغلق من كتاب أرسطو. وفي الطب بحث وجرّب،

وعالج متطوعاً ومتكسباً، حتى نال شهرة عظيمة. وبعد انتشار كتبه كانت ترده الأسئلة من جميع أقطار العرب ويزوره طلاّب العلم ليفيدوا منه.

□ مال الأوروبيون إلى آرائه الطبيّة، فترجموها وشرحوها، بل نسبوا إليه كل فضل عربي في علم الطب. وغزت مؤلفاته الفلسفية أوروبا فانتشرت أفكاره وأسست للفكر الأوروبي الحديث باعتراف علمائه. وكان أول فيلسوف مسلم تُعرف أفكاره في الأوساط اللاتينية قبل أن تُعرف فلسفة أرسطو، وذلك لتجاوب فلسفته مع فلسفة القديس اغسطينوس الأفلاطوني النزعة. ولم يضعف هذا التيار إلاّ بعد ترجمة آثار ابن رشد إلى اللاتينية، والذي بقيت أفكاره مؤثرة ومستمرة حتى عصر النهضة.

□ قد يتفق ابن سينا في فلسفته مع الفارابي ولكنه يبزّه قدرة على الإيضاح والتفصيل والسير إلى الغاية. أمّا مؤلفاته العامة فقيل أنها مئتان وستة وسبعون مؤلفاً. أهمها في الفلسفة: كتاب الشفاء في ثمانية عشر مجلداً، ومختصره كتاب النجاة في ثلاثة مجلدات، وكتاب الإرشادات والتنبيهات، وفي الطب: كتاب القانون في أربعة عشر مجلداً. هذا فضلاً عن كتب في الفقه والإجتماع والموسيقى وعلم الفلك والدين والرياضيّات، فهو عالم وفيلسوف معاً.

□ في الطب:

تأثر ابن سينا في طبه بمذهبي أبقراط وأرسطو. لكنه أضاف ماكشفت له تجاربه في حقلي المعالجة وتركيب الأدوية. وقد ترجم كتابه «القانون» إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر على يد جيرار دي كريمونا «GERARD DE CREMONA» وإلى العبرية في القرن الثالث عشر، وطبع في روما عام ١٥٩٣، ودرّس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر.

يشتمل كتاب «القانون» على خمسة أقسام: الأمور الكلية في علم الطب ـ الأدوية (موزعة على حروف المعجم) ـ الأمراض الجزئية التي تصيب أعضاء البدن ـ الأمراض الجزئية غير المختصة بعضو معيّن ـ تركيب الأدوية.

قال ابن سينا في مقدّمته: «أصنّف في الطب كتاباً مشتملاً على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالاً يجمع إلى الشرح الإختصار، وإلى الأيفاء الأكثر حقّه من البيان والإيجاز». وقد قسم الطب إلى قسمين: نظري وعملي، وشدّد في محاربته الأمراض على اعتماد المريض للقوة الحياتية، موجداً

في كتابه اصطلاحات جديدة أدت للطب خدمات جليلة. وفيما يلي أهم الإشارات في كتاب «القانون».

* درس الأمراض العامة تفصيلياً: للرأس والجمجمة والنخاع والعين والأذن والأسنان والقلب والرئتين والأحشاء واليد: ذات الرئة وذات الجنب والقولنج والإنسدادات والكسر والغدد... وتحدّث عن السل الرئوي وأوصى لعلاجه بالتربانتين والعفن والجوز، لأن المادة التي تؤخذ منها تتصدّى للسل.

* درس النبض، ورأى له توازناً موسيقياً، وشخّص الأمراض استناداً إليه. كما ذكر أقسام العضلات والعظام، وفصّل في وصف أعضاء الجسم، ونبّه إلى أهمية حليب الأم كما أوصى بضرورة الرضاعة من الأم وإلّا من مرضعة.

* درس الأمراض المعدية والفصليّة والموسمية، وتحدّث عن تلوّث الهواء، وانتقال العدوى بالوراثة. ورأى الأمراض داخلية للرطوبة والعفونة فيها أهمية كبرى، وخارجية لا ترتبط كثيراً بالرطوبة والإنفعالات، بل يكفي زوال الأعراض الخارجية لتزول.

* عمل ابن سينا على صنع آلة للرصد، وبحث وألف في الفلك. كما أنه بحث في الموسيقى، وتساءل عن نشأتها، ورأى في الأصوات تعبيراً عن عاطفة، وفصّل في وصف الأصوات، وما تحدثه من ارتياح وانزعاج محاولاً تعليل ذلك. وله في الموسيقى: مقالة «جوامع علم الموسيقى» طبعت في القاهرة ١٩٥٦ - «ومقالة الموسيقى» طبعت في حيدر أباد ١٩٣٥.

□ في الفلسفة:

الفلسفة عند ابن سينا هي العلم بالوجود المطلق دون النظر إلى نوع الوجود - كما عند الفارابي - والغاية منها تهذيب النفس واستكمالها لتحصل لها السعادة. فلسفته عقلية في أصولها، صوفية في ألفاظها، توفيقية بين الحكمة والشريعة في غاياتها وأهدافها. وفيما يلي أهم آرائه الفلسفية:

* نظرية المعرفة - كما عند الفارابي - مصدرها أرسطو: فكل معرفة تبدأ حسيّة ثم ترتقي. وللإدراك مرحلتان: مرحلة الإدراك الحسي ومرحلة الإدراك العقلي. وهكذا تنقسم المعرفة ثلاثة: معرفة بالفطرة، ومعرفة بالفكرة، ومعرفة بالحدس. والناس تبعاً لذلك ثلاثة أقصاهم مَن معرفته كلها حدسية، وهم الأنبياء.

* المنطق: وهو الآلة القانونية «العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدّق به

ومـوصلة إلى الإعتقاد الحق بـإعطاء أسبـابه ونهج سبله». وقد اعتمد ابن سينا ـ كغيـره ـ على منطق أرسطو، فبحث في شروط المنطق العامة وأقسامه وأنواعه ومصـادره محدداً دور كل منها في استقراء الحقائق، ودرس أقسام البرهان والعلل.

* الالهيات: «أن العالم بجملتـه وأجزائـه العلوية والسفلية ليس فيه ما يخرج عن ان يكون الله سبب وجوده وتقديره وعلمه وإرادته. . .» وإذا كان في العالم شرور فالخير هو غالب. إن واجب الوجود جذاب ومعشوق لما له من كمال تام وإنّ العالم منجذب عاشق لما له من نقض وقبح لهذا يسعى لأن يكون شبيهاً به. وعقيدة الإسلام عند ابن سينا جعلتـه يرفض أثنينيّة أرسطو، فقال ان العالم متأخر عن الله تعالى في الذات مصاحب له في الوقوع في الزمان، مؤكداً حاجـة العالم إلى الله وعـدم استغنائه عنه لأن الله علة وجود العالم ووجود العالم معلول عنه، والمعلول يتأخر عن علته. وهكذا يكون قـد وفّق بين الدين والفلسفـة. واستخدم ابن سينا كلمة «إبداع» علة لـوجود الكائنات عن واجب الوجود.

* الفيض: وإذا لم يكن الإبداع زمانياً ولا عن مادة فإن سبيل وجود الموجودات عن الله هو الفيض. وهي نظرية للفارابي عرضها ابن سينا في صور مختلفة وشرحها فذاعت.

* النفس: هي الإنسـان على الحقيقـة. وابن سينـا هـو أول فيلســوف مسلم اهتم بدراستها. والنفس تقسم إلى: نفس نباتية، وحيوانية، وإنسانية، وهذه الأخيرة تقسم إلى قوة عاملة وقـوة عالمـة. وقد أثبت ابن سينا وجـود النفس فضلاً عن بحثـه في حقيقتها، وجعل الأدلة على ذلك: الحركة ـ الإدراك ـ الديمومـة واتصال الحيـاة الوجـدانية ـ الإنّيـة ووحدة الذات ـ ودليـل الخلاء (فـالإنسان لا يغفل عن وجود ذاته). وقال انها جوهر قائم بذاته، جـوهر روحـاني شريف فهي تتصـور المعقولات بذاتها لا بمشاركة الجسم.

* الأخـلاق: هي انقياد النفس النـاطقـة للبدن. والسعادة تكون بإصلاح الجزء العملي من النفس. وفصّــل في تجـنّب الـشــراب والرذائل.

* التصــوّف: يكــون بتصفـيــة النـفس ومجاهدتها للوصول إلى النّيل وإشراق القلب بنور المعرفة الذوقية. وقد درس هذه المباديء دراسة موضوعية.

* السيــاســة: لقــد جعــل الله النــاس متفاضلين في عقولهم وأملاكهم ورتبهم. . . فـالتفاوت سبب بقـائهم وأصل اجتمـاعهم.

وفصّل في واجبات الرئيس وسياسة الرجل في أهله ومعاشه.

□ لئن تأثر ابن سينا بالفارابي لكنه كان ذا شخصية مميّزة مستقلة. ولئن كان الفارابي قد وضع حجر الأساس فإنه لم يخلّد إلّا بجهود ابن سينا أمير الفلاسفة.

الله واجب الوجود — واجب الوجود بنفسه، كمال مطلق، خير محض.

العقل الأول — جوهر غير منجسم أصلاً. أقل كمالاً من الله وأكمل مما بعده.

العقل الثاني

العقل الثالث

٤

٥

٦

٧

٨

٩

١٠ — العقل الفعّال يُعنى بما دون فلك القمر بعالم الفساد والكون

النفوس الإنسانية.

الإنسان

الحيوان

النبات

الجماد

عالم الكون والفساد

العناصر الأربعة

الهيولى (شر محض)

من المصادر: النجاة، م. السعادة، مصر - الإشارات والتنبيهات، القاهرة ٥٧، ٥٨، ٦٠ - من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية د. محمد مرحبا، - عويدات ١٩٧٠.

ابن طفيل

(١١١٠ م - ١١٨٥ م)

□ محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، كنيته أبو بكر، يعود نسبه إلى بني قيس العرب الخلّص. ولد في «وادي آش» أحدى قرى غرناطة، وأحاط بعلوم عصره جيداً، فدرس الحديث والفقه واللغة على أبي محمد الرشاطي وعبد الحق عطية، كما درس الفلسفة على ابن باجة، ولكنه تعمّق بكافة العلوم على نفسه، مطالعاً بتأن وكاتباً بتأمل. فأجاد الطب والفلسفة ونظم الشعر.

عمل ابن طفيل في مراكز سياسية عالية، فكان مقرّباً من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثاني خلفاء الموحدين، وعمل وزيراً له وسفيراً بين الخليفة والعلماء يدعوهم إليه ويرشدهم، وكان له فضل تقديم ابن رشد للخليفة لشرح آراء أرسطو له.

ولما توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف استمر ابن طفيل في مناصبه، لكنه لم يعش طويلاً، وهو من القلائل الذين نالوا تكريماً في حياتهم ومماتهم، فحين توفي في مراكش أقيم له مأتم مهيب حضره الخليفة.

□ كان ابن طفيل شغوفاً بالعلوم والآداب، حريصاً على جمع الكتب. مارس الطب ومهر فيه، كما كان فيلسوفاً شارحاً ومبتكراً، وأديباً ذا بيان ساحر وشاعراً موهوباً، ساعد ابن رشد في كتابه الطبي «الكليات»، وافرغ فلسفة عصره في قصة خيالية عذبة هي «حي بن يقظان»، كما كان له شعر بليغ، وحُكي أن له في علم الفلك نظريات ومكانة لا تدفع حتى أنه تحدّى نظام بطليموس.

□ كان محيط ابن طفيل مشجعاً لبحوثه الفلسفية، فالموحدون رفقاء بالفلاسفة، أباحوا مذهبي الأشعري والغزالي في المغرب، وكانوا هم مثقفين، مكتباتهم غنية، وبلاطهم عامر بالباحثين والمتأدبين. أمّا الجمهور فكان ميّالاً للتدين، غير راغب بالمشتغلين في الأمور الفلسفية، من هنا كان ابن طفيل مقلّاً، ولكنه أجاد في ما كتبه مختصراً فيه فكره في أسلوب مشوق وبليغ.

□ قصــة «حي بن يقـظان» هي حكــايـة فلسفيـة، بل هي حكـايـة الفلسفـة العـربيـة بجملتها، بسط فيها ابن طفيـل مسائـل هذه الفلسفـة بـأسلوب تحليلي استقـرائي. وهي تضم مقـدمـة مـوجـزة تتعـرّض للفـلاسفـة المسلمين بالنقد، وهم.

ـ ابن باجة: أخذ عليه ابن طفيل عكوفه على أمـور الدنيـا، وعدم تخـطّيـة المعـرفـة النـظرية، فهـو لم يباشـر حقيقة الأشيـاء عن طريق الذوق والمشاهدة، فلم يحصّـل تلك المعرفة التي يهبها الله لمن يشاء فقـال فيه: «لم يكن فيهم (الفـلاسفة المتقـدمين) أثقب ذهناً ولا أصحّ نظراً ولا أصدق رؤية من أبي بكر بن الصائغ، غير أنـه شغلته الـدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمـه، وبث خفايا حكمته».

ـ الفارابي: أخذ عليه ابن طفيل مـأخذين خـطيرين: سـوء اعتقـاده بـأمـر النفس بعـد المـوت، وسوء ظنـه بحقيقة النبـوّة. وينتقده قائلاً: «فهذا قد أيأس الخلق جميعاً من رحمة الله وصيّر الفاضل والشرير في رتبة واحدة، إذ جعل الكل إلى العـدم، وهذه زلّـة لا تقال، وعثرة ليس بعدها جبر».

ـ الغزالي: وأخذ عليه ابن طفيل تذبذبه في العقيدة الدينية وتردّده بين التحليل والتحريم: «فهو بحسب مخاطبتـه للجمهور، يـربط في مـوضع ويحـلّ في آخر، ويكفّـر بأشيـاء ثم ينتحلها» ثم يخفف عنه، ويقول بأنه: «سعد السعادة القصوى وعرف كل شيء بالمكاشفة، وألّف فيها كتباً مضنوناً بها على غير أهلها لم تصل إلى الأندلس». ويعترف بفضلـه فيقول: «ولم يتخلصّ لنـا نحن الحق الـذي انتهينـا إليـه... إلاّ بتتبع كـلامه (الغـزالي) وكـلام الشيخ أبي علي (ابن سينا)، وصرف بعضهما إلى بعض... حتى استقــام لنـا الحق أولاً بطريق البحث والنظر، ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة، وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا».

ـ ابن سينا: أخذ عليـه ابن طفيل وصفـه المقلّد لحالة الذوق والمشاهدة، فهو لم يختبر ولم يسلك هذا المسلك الذوقي. وأخذ عليه كذلك وضعـه الكتب على مذهب المشّـائين «لأن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتاب الفلسفة المشرقية».

□ مسـرح القصة جزيرة مـأهـولـة تمثّـل المجتمـع الانسـاني، وجـزيـرة أخـرى غيـر مـأهولـة، أمّا الأبـطال فهم حي بن يقـظان، وآسال وسلامان وظبية. ومراحل القصة تشرح آراء ابن طفيل من كل شيء، وقد أشار أولاً إلى ولادة حي، في افتراضين: الأول أنه ابن

شرعي لزواج سري، اقتضى من الأم قذف ابنها في اليم فوصل إلى الجزيرة غير المأهولة، والإفتراض الثاني هو تولّده ولادة ذاتية من طينة تخمّرت بفعل الشمس، فدخلها روح من أمر الله. وحين ولد كانت هناك ظبية اعتنت به. أما مراحل القصة فهو كما يلي:

ـ اكتشاف الروح: تموت الظبية، بعد أن عودته الإغتذاء من الشجر وتقليد أصوات الحيوان والإكتساء من جلدها وريشها. فيجزع ويفتش عن سبب موتها بالتشريح، فيكتشف أنه في التجويف الأيسر الفارغ من القلب، ويعلم أنه أرتحل ولن يعود. ومن اختباره التشريح على حيوانات أخرى تأكد أن الجسم آلة توحدها الروح وتوجهها.

ـ اكتشاف قانون السببية: وذلك بمراقبته دورة المطر، فالماء يتبخّر فيهطل فتتكون السواقي... وتأكد أن الكون خاضع لهذا الناموس.

ـ اكتشاف وحدة الكون: ومن مراقبة الحيوانات في حركاتها وسكناتها تأكد أن كل الكائنات تحرّكها نفس واحدة لكن الحيوان يفوق النبات منزلة، ويتفرّد عنه بالحس والإدراك والتحرّك، أمّا الجماد فأصل واحد. ومن صفات الأجسام كلها تأكد أنّ أصل الكون واحد بكل ما فيه.

ـ اكتشاف اتصال الموجودات: وفي دراسته لجوهر الأجسام تبين له أنه لا يوجد جسم معّرى من «الثقل والخفة» معاً، إذاً هما عرضان لمعنى الجسمية أو صورتان، وهكذا توصّل إلى أنها صور لا تدرك بالحس بل بضرب من النظر العقلي فاهتدى إلى العالم الروحاني وعرف النفس.

ـ اكتشاف الفاعل الأول: ولما درس الماء وتحوّلاته وعلم بالضرورة أن كل حادث لا بدّ له من مُحدث، لاحت له الضرورة إلى فاعل واحد للكون ما دام نظامه واحداً وأنه لا يهرب من هذا الإفتراض.

ـ التفكّر في العالم: وبعد أن رأى الأجسام السماوية ممتّدة في الأقطار الثلاثة: الطول والعرض والعمق، وتفكّر في العالم هل هو محدث بعد أن لم يكن... وتشكك وحار... سلّم بالحاجة إلى كائن مطلق كامل قديم بريء من الجسمية وصفاتها والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

ـ المكاشفة والتسامي: ولما أدرك وجود الفاعل العظيم، مال إلى التجّرد من العالم المادي، تصفح حواسه ورأى أنها لا تدرك، ففكر في القوى المدركة، ورآها مدركة بالقوة مرة وبالفعل تارة أخرى، فإذا فاتها الإدراك

عظم ألمها. ولما أدركته نفسه شعر بالغبطة فقال انها إذا طرحت البدن واستمّرت لها المشاهدة حارت في لذة لا نهاية لها.

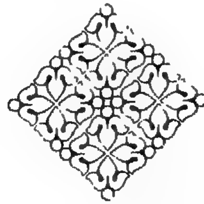
ـ الإجتماع بآسال وسلامان: آسال رجل يحب العزلة، ترك مدينته العامرة ورئيسها المتدين سلامان، وفي الجزيرة غير المأهولة يلتقي بحيّ بن يقظان، فيتعارفان ويكتشفان أنهما في مقام واحد من إدراك الحقائق.

ـ التوفيق بين الفلسفة والدين: وحين تساوت في نظرهما ما كشف التأويل لآسال من باطن الشريعة وما أوصل التفكير «حيّاً» إلى معرفته في حال المكاشفة «تطابق عندهما المعقول والمنقول». فآمن حي بأن من جاء بالشريعة في جزيرة آسال رسول من عندالله فاعتنق دين صاحبه وانتقل معه إلى جزيرته.

ـ ضرورة الشريعة للمجتمع: وحين تصفّح الناس رأي حيّ أنهم متحزبون والشرائع أصلح لهم، فانسحب حي وآسال إلى جزيرتهما.

□ لقد بسط ابن طفيل الفلسفة كلها في قصته في لغة سهلة قريبة، وأهدافه في ذلك عديدة منها، وربما أهمها: التوفيق بين الشريعة والفلسفة «فحيّ» من أرباب الفلسفة «وآسال» من أرباب التأويل «وسلامان» من أرباب الظاهر، واتفاق حي وآسال أي اتفاق أغراض الفلسفة ومقاصد الشريعة، وترك سلامان في جزيرته، أي الرضى بما عليه الجمهور من الأخذ بظاهر الشريعة لأنه أوثق لإيمانهم. وهكذا فقد جاء ابن طفيل بمذهب الجمع بين الإيمان التقليدي والإقتناع العقلي والذوق الصوفي معاً.

□ يتفرّد ابن طفيل بين الفلاسفة باسلوبه القصصي الممتع. وقد ترجم الكتاب إلى العبرية سنة ١٣٤٩، ثم نقل إلى الإنكليزية وإلى اللاتينية سنة ١٦٧١، وإلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وإلى الألمانية سنة ١٧٢٦، وإلى الإسبانية سنة ١٩٠٠، والى الفرنسية سنة ١٩٠٠، وطبع بالعربية مرات في القاهرة وبيروت.



المصادر: قصة حي بن يقظان لابن طفيل، دمشق: ١٩٣٥ ـ تاريخ فلاسفة الاسلام، محمد لطفي جمعة، القاهرة: ١٩٢٧ ـ أعلام الفلسفة العربية، د. يازجي، د. كرم، بيروت: ١٩٦٨.

ابن كثير

(١٣٠٠ م - ١٣٧٢ م)

□ إسماعيل بن عمر بن كثير، كنيته أبو الفداء، يعود بنسبه إلى قريش. والده فقيه محدّث وخطيب. ولد في «مجدل القرية» من أعمال بصرى - شرق دمشق - وتوفي والده وهو في الرابعة من عمره، فربّاه أخوه الشيخ عبد الوهاب.

انتقلت الأسرة به إلى دمشق، وهو في الخامسة من عمره، فتلقّى العلم فيها. أخذ عن ابن عساكر، وعن إسحاق بن يحيى الآمدي شيخ الظاهرية، وعن تقي الدين أحمد بن يتمية الذي أحبه وتأثر به. كما تفقه على الشيخ الفزاري وسمع من أحمد بن أبي طالب وعيسى بن المطعم ومحمد بن زياد، ثم لازم الشيخ جمال يوسف بن الزكي المزي، صاحب تهذيب الكمال، وبه انتفع وتخرّج، وتزوج من ابنته.

برع ابن كثير في الفقه والحديث والتفسير. وكان قوي الحافظة، حسن الحديث، حاضر البديهة، كثير الإشتغال بالكتب، يقرأ فيها ويكتب، وكانت حلقاته تعج بالطلاب، يقصدونه من أقاصي البلاد، من تلاميذه: ابن حجي، قال: «أحفظ من أدركنا لمتون الحديث وأعرفهم بجرحها وتعديلها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة تردّدي إليه - إلّا واستفدت منه».

□ عمل ابن كثير في جمع الأخبار وتدوين الأحداث فكان كتابه «البداية والنهاية في التاريخ» في أربعة عشرة جزءاً، شاملاً جامعاً، يشهد على طول باعه في هذا الميدان، طبع في القاهرة (١٩٢٩ - ١٩٣٩).

□ وعمل ابن كثير في رواية الحديث ونقده، «ولم يكن على طريق المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، الذي أسماه «اختصار علوم

الحديث». وقد شرح وطبع في مصر باسم: الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث.

□ ولابن كثير مؤلفات عديدة في فقه الشافعية وفي السيرة، منها:

- البداية والنهاية في التاريخ.
- اختصار علوم الحديث.
- طبقات الشافعية.
- تخريج أحاديث التنبيه (في فقه الشافعية).
- شرح البخاري (لم يكمله).
- السيرة النبوية.
- مسند الشيخين (أبو بكر وعمر).
- رسالة الجهاد.

□ ولابن الكثير تفسيره القرآن العظيم. وهو من باب التفسير بالمأثور - أي تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدثين بأسانيدها، ويتكلم فيها على الأسانيد جرحاً وتعديلاً، فيبّين ما فيها من غرابة أو شذوذ غالباً، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين. وهو تفسير سلفي، يتبع المنهج القويم للوصول إلى الغاية، وهي - أي الغاية - فهم كلام الله العظيم على مراده سبحانه وتعالى.

وتفسير ابن كثير، يعوّل عليه، بعد تفسير الطبري، في فهم معاني القرآن الكريم، وإن كان يفوقه أحياناً في بعض الأمور، وقد طبع مرات، كاملاً ومختصراً بدون الأخبار الإسرائيلية وكثير من الأحاديث الضعيفة والأقوال المرجوحة، قال فيه السيوطي: «لم يؤلف على نمطه مثله» وقال فيه الشيخ صبحي الصالح «ومن مزاياه الدقة في الإسناد، وبساطة العبارة، والوضوح في الفكرة».

□ ومن تفسيرة لسورة البقرة، الآية ١٥١ والآية ١٥٢:

□ **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزكّيكم ويعلمكم الكتابَ والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون(١٥١) فاذكروني اذكُركم واشكروا لي ولا تكفرون(١٥٢)﴾.**

يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ اليهم يتلو عليهم آيات بينات ويزكيهم أي يطهرهم من الرذائل والدنس، ويخرجهم من الشرك إلى التوحيد، ويعلمهم الكتاب: أي القرآن. والحكمة: أي السنة. ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فبعد أن كانوا في جهل الجاهلية وسفَه القول، انتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا علماء أبراراً صادقين، رافلين بنعمة الله بمحمد ﷺ ولهذا

ندب الله المؤمنين إلى الإعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره. وقال **﴿فاذكروني أذكرْكم واشكروا لي ولا تكفرون﴾** أي فكما مَنَنْتُ عليكم بمحمد فاذكروني، وعن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني ماذا ذكرتني فقد شكرتني وإذا نسيتني فقد كفرتني». قال الحسن البصري وغيره: إن الله يذكر مَنْ ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف في قوله تعالى: **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** قال: هو أن يطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وقال الحسن البصري في قوله: **﴿فاذكروني أذكركم﴾** قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي. وفي الحديث الصحيح: ١٤٩ يقول الله تعالى: [من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] وقوله: **﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾** أمر تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير قال: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** وروى أحمد بسنده إلى رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزّ لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال: إن رسول الله ﷺ قال: ١٥٠ [من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح مرةً: «على عبده]». نقلاً حرفياً من «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير»، ص ١٢٣.

□ وبقي ابن كثير يدّرس ويؤلف ويفتي حتى أضرّ في أواخر عمره، قال فيه المؤرخ ابن تغري بردي الحنفي: «الشيخ الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء... لازم الإشتغال ودأب وحصل وكتب، وبرع في الفقه والتفسير والحديث وجمع وصنّف ودّرس وحدث وألف وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك وافتى ودرس إلى أن توفي»، وتابع ابن ناصر الدين الدمشقي: «وكانت جنازته حافلة مشهورة ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية... وبجانبه».

المصادر: كتاب الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، القاهرة ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، محمد نسيب الرفاعي، بيروت: ١٩٧٨ ـ مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، بيروت: ١٩٦٥.

أبو حنيفة النعمان

(٦٩٩ م - ٧٦٧ م)

□ النعمان بن ثابت الكوفي، كنيته أبو حنيفة، وهو مؤسس المذهب الحنفي. ولد في الكوفة، وتلقّى الفقه عن حمّاد بن أبي سليمان وغيره، كما سمع كثيراً عن علماء التابعين مثل عطاء بن أبي رباح، ونافع مولى ابن عمر. وكان أبو حنيفة يعمل خزازاً، يبيع ثياب الخزّ في الكوفة، معروفاً بصدق معاملته وحسن مجلسه، لا يرغب الكلام إلّا في الفقه، فإذا سئل فيه أفاض وجهر في كلامه. اتصل به العديد من الطلاب، فسمعوه وأخذوا عنه. أدرك أبو حنيفة انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين، لكن كتب التاريخ لم تشر إلى أي دور له في هذ الحركة التي نشطت جداً في الكوفة. وفي سيرته نرى إشارة إلى أن والي العراق من قبل مروان بن محمد عرض عليه ولاية القضاء فأبى فضربه من أجل ذلك. توفي أبو حنيفة في بغداد ودفن فيها.

□ يسمي مؤرخو الفقه الإسلامي اتجاهات التفكير الفقهي التي تبلورت في منتصف القرن الثالث الهجري «مذاهب». أمّا قبل ذلك، فالأمر كان مقصوراً على الشيخ وتلامذته، يحفظون عنه الأحاديث ويرددونها، وإذا ذكروا آراء شيوخهم لا يعتبرونها ملزمة.

وتيار الكوفة، أي التوجّه الإجتهادي فيها، هو طريق في التفكير أسهم فيه أبو حنيفة، إذ جعله في اتجاه متكامل واستمد له من تقاليد الأقطار الأخرى واتجاهاتها ما جعله مقبولاً خارج إطاره المحلي. وقد توافر لفقه أبي حنيفة ثلاثة عناصر: تركيبه للتقليد الكوفي، اتصاله وجدله مع التقاليد الأخرى، وجود تلاميذ له يتابعون عمله في اتجاهه التفكيري معتنين بالتفاصيل، وهكذا تأسس المذهب الحنفي وتأصل ثم استمر وشاع.

□ قال فيه محمد بن الحسن مؤكداً سعة علمه بالفقه وكثرة طلابه:

«كان أبو حنيفة عارفاً بحديث أهل الكوفة

وفقه أهل الكوفة، شديد الأتباع لما كان عليه الناس ببلده».

□ وقال فيه سهل بن مزاحم مشيراً إلى اسلوبه في تناول الأحاديث واستنباط الأحكام:

«كلام أبي حنيفة أخذ بالثقة وفرار من القبح والنظر في معاملات الناس وما استقاموا عليه وصلح عليه أمورهم. يمضي الأمور على القياس، فإذا قبح القياس يمضيه على الأستحسان ما دام يمضي له، فإذا لم يمض له، رجع إلى ما يتعامل المسلمون به، وكان يوصل الحديث المعروف الذي قد اجمع عليه، ثم يقيس عليه ما دام القياس سائغاً ثم يرجع إلى الإستحسان أيهما كان أوثق رجع إليه».

□ وهذا القول يؤكده أبو حنيفة نفسه، شارحاً طريقته في الإستنباط.

«أني آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، أخذت بقول أصحابه مَن شئت وأدع قول من شئت، ثم لا أخرج من قولهم إلى غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب، (وعدّد رجالاً قد اجتهدوا) فلي أن أجتهد كما اجتهدوا».

□ إذاً، إن مذهب أبي حنيفة في الإستنباط هو الأخذ بما في كتاب الله أولاً، فإذا لم يجد ضالته عمد تدريجياً إلى الأخذ بحديث الرسول صلوات الله عليه، فآراء أصحابه التابعين لهم، مفحساً لنفسه بالإجتهاد كما اجتهد الآخرون، وأبو حنيفة هنا، من مدرسة الصحابي عبدالله بن مسعود الذي أرسله الخليفة عمر بن الخطاب إلى الكوفة معلماً، وهناك اضطر لإعتماد رأيه في حلّ مسائل شرعية لم يكن له عهد بها سابقاً في المدينة، والإجتهاد بالرأي مدرسة قائمة اعتمدها أبو حنيفة وتلاميذه.

□ لم يترك أبو حنيفة كتباً وضعها بنفسه، وربما وضع بعضها ولم تصلنا، ونحن نعرف آراءه من مرويات أصحابه وتلاميذه، فلهم الفضل في تدوين ذلك وتفريع الفروع وإعداد الأجوبة عنها، أشهرهم:

* أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وهو أكبر تلاميذه وأفضل معين له وأول مَن صنّف على مذهبه وأملى المسائل ونشرها.

* زفر بن الهذيل بن قيس الكوفي، وكان أفضل تلاميذه في استعمال القياس، أمضى

حياته متفرغاً للعلم والتعليم.

* محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، تفقّه في الحديث باكراً، لكنه لم يجالس أبا حنيفة كثيراً لأن أبا حنيفة توفي ومحمد حدَث فأتم الطريق على أبي يوسف يعقوب، ولما بلغ ونبغ، صار المرجع الأول لأهل الرأي في حياة أبي يوسف، وبه تأصل المذهب الحنفي استناداً إلى مدوناته وما فيها من آراء ومناظرات مع سائليه. من أهم كتبه: الأصل - الجامع الصغير - الجامع الكبير - كتاب السير الصغير، كتاب السير الكبير - الزيادات - وقد جمعها الحاكم الشهيد في كتاب الكافي، ثم شرحها السرخسي في كتاب المبسوط في ثلاثين جزءاً، وهذه الكتب هي المعتمدة في الفقه الحنفي.

□ مذهب أبي حنيفة هو الأوسع انتشاراً بين المسلمين اليوم. وكان المذهب المتبع في الإمبراطورية العثمانية ولا يزال معتمداً في بلاد الشام ومصر وباكتسان وأفغانستان. . .



المصادر: تاريخ التشريع الإسلامي، الخضري، القاهرة: ١٩٣٩ - القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، د. صبحي المحمصاني، بيروت: ١٩٧٢ - مناقب الامام ابي حنيفة، الكردري، حيدر أباد: ١٣٢١ هـ.

أحمد بن حنبل

(٧٨٠ م - ٨٥٥ م)

□ أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي. مؤسس المذهب السنّي الحنبلي. ولد في بغداد حيث سمع من أكابر المحّدثين، واستكثر من الحديث وحفظه حتى صار إماماً فيه. وكان رحّالة جاب البلاد يتلقّى العلم ويجمع الحديث. وحين استقّر في بغداد وردها الإمام الشافعي فأخذ عنه، وناظره، وهناك كتب تثبت هذه المناظرات في المسائل الشرعية، قال فيه الشافعي: «خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل». توفي في بغداد.

□ أحمد بن حنبل من أكبر تلاميذ الشافعي، تأثّر به وأخذ عنه ثم اجتهد لنفسه. عمل بخبرالواحد من غير شرط متى صحّ سنده، وهي طريقة الشافعي أيضاً، وقدّم أقوال الصحابة على القياس. أمّا أراؤه الفقهية فمستمدّة مباشرة من الحديث لذلك تختلف من حق لآخر في المسألة الواحدة تبعاً لما يصل إلى علمه من حديث أو أثر. وقد كان الأمر صعباً على الحنابلة لأنهم نشأوا في بغداد، وبغداد مدينة حديثة التكوّن ليس لها تقاليد فكرية يمكن أن يتأسس عليها اتجاه في التفكير، خصوصاً في المسائل الفقهية. لذلك استمر تكوّن المذهب الحنبلي قرناً كاملاً بعد وفاة الإمام أحمد.

□ ومذهب ابن حنبل هذا أكثر المذاهب السنية محافظة على النصوص وابتعاداً عن الرأي. فلذلك تمسك بالنص القرآني أولاً ثم السنة ثم إجماع صحابة النبي صلوات الله عليه، ولم يقبل بالقياس ألاّ في أحوال الضرورة القصوى.

□ للإمام أحمد مسند، والمسند أحاديث مروية بأسانيدها عن رسول الله ﷺ، يحوي على أكثر من أربعين ألف حديث، رواه عنه ابنه عبدالله.

□ وله أيضاً كتاب في طاعة الرسول ﷺ، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب العلل.

□ روى عنه البخاري ومسلم ومن في طبقتهما. كما روى عنه مذهبه أبو بكر

أحمد بن محمد بن هانيء المعروف بالأثرم، صنف كتابه في السنن في الفقه على مذهب أحمد بن حنبل ـ وأحمد بن محمد بن الحجاج المروزي صنف أيضاً كتب السنن بشواهد من الحديث ـ وإسحاق إبراهيم المعروف بابن راهويه المروزي، وهو من أفضل أصحاب الإمام أحمد، صنّف أيضاً كتاب السنن في الفقه.

□ كان الخليفة المأمون ذا ثقافة واسعة، وحين اعتقد برأي المعتزلة في مسألة خلق القرآن، طلب من ولاته على الأمصار أن يعزلوا القضاة والعلماء الذين لا يقولون برأيه، والمأمون بنفسه استدعى ستة علماء بينهم أحمد بن حنبل وناقشهم وسجنهم.

لقد رأى أحمد بن حنبل أن المدرسة الإعتزالية للصفات بحجة التنزيه تُحوّل الله سبحانه وتعالى إلى فكرة مجردة لا يمكن تعقّلها، فدافع أحمد بن حنبل عن الذات الإلهية أو المعبود من وجهة نظره، وأصّر على تشخّصه عزّ وجلّ من خلال وجود ذاته وصفاته.

سجن الإمام أحمد وعُذّب، أيام المأمون وأيام المعتصم ووزيره أحمد بن دؤاد. وربما كان لذلك أسباب سياسية غير فكرية، فقد كان العامّة مع أحمد بن حنبل وخشيت السلطة إنْ تخلّت عن الفكرة أن يُحسّ أخصامها بضعفها. وحين وصل المتوكل ابن الواثق الى السلطة أطلق سراح ابن حنبل وكرّمه، وترك للناس حرية الإعتقاد فيما يختارون.

لقد سجل الإمام أحمد بن حنبل وقفة عالمٍ مشرّفة بصموده أيام هذه المحنة الطويلة.

□ الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية هي المذاهب السنية الأربعة التي صمدت لأسباب عديدة. منها ارتباطها بفرقة عقدية كالحنبلية، أو شمولها وقابليتها للإستيعاب كالحنفية، أو موافقتها للظروف في البلاد التي انتشرت فيها كالمالكية في المغرب والأندلس. وقد امتد المذهب الحنبلي إلى الشام أيام الصليبين والتتار لقوة الحنابلة وقدرتهم على جمع الناس من حولهم للمقاومة.

□ حين نشأت الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر كان لها أثر كبير في تجديد المذهب الحنبلي ونشره. وهو اليوم المذهب الرسمي للمملكة العربية السعودية، ولبعض أهل الشام والإمارات العربية والعراق ومصر.

المصادر: تاريخ التشريع الاسلامي، الخضري، القاهرة: ١٩٣٩ ـ القانون والعلاقات الدولية في الاسلام، د. صبحي المحمصاني، بيروت: ١٩٧٢ ـ ابن حنبل، حياته وعصره، وآراؤه وفقهه. محمد أبو زهرة دار الفكر العربي ـ القاهرة.

الأشعري

(٨٧٣ م - ٩٣٥ م)

□ الأشعرية، وهي فرقة كلامية إسلامية، تدين بتأسيسها إلى أبي حسن الأشعري.

□ الأشعري، هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر، كنيته أبو حسن، من أجداده أبو موسى الأشعري أحد الحكمين في معركة صفّين. يعود نسبه إلى أسرة عربية نبيلة من اليمن. ولد في البصرة ودرس فيها ثم تابع دراسته في بغداد. وأعظم من درس عليهم زوج أمّه محمد بن عبد الوهاب الجبائي زعيم المعتزلة في عصره. وقد نبغ الأشعري في علوم المعتزلة وجدلهم، وكان ينوب عن الجبّائي في إلقاء الدروس لحضور بديهته وطلاقة لسانه. واستمر في ذلك حتى سن الأربعين.

□ احتجب أبو حسن الأشعري خمسة عشر يوماً قضاها في التفكير ثم خرج من عزلته وتوجه إلى جامع البصرة، وكان يوم جمعة، واعتلى منبره وقال: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وإن الله لا تراه الأبصار، وإن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم، لأني نظرت فتكافأت عندي الآراء ولم يرجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق، فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتابي هذا» ودفع إليهم «كتاب اللمع».

□ حلل المؤرخون موقف الأشعري المفاجىء وأرجعوه إلى سؤاله لاستاذه الجبائي عن حال الأخوة الثلاثة، وتعقيب الجبائي على اعتراضات الأشعري بأنه مجنون، وأرجعه البعض الآخر إلى رؤيا حصلت للأشعري ظهر له فيها الرسول ﷺ ثلاث مرات يأمره أن ينبذ الكلام... وعلل بعضهم موقفه بعوامل كثيرة تجمعت في ذهنه دفعته إلى الشك، فدقق ودرس وعجز عن الإقتناع بصواب المعتزلة، فتأكد أن العقل أضعف من أن يوصل إلى الحقيقة، وأن الحقائق الإلهية

تخضع للإيمان، فأعلن موقفه محارباً المعتزلة.

□ بعد أن مرّ المعتزلة بفترة ازدهار أيام المأمون، تضاءل دورهم تدريجاً، فجاء المتوكّل وجابههم بحذر، لكنه نهى عن الجدل في القرآن، ثم ما لبث أن استقدم الفقهاء واجرى عليهم الأرزاق، وطلب منهم تعليم الناس بما ينافي تعاليم المعتزلة. وحين جاهر بغضبه منهم كان جدلهم قد تفاقم فتقاسموا وتنابذوا، فأمر بسجن أبي دؤاد زعيمهم، وقرّب الإمام ابن حنبل منه.

□ ولما ظهر نظام الملك، الوزير السلجوقي في أواسط القرن الحادي عشر، عزّز دور الأشعرية، وأنشأ لها مدرسة خاصة بها هي المدرسة النظامية في بغداد، كما أسس لها فروعاً في نيسابور وبلخ وأصفهان وهراة ومرو والموصل والبصرة، وصار مذهب الأشعري يُدرّس في مدارس السنة وسُميت الأشعرية بالسنة المتفلسفة.

□ بقي الأشعري يدافع عن السنة ضد خصومه الكثر إلى أن توفي في بغداد ودفن فيها.

□ ألّف أبو حسن الأشعري العديد من الكتب مناهضاً المعتزلة ومفنداً آراءهم، وقيل أنه وضع تسعة وتسعين مؤلفاً دينياً، أشهرها:

ـ الموجز، لخص فيه «كتاب الفصول» الذي قيل أنه في أثنى عشر مجلداً، ولم يصلنا أي منهما أمّا ما وصلنا فهو:

ـ كتاب اللمع في الرد على أهل البدع والزيغ.

ـ كتاب إيضاح البرهان.

ـ كتاب التبيين على أصول الدين.

ـ كتاب تفسير القرآن.

ـ مقالات الإسلاميين.

ـ رسالة الابانة في أصول الديانة.

□ أهم مبادئه:

□ الله تعالى واحد لا شريك له، قديم لا أول له. وأثبت هذا الوجود بالآيات القرآنية وبالأدلّة المنطقية.

□ الله تعالى يعلم الواجب والجائز والمستحيل، محيط بكل شيء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

□ القرآن الكريم من حيث هو كلام الله تعالى بالحقيقة هو قديم أزلي، ومن حيث هو ألفاظ تُنقل وتسمع هو مُحدث ومخلوق.

□ أفعال العباد كلها مخلوقة والله تعالى هو خالقها، والعبد عاجز عن خلق أعماله، إلّا أن الإنسان قدرة على الأفعال الارادية فقط، للإنسان كاسب لهذه الأفعال، ينال الثواب

والعقاب عليها.

□ التمسّك بحرفية الشريعة في كل ما يتعلّق بصفات الخالق، وعلى المؤمن المسلم عدم السؤال عن معانيها.

□ الإعتقاد بأن الإيمان هو التصديق بالقلب، أما القول باللسان والعمل بالفرائض فهما من فروعه. والشفاعة وارادة فالنبي الكريم يشفع لأمته.

□ الرؤية السعيدة أمر جائز وواقع، وقد بيّن ذلك بآيات كريمة وأدلة عقلية.

□ السببية الحقيقة لكل ما يحدث ليس النظام المقرّر والنواميس الطبيعية بل هو الله تعالى.

□ قال أبو بكر الصيرفي: «كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم» وقال ابن عساكر: «ان الأشعري كان إماماً من أيمة أصحاب الحديث، ومذهبه هو مذهب أهل الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين على الملّة سيفاً مسلولاً، ومَن طعن فيه أو لعنه أو سبّه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة».

□ ونظراً لعمق تأثير الأشعري في آرائه ومواقفه، تجاذبه الشافعيون والمالكيون والحنابلة، ساعدهم في ذلك أن أبا الحسن أخذ من كل الفرق وتخيّر ما ظنه حسناً موافقاً للدين، لكن متطرّفي المعتزلة حاربوه، وبقي الجدل قائماً بعد وفاته أكثر من مئتي سنة.

□ أهم تلاميذه: الباقلاني ـ الجرجاني ـ القشيري ـ الجويني (إمام الحرمين) الغزالي.

□ لقد عزّز الأشعري روح الإيمان وأثار الشك في مقدرة العقل على حلّ كل القضايا، وأرسى السنّة على مبادىء عقلية. والأشعرية هي السنة نفسها خلّصها من رجال الفرق والبدع وجعل لها من التقليد والعقل «جناحين تطير بهما فتخلق وتثبت بهما، وهكذا وثب وراءه جيش لجب من المفكرين السنيين تلاميذه ينشرون مذهبه، وتعليلاته في الشرق والغرب».

المصادر: الملل والنحل للشهرستاني، القاهرة: ١٢٦١ هـ ـ الأشعري لحمودة غرابة، القاهرة. ١٩٥٣ تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية، عبده الشمالي، بيروت: ١٩٦٥ ـ أعلام الفلسفة العربية، د. يازجي، د. كرم، بيروت: ١٩٦٨.

البخاري

(٨١٠ م - ٨٧٠ م)

□ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، كنيته أبو عبدالله، ولد في بخارى وإليها نسب. درس اللغة والحديث والفقه، ونبغ فيها باكراً، ثم رحل إلى الحجاز فأدى فريضة الحج وأقام في مكة والمدينة ولما يبلغ السادسة عشرة بعد، ليسمع الحديث من أئمته. ثم سافر إلى مصر وغيرها، وعاد إلى بخارى.

□ روى البخاري عن الضحّاك بن مخلد بن أبي عاصم النبيل، ومكّي بن إبراهيم الحنظلي، وعبيد الله بن موسى العبسي، وعبد القدوس بن الحجاج ومحمد بن عبدالله الأنصاري.

□ كان البخاري عالماً في التاريخ والحديث واللغة والفقة والرجال، أخذ عنه كثيرون، منهم: الترمذي، ومسلم، والنسائي، ومحمد بن أحمد الدولابي، ومنصور بن محمد البزودي.

□ للبخاري مؤلفات عديدة، منها كتاب الكُنى، وكتاب الأدب المفرد، وكتاب الوُحْدان، وكتاب الضعفاء، والتواريخ الثلاثة الكبير والأوسط والأصغر.

□ وأهم كتبه: «الجامع الصحيح» وهو «أصحّ الكتب بعد القرآن المجيد، سمعه من أكثر من سبعين ألفاً، وظل يشتغل في جمعه ست عشرة سنة، وللحفاظ تعليقات على بعض أحاديثه، فقد انتقدوا منها (١١٠) خرّج منها مسلم (٣٢) حديثاً، وانفرد هو منها بثمانٍ وسبعين (٧٨) ويرى ابن حجر العسقلاني: ان هذه الأحاديث التي أخذت عليه ليست عللها كلها فادحة، بل أكثرها الجوابُ عنه محتمل، واليسير منه في الجواب عنه تعّسف».

□ فالإمام البخاري من الحفظة الكبار الذين لا يدانيهم أحد، كتب عن أكثر من ألف شيخ، وحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف غير صحيح.

ويروى عن تمرّسة بالروايات والأسانيد هذا الخبر الذي نقلته كتب التاريخ: «اجتمعوا ـ أي علماء بغداد ـ حين قدم عليهم البخاري ـ

وعمدوا الى مئة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا لإسناد آخر، وإسناد هذا لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، إلى كل رجل عشرة، وأمروهم إذا حضروا المجلس يلقون ذلك على البخاري. وأخذوا الوعد للمجلس، فحضر المجلس أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله. انتدب إليه رجل من العشرة، فسأله عن حديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه. فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته. والبخاري يقول له: لا أعرفه. فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهم الرجل، ومن كان فهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم. ثم انتدب إليه رجل آخر من العشرة، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة. فقال البخاري: لا أعرفه. فلم يزل يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم انتدب إليه الثالث والرابع، إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة. والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه. فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا، إلتفت إلى الأول منهم، فقال: أمّا حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا، والثالث والرابع، على الولاء، حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى اسناده، وكل اسناد إلى متنه. وفعل بالآخرين مثل ذلك، وردّ متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها، وأسانيدها إلى متونها، فأقرّ له الناس بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل».

□ قال فيه الترمذي: لم أر في العلل والرجال أعلم من البخاري. وقال ابن خزيمة: «ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله من محمد بن إسماعيل البخاري». وجاءه مسلم بن الحجاج وقبّله بين عينيه وقال: «دعني أقبّل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدّثين، وطبيب الحديث في علله».

□ ولصحيح البخاري شروح كثيرة ذكر منها في «كشف الظنون» أثنان وثمانون شرحاً، أفضلها شرح ابن حجر العسقلاني المسمى «فتح الباري»، وشرح القسطلاني المسمى «إرشاد الساري»، وشرح العيني المسمى «عمدة القاري».

□ رتّب البخاري صحيحه على ترتيب علم الفقه، ومنه:

[حدثنا عبدالله بن محمد قال حدثنا أبو روح الحرمي ابن عمارة قال حدثنا شعبة عن

واقد ابن محمد قال سمعت أبي يحّدث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»... (قوله أمرت) أي أمرني الله، لأنه لا آمر لرسول الله ﷺ إلا الله، وقياسه في الصحابي إذا قال: أمرت، فالمعنى أمرني رسول الله ﷺ، ولا يحتمل أي يريد أمرني صحابي آخر، لأنهم من حيث أنهم مجتهدون لا يحتجون بأمر مجتهد آخر... و(قوله أن أقاتل) أي بأن أقاتل وحذف الجار من أن كثير (قوله حتى يشهدوا) جعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر فمقتضاه أن من شهد وأقام وآتى عصم دمه، ولو جحد باقي الأحكام، والجواب أن الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به، مع أن نص الحديث: وهو قوله إلا بحق الإسلام، يدخل فيه جميع ذلك، فإن قيل فلم لم يكتفِ به ونص على الصلاة والزكاة، فالجواب أن ذلك لعظمهما والإهتمام بأمرهما .... أمّا العبادات البدنية والمالية (قوله ويقيموا الصلاة) أي يداوموا على الاتيان بها بشروطها متى قامت السوق إذا نفقت وقامت الحرب إذا اشتدّ القتال أو المراد بالقيام الاداء تعبيراً عن الكل بالجزء... وقال الشيخ محيي الدين النووي في هذا الحديث أن من ترك الصلاة عمداً يقتل ثم ذكر اختلاف المذاهب في ذلك. وسئل الكرماني هنا عن حكم تارك الزكاة وأجاب بأن حكمهما واحد لإشتراكهما في الغاية وكأنه أراد في المقاتلة، أما في القتل فلا والفرق أن الممتنع عن أيتاء الزكاة يمكن أن تؤخذ منه قهراً بخلاف الصلاة فإن انتهى إلى نصب القتال ليمنع الزكاة قوتل، وبهذه الصورة قاتل الصدّيق مانعي الزكاة ولم ينقل أنه قتل أحداً منهم صبراً، وعلى هذا خفي الإستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظراً للفرق بين صيغة أقاتل واقتل والله أعلم...].

المصادر: صحيح البخاري، (فتح الباري للعسقلاني) - تاريخ بغداد ٢/ ٤ - ٣٦ - تذكرة الحفاظ ٢/ ١٢٢ الوفيات ١/ ٤٥٥ - تهذيب التهذيب ٩/ ٤٧.

الجويني

(١٠٢٨ م ـ ١٠٨٥ م)

□ عبد الملك بن عبدالله بن يوسف، كنيته أبو المعالي، ولقبه إمام الحرمين، ولد في جوين أو نيسابور ـ في خراسان ـ من والد عربي يعود بنسبه إلى قبيلة طيء المشهورة، وكان هذا الوالد وأخوه من العلماء المحدّثين والصوفيين، درس الجويني على والده علومه الأولى، ثم تفقّه على أبي يعقوب الأبيوردي قبل أن يرتحل إلى نيسابور ومرو، حيث اتصل بأبي الطيب الصعلوكي، وبالقفّال المروزي الذي أخذ عنه فقه الشافعي، ثم أقام يدّرس هذا الفقه ويشرحه في مدرسة دينية أسسها والده في نيسابور.

□ انتقل الجويني، من ثم، إلى بغداد، فذاع صيته فيها، ثم رحل إلى االحجاز وأقام في مكة أربع سنوات، يناظر ويفتي وينشر العلم محاولاً إدخال الطمأنينة إلى النفوس إثر القلق الذي سبّبه البويهيّون. ثم عاد إلى نيسابور بعد انتهاء نوبة التعصّب بين السنة والشيعة بإعتلاء «ألب أرسلان» كرسي الحكم فيها. في عمل «ألب أرسلان» على ارجاع شيوخ الأشاعرة إلى ديارهم، بمؤازرة من وزيره «نظام الملك» الذي بنى مدارس في بغداد دوبلخ وهراة وأصبهان والبصرة وغيرها لتدريس المذهب السني، جاعلاً الجويني، إمام الجرمين على رأس مدرسة نيسابور.

□ لقد امتاز الجويني بأصالة تربيته الإسلامية، وبتفتّح عقله باكراً على المعارف، وبتحصيله وترحاله في سبيل العلم، خاصة حين جاور بمكة وجلس يجاهد ويدرس. وهكذا صار إمام الحرمين في نيسابور مقصداً لطلاب العلم، وآلت إليه زعامة الأصحاب، واسندت إليه رياسة الطائفة وأمور الأوقاف وخطابة الجامع المنيعي.

□ انتاج الجويني غزير في العلوم الإسلامية، وهو الذي كرّس حياته للتدريس وشرح المذهب السنّي، لكن أكثرها لم يزل مخطوطاً، اليوم، في مكتبات العالم. ولم يطبع من مؤلفاته إلّا ستة هي: كتاب

الورقات ـ كتاب العقيدة النظامية ـ كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلّة في أصول الإعتقاد ـ والجزء الأول من كتاب الشامل في أصول الدين ـ مناظرة في الإجتهاد في القبلة ـ مناظرة في زواج البكر ـ وقد وردت المناظرتان في كتاب طبقات الشافعية الكبرى.

أهم المواضيع التي دارت عليها مصنّفاته: أصول الفقه ـ أصول الدين ـ الفقه ـ الخلاف والجدل ـ

* في أصول الفقه: للجويني في هذا الموضوع أراء دقيقة، تكشف عن مصادر المعرفة ومناهج البحث، إلى غير ذلك من التفصيلات الدالّة على عقل راجح، عليم بخبايا منطق البحث، وحقيقة النفوس... ولقد بحث في مصادر أصول الفقه: الكلام والعربية والفقه، وفصّل في فروع ذلك. وهو يرى أنه في حالة تعسّر تكوين الحدّ، ينبغي لجوء الباحث إلى منهج أو مسلك التقاسيم الذي يعرف اليوم بمنهج التحليل. وقد جعل الجويني ابحاثه في أصول الفقه مقّدمة للإجتهاد والإفتاء.

* أصول الدين: للإمام الجويني أبحاث في مسائل الكلام، تعرض لإثبات حدوث العالم توصّلاً إلى تبيين حاجة المحدَث أو المخلوق إلى محدِث أو خالق، أو موجد وهو الله تعالى. وللجويني أبحاث في صفاته تعالى، وفي إثبات العلم، وإثبات النبوات، كما تعّرض للسمعيات وتحدّث في الآجال والرزق والأسعار، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثواب والعقاب، وردّ على المعتزلة والخوارج والمرجئة وفي الوعد والوعيد. وهي آراء تتناول مسائل أصول الدين التي اختلف حولها المتكلمون.

* الفقه: بحث الإمام الجويني في المسالك الفقهية على اختلافها من صوم وصلاة ونجاسة وطهارة وبيع وشراء ونكاح وطلاق... وحرص على الردّ على مخالفي المذهب مفنّداً آراءهم، في مناقشات تقوم على أساس الدراية بأصول الجدل، مبرراً حقيقة النص والتفرقة بين العموم والخصوص والأحكام المطلقة والمقيدة، كما حقق بالأخبار وبيّن صحة التواتر ودقق في «رأي الكافة» أو الإجماع.

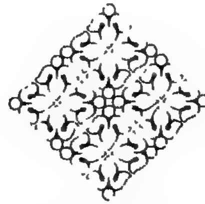
* الخلاف والجدل: للجويني مصنّفان في الخلاف هما: «الدرة المعنية فيما وقع في خلاف ما بين الشافعية والحنفية» لم تزل نسخته في المتحف البريطاني، و«غنية المسترشدين في الخلاف» ذكره ابن خلكان ولم يعثر عليه.

أمّا في الجدل فله مصنفات عديدة، تبحث

في ضرورة معرفة الحد في العلم الذي يخوضه الفرد ويمارسه. والجويني خبير بالمصطلحات الجارية بين أهل زمانه، يثبتها ويشرحها بعد المقارنة، مثلاً: لقد شاع بين علماء الأصول أن «الحد» و«الحقيقة» و«المعنى» ثلاثة ألفاظ لهدف واحد فبحث الجويني فيها مفرقاً بين المفهوم اللغوي والإصطلاحي ممثلاً على كل حالة... وهو يقول انه يرمي من مصنفاته إلى دراسة فكر القلب وتأمله في حال المنظور للتعّرف الى حكمه جمعاً أو فرقاً أو تقسيماً». ويفيض في الحديث عن حقيقة العلم، فيقول: حدّ الفقه: هو العلم بأحكام الشريعة ـ الفهم: هو سرعة معرفة معنى الكلام الفطنة: هي معرفة لطائف الحقائق.

□ واشتغل الإمام الجويني بعلم الكلام بدافع رغبته الأكيدة في إفادة الناس وتهدئة بني قومه. لكنه لم يجد في علم الكلام ما يشفي غليله منه، أما قال قبل أن يموت: «اشهدوا على أني رجعت عن كل مقالة يخالَف منها السلف وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور»!؟ لقد اكتشف ان طريق القلب، أي طريق الصوفية، هو الذي ينتهي بالباحث إلى التحقق بالذات العلية، ونعرف أنه في ذلك العصر لم يتبع التصوّف غير أتباع الكتاب والسنة، فالإمام كان متكلماً في مذهبه، متصوفاً في حياته.

□ ومع اختلاف البعض حول بعض آرائه ومواقفه، فإن مصنّفات إمام الحرمين تبقى رائدة في مواضيعها، وقد تأثر بها الفقهاء والمتكلمون فيما بعد، والغزالي تلميذه، «الذي تأثر به ثم خاض في العلوم كلها، خرج مثله إلى أن التصوّف هو العلم الموصل إلى الحقيقة وأنه لا طائل في الفلسفة والكلام، وتكون النهضة التي نهضها الإمام الغزالي بالعلوم الإسلامية ترجع في أصلها إلى أستاذه الإمام الجويني إمام الحرمين»، أحد كبار أئمة أهل السنة.



المصادر: الجويني، د. فوقية محمود، أعلام العرب. ٢٤ القاهرة.

محمد بن أدريس الشافعي

(٧٦٧ م - ٨١٩ م)

□ محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان الشافعي، كنيته أبو عبدالله، يعود نسبه إلى ابن عبد مناف. وهو مؤسس المذهب الشافعي. ولد في غزّة - بعد أن سكنها أبوه فترة قصيرة ومات فيها - ثم حملته أمه إلى موطنه في مكة فتربّى يتيماً.

عناصر ثلاثة أسهمت في تربيته الأولى: حفظه للقرآن، وفصاحته المتأتية من عيشه مع البدو فترة، ودراسته الإسلامية المأخوذة عن شيخ الحرم مسلم بن خالد، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس.

□ أخذ الشافعي الحديث والفقه وأذن له بالإفتاء، لكنه أراد عملاً يعتاش منه، فرحل إلى اليمن، ولما اتهم بالتشيّع حُمل إلى الخليفة الرشيد في بغداد فبرىء. وفي العراق اطلع على فقه أئمته وناظر بعضهم ثم عاد إلى مكة، حيث اختلط بالعلماء يأخذ عنهم ويأخذون عنه. عاد إلى العراق ثانية حيث أملى كتبه في مذهبه. وبعد زيارة ثانية للعراق سافر إلى مصر حيث كان مذهبه قد انتشر، فجلس إلى علمائها وأملى على تلاميذه هناك كتباً جديدة في مذهبه. توفي ودفن في الفسطاط، بعد أن صار يُعدّ مصرياً.

□ الشافعي هو الإمام الذي نشر مذهبه بنفسه أينما حلّ، وهو الذي أملى كتبه على تلاميذه. أما أساس مذهبه فهو: الإحتجاج بالقرآن أولاً، وبالسنة ثانياً، ثم بالإجماع، فالقياس.

□ دافع الشافعي عن الحديث المتصل برسول الله ﷺ ولم يشترط له عملاً يؤيده كما اشترط مالك ولا شهرة كما اشترط أهل العراق. ونال الشافعي بذلك حظاً كبيراً عند أهل الحديث حتى أطلق عليه البغداديون لقب ناصر السنّة. كما أنه ردّ بشدة ما سمّاه العراقيون الإستحسان وما سمّاه المالكيون الإستصلاح، ولكن عمل بما يقرب من ذلك وهو الإستدلال.

□ للشافعي «رسالة في أدلّة الأحكام» وهي الرسالة الأصولية. وله «كتاب الأم» وهو كتاب فريد يضم المسائل الشرعية وأدلتها في أسلوب بليغ، يعطي فكرة واضحة عن طريقة التشريع والنقد في عصره. وقد ألحق به جملةُ كتب، منها:

ـ كتاب خلاف علي وابن مسعود، وفيه المسائل التي خالف فيها أبو حنيفة إمامي العراق علي وابن مسعود.

ـ كتاب اختلاف مالك والشافعي.

ـ كتاب جماع العلم وهو انتصار للسنة والعمل بها.

ـ كتاب إبطال الأستحسان ردّ فيه على فقهاء العراق من قولهم بالإستحسان.

□ ومن كتب الشافعي: «اختلاف الحديث» وفيه انتصار للسنة ولخبر الواحد على الخصوص، ألحقت به مناظرات قيّمة.

□ وللشافعي كتاب «المسند» وهو ما خرّجه من الأحاديث في كتاب الأم.

□ أمّا كتب اتباع الشافعي، فمنها: المزني لأبي اسحق المروزي ـ التقريب بين المزني والشافعي لإبن سريج ـ البيان في دلائل الأعلام... لأبي بكر محمد بن عبدالله الصيرفي.

□ للشافعي أصحاب ورواة في العراق، منهم:

ـ أبو ثور إبراهيم بن خالد البغدادي، كان ميالاً إلى فقه أهل العراق حتى قدم الشافعي بغداد، فأخذ عنه، وهو من أئمة الشافعية مع أن له شذوذاً فارق فيه الجمهور.

ـ أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي.

ـ الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي وهو من أثبت رواة مذهبه.

□ ومن أصحاب الشافعي الذين رووا عنه في مصر:

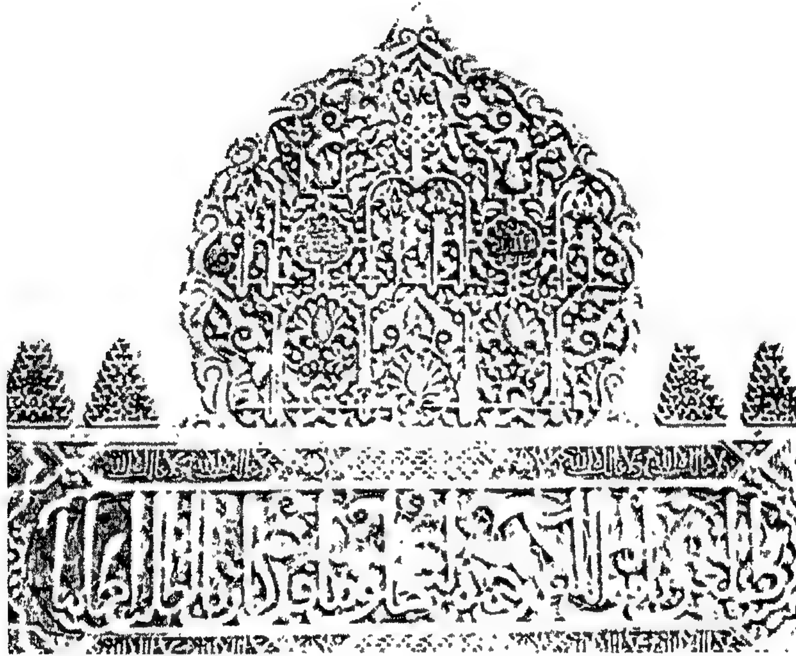
ـ يوسف بن يحيى البويطي المصري، وهو من أكبر أصحابه له كتاب المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي، وكان الإمام الشافعي يحيل اليه مسائل للفتيا واستخلفه على أصحابه بعد موته.

ـ أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني. كان زاهداً وعالماً ومجتهداً قال فيه الشافعي: المزني ناصر مذهبي وهو الذي ألف الكتب التي عليها مدار مذهب الشافعي.

ـ الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي، وكان يقصد من أبعد أطراف البلاد للتفقه عليه وتلقّي كتب الشافعي.

ـ أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الحداد، كان إمام عصره في الفقه واللغة وحسن استخراج الفروع المولدة. له كتاب الباهر في الفقه وكتاب أدب القضاء.

□ ينتشر مذهب الشافعي اليوم في أندونيسيا وبعض أفريقيا وجزيرة العرب وباكستان والشام، وخاصة في مصر حيث جامعة الأزهر عماد هذا المذهب.



المصادر: تاريخ التشريع الإسلامي، الخضري، القاهرة: ١٩٣٩ ـ القانون والعلاقات الدولية في الاسلام، د صبحي المحمصاني، بيروت ١٩٧٢ ـ الرسالة للإمام الشافعي القاهرة: ١٣٥٨ هـ.

الطبري

(٨٣٩ م - ٩٢٣ م)

□ محمد بن جرير بن يزيد، كنيته أبو جعفر، ولد في آمل - طبرستان وإليها نسب درس فيها أولى علومه، ثم تنقّل في مدن فارس يأخذ عن علمائها: فأخذ الحديث عن محمد بن حميد الرازي والمثنى بن إبراهيم الإبلي، وأخذ التاريخ عن الدولابي، والفقه عن أبي مقاتل. ثم رحل إلى بغداد ليسمع عن عالمها أحمد بن حنبل، لكن الموت خطفه وهو في الطريق إليه، فاتجه إلى البصرة وسمع من علمائها: الحرشي والقزاز والصنعاني وابن معاذ وأبي الأشعث، ومنها انتقل إلى واسط ثم إلى الكوفة. ولما لم يَر بُدّاً من الذهاب إلى بغداد، مدينة العلم والفكر، قصدها، ليدرس القراءات على التغلبي، ويتلقّى فقه الشافعي عن الزعفراني والأصطخري. ولأنه لم يرتو من المعرفة بعد، قصد الشام وأقام في بيروت فترة يقرأ على العباس بن الوليد البيروتي برواية الشاميين، ثم رحل إلى مصر، فتابع دراسة الشافعي على المرادي والمزني، وناقش علماءها فلمع نجمه. وما لبث أن حنّ إلى بلاده، فزار طبرستان ثم انتقل إلى بغداد، وبقي فيها منقطعاً للتأليف والتدريس حتى ودّع الحياة.

□ كان الطبري ورعاً، يحسن قراءة القرآن وتجويده، موصوفاًبذلك يقصده الناس ليصلّوا خلفه. وكان زاهداً عازفاً عن الدنيا، ما سمعه أحد يحلف بالله عز وجل، وقد أمضى حياته عفيفاً لم يتزوج، «شغله طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ولم يزل طالباً للعلم، مولعاً به إلى أن مات». وكان أبياً، يرفض تقبّل أجر على عمل تأليفي يقوم به، ولا يقبل الهدية إلاّ إذا استطاع ردّها بمثلها. وكان شجاعاً جريئاً بالحق، رغم أنه رفض تولي القضاء حين عرض عليه.

□ وكان الطبري عالماً، عارفاً بعلوم عصره على اتساعها، متواضعاً في حلقات تدريسه، رؤوفاً بطلاّبه. أخذ عنه أحمد بن كامل بن خلف، عبد العزيز بن محمد الطبري،

النهرواني المعروف بابن طرار، أبو الحسن المنجم المتكلم، الدولابي، أبو القاسم بن العرّار، أبو الحسين بن يونس، وكلهم من الباحثين والفقهاء المجيدين.

□ **من مؤلفاته:**

ـ كتاب ذيل المذيل: في تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عصر الطبري.

ـ اختلاف الفقهاء: في ذكر أقوال الفقهاء في كثير من الأحكام الشرعية.

ـ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام: بسط فيه مذهبه، وفيه كلام في أصول الفقه والكلام والإجماع.

ـ بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام: تناول فيه تسلسل الفقه في المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وخراسان، وكتاب الطهارة، والصلاة.

ـ كتاب آداب القضاة: ذكر فيه ما ينبغي للقاضي أن يعمل به.

ـ كتاب أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة: تناول فيه: الورع، الإخلاص، الرياء. . . .

ـ كتاب القراءات وتنزيل القران: ذكر فيه اختلاف القراء في حروف القرآن.

ـ رسالة المسماة بصريح السنة: ذكر فيها مذهبه.

ـ كتاب فضائل أبي بكر وعمر.

* **تاريخ الأمم والملوك:** وهو قسمان: ما قبل الإسلام، وما بعده.

ذكر في القسم الأول: إبليس، وآدم، والأنبياء، وأرّخ للفرس والروم والعرب واليهود وتكلم عن أهم ملوكهم وأحداثهم. وفي القسم الثاني تناول حياة الرسول ﷺ وغزواته، ثم تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم، وتتبع تاريخ المسلمين في الدولة الأموية والعباسية. وقد اعتمد على الكتب الصادرة قبله في مواد كتابه. إلاّ أن منهجه كان في التعويل على الرواة، فالمؤرخ في عرفه لا يصحّ أن يستند إلى المنطق والإستنتاج إلاّ قليلاً. وقد حرص على السند فيما ذكره معتمداً في ذلك أحياناً على المراسلة. وفي قسمه الأول لم يرتب الأمور على السنين، بينما في قسمه الثاني راعى ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً، عاماً بعد عام. وقد حاكاه في هذه الطريقة، فيما بعد، ابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء، وخالفه ابن خلدون والمسعودي.

* **جامع البيان في تفسير القرآن:**

في مقدّمته عرض لشرح الحديث

الشريف: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، وانتهى في مناقشته إلى أن معناه: «أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب». ثم بحث في لغة القرآن وبيانها وعرض لوجود التأويل، وعقد فصلاً لذكر الأخبار التي رويت في الحضّ على العلم بتفسير القرآن ومَن كان يفسّره من الصحابة.

ثم كان تفسير القرآن الكريم معتمداً على ذكر أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، وعلى آراء النحاة من الكوفيين والبصريين، وعلى وجوه القراءات . . .

تفسير الطبري اعتمد على المأثور عن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آراء الصحابة والتابعين. وقد أضاف الطبري إلى التفسير بالمأثور ما عرف من عصره من نحو ولغة وشعر، فاستشهد به، كما رجع إلى القراءات وتخيّر منها، ورجحّ ما تخيّره، واستعان بكتب الفقه فعرض كثيراً من آراء الفقهاء. كما استعان بكتب التاريخ وما عرض لآراء المتكلمين. وتحرّى جهده أن تكون التفاسير مما يثق به، فلم يدخل في كتابه شيئاً من المشكوك فيه.

قال في تفسيره الآية الكريمة رقم ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ «لا إله إلاّ هو معناه النهي عن أن يعبد شيء غير الله الحي القيوم، لا إله سواه، ولا معبود سواه، يعني لا تعبدوا شيئاً سواه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي صفته ما وصف في هذه الآية. وهذه الآية أبانة من الله تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله عما جاءت به المختلفين [؟] في البينات من بعد الرسل الذين أخبرنا تعالى ذكره أنه فضل بعضهم على بعض واختلفوا فيه، فاقتتلوا به كفراً به من بعض، وإيماناً به من بعض، فالحمدلله الذي هدانا للتصديق به، ووفقنا للإقرار به.

أما قوله الحي فإنه يعني الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له يُحدّ، ولا آخر له يؤمّد إذ كان ما سواه فإنه وإن كان حياً، فلحياته أول محدود وآخر مأمود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها.

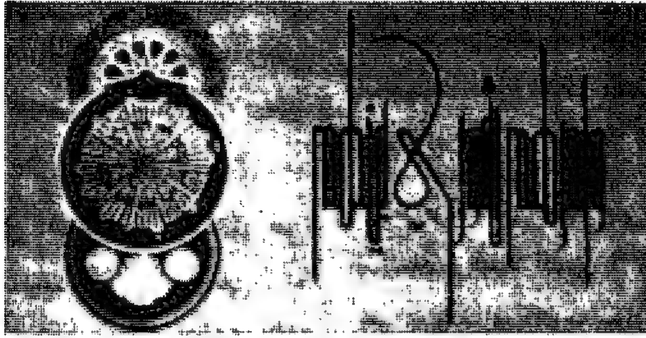
وبما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. منهم: حُدّثت عن عمّار بن الحسن قال: حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه الربيع: قوله الحي حي لا يموت. حدثني المثنى قال: حدثنا إسحق قال: حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع مثله. وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك، فقال بعضهم إنما سمى الله نفسه حياً لصرْفه الأمور مصارفها، وتقديره الأشياء مقاديرها، فهو حي بالتدبير لا

بحياة. وقال آخرون: بل هو حي بحياة له صفة. وقال آخرون: بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به، فقلناه تسليماً لأمره.

وأما قوله القيوم فإنه الفيعول من القيام. ومعنى قوله القيوم القائم برزق ما خلق، وحفظه كما قال أمية:

لم تخلق السماء والنجوم
والشمس معها قمر يقوم
قدره المهيمن القيوم
والحشر والجنة والنعيم
إلا لأمر شأنه عظيم

وبنحو الذي قلناه في ذلك قال أهل التأويل...



آيات قرآنية

المصادر: الطبري، د. أحمد محمد الحوفي، أعلام العرب ١٣، القاهرة - جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق، ١٩٢٣ - تاريخ التشريع، الإسلامي، الخضري، القاهرة ١٩٣٩.

الغزالي

(١٠٥٨ م - ١١١١ م)

□ الغزالي هو محمد بن محمد بن أحمد، كنيته أبو حامد، ولقبه حجّة الإسلام. ولد في قرية غزالة التابعة لمدينة طوس - في خراسان - فأصله فارسي لكنه عربي النشأة شافعي المذهب. كان أبوه يعمل بغزل الصوف ويخدم الفقهاء، فرغب أن يفقّه ابنه محمداً وأخاه أحمد. وقبيل وفاته أوصى بهما إلى صوفي، فتعهدهما حتى نضبت ثروة أبيهما، فانتقل محمد بعد أن كان قد درس الفقه والأدب إلى جرجان مدينة الفقهاء والمحدثين، فتتلمذ لعلمائها ثم عاد إلى طوس يحمل في «مخلاة مطيّته» كتباً نسخها ولم يدرسها، وهي «تعليقة الغزالي»، فأكب عليها ثلاث سنوات يدرسها.

ثم انتقل إلى نيسابور والتحق بإمام الحرمين ضياء الدين الجويني مدرس الفقه والمنطق في جامعتها النظامية، وحين ظهر نبوغه، عهد إليه بإلقاء الدروس، ثم اتصل بالوزير نظام الملك الطوسي، واختلف إلى بلاطه يناظر ويدرّس، كما ألقى دروساً في جامعة بغداد النظامية، فعظم مركزه، وذاعت شهرته. ثم ترك التدريس وطوّف في البلاد الإسلامية، وعاد إلى طوس وانقطع إلى العبادة حتى توفي، وصار قبره مزاراً. ويمكننا جعل حياته ثلاثة أطوار:

* التقليد: لقد تأثر الغزالي بأبيه وبمدرّسيه، وبالجويني - استاذ الأشعري، وكان يجمع الكتب ويحفظها، فرسخ في الدين واستسلم لأوامره ونواهيه دون عمق نظر، وقد درّس الفقه والحديث وبرع فيهما. ونال المراكز الرفيعة، وصار يقصده طلابه وشيوخه من أقاصي البلاد الإسلامية.

* الشك: وازداد اطلاع الغزالي على كتب الفلاسفة، فعاد ينظر فيها بعمق، فاغتذى عقله واثرت معرفته، وحين توفي استاذه الجويني أحسّ نفسه ضائعاً وحيداً، وكان يملك من الذكاء والطموح ما يسّر له الإتصال بنظام الملك. ولما دعاه إلى التدريس في

جامعة بغداد تفكر في نيته التدريس، «فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحرّكها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف». ولما أحس بعجزه عن متابعة حياته العادية، أوكل أمر التدريس إلى أخيه وترك بغداد. أي فارق الجاه والمنصب، وطلب الخلوة والعزلة في دمشق معتكفاً في مسجدها.

* التصوّف: ترك الغزالي دمشق بعد عامين إلى القدس، وكان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه، ثم قصد مكة وبعدها عاد إلى دمشق واعتكف في المنارة الغربية من الجامع الأموي يعظ ويُفتي، ويجاهد متقشفاً، ثم بدأ بوضع كتابه «إحياء علوم الدين»، وبعد تردّد على القدس والحجاز عاد إلى بغداد ليتمّ مؤلفه السابق. لكن فخر الملك ابن الوزير نظام الملك حمله بأمر من السلطان على التدريس في جامعة نيسابور، ولم يُمض الغزالي فيها أكثر من سنتين، حتى غادرها نهائياً إلى طوس، وهناك أنشأ «زاوية» صوفية وانقطع للعبادة وتدريس الفقه حتى توفي.

□ كان الغزالي مخلصاً في تفكيره، صادقاً مع نفسه. فحين رضي ترك الجاه، اكتفى بالقليل وتقشف عن إرادة، فأحدث أثراً عظيماً في عصره. وهو فيلسوف نسيج وحده: واسع المعرفة أدرك بنفسه هذه الهبة فكادت تُبلغه العجب والمباهاة. أسلوبه في التأليف واضح وقوي، تتدفّق روحه في معانيه فتُمتعك قراءته. أسلوبه مخالف لأساليب الفلاسفة، فلا تعقيد ولا إبهام، جيد السبك والتنميق، يكتب في كل الأوقات حتى في أصعبها فتنثال عليه المعاني دون صعوبة.

□ بدأ الغزالي بالتأليف مبكراً، وهو طالب على استاذه الجويني، وهو داوم على التأليف حتى في سنوات عزلته. وقد كان غزير المادة، أربت كتبه على المئتين. وقد وصلنا منها عدد كبير، وإن لم يطبع أكثره.

أهم مؤلفاته:

* مقاصد الفلاسفة: ألفّه قبل سنة ١٠٩٥، وهو يدرّس في جامعة بغداد النظامية. وفيه يبسط آراء الفلاسفة ويفنّدها، عارضاً للفارابي وابن سينا وغيرهما، موطئاً بكتابه هذا لـ «تهافت الفلاسفة».

* تهافت الفلاسفة: وضعه في السنة ١٠٩٥ تقريباً، مفنّداً فيه آراء الفلاسفة مثبتاً بطلانها، مؤكداً خلال بحثه عجزهم حتى فيما كان يراه هو صحيحاً، مظهراً قصورهم عن إثبات الحقائق نفسها بقوة البرهان وقال متّهماً الفلاسفة: «حادوا عن الطريق القويم،

ورفضوا طوائف الإسلام وشعائر الدين، متأثرين بغيرهم ممن لم ينشأ على الدين الإسلامي». وقد حدّد مسار انتقاده لهم بالخطوات التالية: هدم تعاليم أرسطو ـ تعيين مواطن الخلاف في تعاليم الفلاسفة ـ والرد على كل من خالف الدين القويم من الفرق الإسلامية ـ وإظهار حيل الفلاسفة، فهم يتسترون وراء الرياضيات ليوهموا ضعفاء العقول ويخفوا عجزهم. وذلك في أسلوب جدلي منطقي يستند إلى الدين أحياناً وإلى الفلسفة أحياناً أخرى.

* أيها الولد: رسالة خُلقية، اجتماعية، دينية، أرسلها إلى تلميذ قديم له سأله عن أفضل السبل إلى النجاة من الغرق بعد أن «حصّل دقائق العلوم واستكمل فضائل النفس». فدار جواب الغزالي على أن «العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لا يكون»، ثم أكثر من النصائح المستمدّة من الدين والسنة. وهو بهذه النصائح إنما يحارب فكرة الفلاسفة القائلين بأن الإنسان الناجي هو المكتفي بالإطلاع على العلوم دون العمل.

ومن استشهاداته أقوال الرسول ﷺ: «أدخلوا يا عباد الجنة واقتسموها بأعمالكم». ويشير على سائله أن يقول بأربعة شروط ليسلك طريق الحق: اعتقادٌ صحيحٌ لا بدعة فيه، توبة نصوح لا يُرجع عنها، استرضاءُ الخصوم حتى لا يبقى عليه لأحد حق، وتحصيلُ علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله. ويجعل قانون الحياة مضمون هذا الحديث النبوي: «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها واعمل للنار بقدر صبرك عليها».

* إحياء علوم الدين: أمضى الغزالي في تأليفه عشر سنوات، وجعله في أربع مجلدات سماها أربعة أرباع.

ـ العبادات: فيبحث في «خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه».

ـ العادات: يبحث في «أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغني عنه متدين». وفيه ذِكْر لضرورة السماع والوجْد، بدون الشعوذات المرافقة، ويدعوا إلى تبادل الفوائد الدينية والدنيوية تبادلاً مبيناً على العدل والائتلاف، ويحمل على متطرّفي المتصوفة. ثم يبحث في الصداقة وشروطها. فالصديق الصالح كما قال رسول الله ﷺ: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل أحداهما الأخرى».

ـ المهلكات: ذكر فيه الغزالي: «كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه». وبعد أن يشرح معاني النفس والروح والقلب والعقل، يجعل المعارف قسمين: قسم مكتسب وقسم فطري، ثم يبحث في طرق الصوفية لإستكشاف الحق، ويقرّ منها ما يخلو من الشعوذات، ثم يدرس الأهواء والميول ودرجاتها ويجعل شهوة البطن مصدراً لكل عيب.

ـ المنجيات: وفيه «أذكر كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرّب العبد من ربّ العالمين... مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل». ومن أبحاثه في هذا الربع: التوبة ـ الصبر ـ الشكر ـ الخوف ـ الرجاء ـ الفقر ـ الزهد ـ التوحيد ـ التوكل... مقرّراً أن الحياة الصوفية الصحيحة هي الطريق الآمنة. ويروي آيات تثبت أن الله يأمر بالتفكير ويثني على المفكرين، مستنداً إلى أحاديث شريفة. والكتاب موجّه إلى المؤمنين، من مؤمن مسلم يشرح لهم كي لا يضلّوا، ويبني آراءه في الكتاب على الوحي والسنّة، خاصة على عاطفة التقوى.

* المنقذ من الضلال: كتاب «اعترافات» كتبه في أواخر حياته، ذاكراً فيه أطوار حياته في هدف الوصول إلى الحقيقة. وفي ذكره لسبب الكتاب يقول أنه جواب عن سؤال: «سألتني... أن أحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق وما استجرأت عليه من الإرتفاع عن حضيض التقليد، وما استفدته من علم الكلام وما أحتويته من طرق أهل التعليم، وما ازدريته من طرق التفلسف ما ارتضيته من طريقة التصوّف...». فبحث في الباطنية والظاهريّة والعلم اليقيني ومقياسه، ووصل إلى أن العقليات لا يقين فيها لأنها نسبية متوقفة على حالة الإنسان، ثم وصف حالة شكه وانتقاله إلى الصحة والإعتدال بعدها، بنور قذفَهُ الله تعالى في الصدر، واستطرد ليرى طلّاب الحقيقة أربعة: المتكلمون والباطنيون والفلاسفة والصوفيون ـ ثم ذكر كيف دحض آراءهم وردّها، وفصل انكاره لعلوم الفلاسفة والدهريين والطبيعيين والإلهيين والرياضيين والمنطقيين. وذكر أخيراً اسلوب التعلّم الذي اختطّه، وهو طريق الصوفية.

والكتاب منظم واضح اللغة، يستدرج قارئه إلى التصوّف بتعليل وعاطفة معاً، عارضاً لصور من فلسفة الغزالي ومواقفه، ذاكراً ومؤكداً أن منهجه إلى اليقين مرّ بمرحلة الشك

في تفتيشه عن الحقيقة.

□ قال بعضهم في الغزالي أنه فيلسوف جبار متمّرد قوّض أركان الفلسفة التوفيقية، طريقه الشك الموصل إلى اليقين. وشكه منهجي، فهو فيلسوف في إنكاره الفلسفة أكثر منه في اعتناقها أو التأليف فيها. وهو القائل ان التقليد لا يقود إلى الحقيقة، بل الحدس هو مفتاح أكثر المعارف، والغزالي لم يكن بذلك عدواً للعقل، وإن استوحى الدين في أدلته، فقد سلّم بصحّة الأقيسة المنطقية، أو قال: «إن العقل أولى من العين بأن يُسمّى نوراً لرفعة قدره عن نقائصها السبع». لقد وضع للدين حداً كما وضع للعقل حداً. وله في السببية نظرية خاصة قادته إلى أن السبب الوحيد الحقيقي هو الله تعالى قدرته مطلقة ويخضع له قانون المسبّبات. وهو في أكثر آرائه مبتكر تأثر به الفلاسفة بعده في الشرق وفي الغرب.



آنية مصنوعة من الخزف

المصادر: المنقذ من الضلال للغزالي، القاهرة: ١٩٤٧ ـ نظرات في فلسفة العرب، جبور عبد النور، بيروت: ١٩٤٥ ـ أعلام الفلسفة العربية، د. يازجي، د. كرم، بيروت: ١٩٦٨.

الفارابي

(٨٧٠ م - ٩٥١ م)

□ الفارابي، هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، كنيته أبو نصر. ولد في «فاراب» - خراسان التركية - ونسبه مضطرب بين التركي والفارسي. لم تصلنا تفاصيل عن نشأته، لكننا نعرف أنه بعد أن تلقن الفارسية والتركية قصد بغداد حيث درس اللغة العربية. والتحق بحلقة أبي بشر متى بن يونس الذي كان يشرح منطق أرسطو، فكتب الشروح ودرسها. ثم أخذ المنطق أيضاً عن إبراهيم المروزي، والحكيم النصراني. كما أنه تعمق في الفلسفة والطب والرياضيّات والكيمياء والموسيقى.

غادر بغداد إلى دمشق هرباً من الفتن والحروب وعمل حارساً في بستان، متفرّغاً للقراءة والتأمل. ثم قصد حلب، ويقال أنه نال خطوة لدى الأمير الحمداني، لكنه كان يرفض أنعامه، وبقي متقشفاً، ثم رافقه إلى دمشق حيث توفي ودفن في ظاهر دمشق.

□ كان ذكياً واسع الثقافة، أتقن لغات عديدة - قيل سبعون لغة - ودرّس وألّف في الطب وفي الموسيقى - قيل أنه اخترع آلة القانون - وكتابه الذي درس فيه طبيعة الأصوات وتفرّع الأنغام، شرحه المستشرق الألماني كوز جرتن وجعله في صدارة الكتب الموسيقية العربية كما عدّ مؤلفه بين أعلام الموسيقى العالميين. وقد بحث الفارابي أيضاً في الفلك والتنجيم والهندسة والسياسة والطبيعة وما بعد الطبيعة، إلاّ أنّ كتبه الفلسفية هي الأكثر والأشهر، وإن كان قسم كبير منها شروحاًوتعليقات على مؤلفات أرسطو.

وكان الفارابي زاهداً متقشفاً، محباً للإنفراد، شديد التأمّل، خاصة حين كان في دمشق.

□ أحصى بروكلمان للفارابي مئة وسبعة وثمانين كتاباً، وصلنا القليل منها. ودراساته الفلسفية تعده المؤسس الأول للفلسفة الاسلامية، بل في طليعة المفكرين والفلاسفة، وقد أُسمي بالمعلم الثاني، بعد

أرسطو المعلم الأول.

* تتلمذ الفارابي على كتب أرسطو، وأعجب بها، فشرحها وعلّق عليها، وقد شكّلت هذه الشروحات حصّة كبيرة من مؤلفاته. أهمها:

البرهان - العبارة - الخطابة - الجدل - الأخلاق - السماع الطبيعي - الآثار العلوية - المقولات - السماء والعالم - المغالطة - القياس.

وقد وصلت آراء للفارابي غير خالصة وذلك عبر الأفلاطونية المحدثة، سوى المنطق. وإعجاب الفارابي، كما يظهر في شروحاته، لم يرتكز على المنطق فقط بل على الجانب السياسي والروحاني أيضاً.

* فضلاً عن تأثّره بأرسطو، كان للدين الإسلامي تأثيره في فلسفة الفارابي، فأخرج لنا مؤلفات تعالج المنطق والطبيعة والهندسة والطب... وفي الفلسفة أسس بُنيان الفكر الإسلامي الشامخ، فما من نظرية أصلية في الفلسفة الإسلامية إلّا وتدين للفارابي بإسهام. وقد استقى منه الفلاسفة الذين أتوا بعده، جمعياً، ناقلين أو شارحين أو مضيفين إلى فلسفته. ومن أهم كتبه المبتكرة: احصاء العلوم - كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة - كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين - المسائل الفلسفية والأجوبة عنها - عيون المسائل - التنبيه على سبيل السعادة - تحصيل السعادة - مقالة في معاني العقل -

ونشير هنا إلى أن الحدود بين مؤلفات الفارابي المبتكرة وشروحاته لمؤلفات أرسطو، لا تظهر بوضوح إلّا للمتخصص، فإذا كانت الفلسفة اليونانية أساس كتاباته فإن صياغته الجديدة لها وإضافاته وإعمال عقله حتى الإبداع في تأمله فيها، لا يعطي صفة الابتكار نهائياً لكل عمل فلسفي ينتمي له.

□ اسلوب الفارابي في مؤلفاته غامض، يعتني بالمعنى فيغوص إلى أعماقه، ولا يهتم بالتكرار والترادف ليوضّح المقصود. ومؤلفاته قليلة الصفحات، فالإيجاز ميزتها، والإضطراب بين فصولها سمة بارزة.

□ يقول الفارابي في تعريفه للفلسفة بانها: «العلم بالموجودات بما هي موجودة»، ويتابع: «لا يوجد شيء من موجودات العالم إلّا وللفلسفة فيه مدخل وعليه غرض ومنه علم بمقدار الطاقة الأنسية». إذن، الفلسفة عنده هي موضوع جميع العلوم، غايتها الحق، ولما كان الحق لا يتعدّد، فكل البحوث تتوجه نحوه.

□ من هنا كانت سياسة الفارابي «التوفيق»، وربما هذه نزعة عند كل فلاسفة

الإسلام، أو هي وليدة العقل السامي، فقد حاول الفارابي التوفيق بين أفلاطون وأرسطو من جهة، والتوفيق بين الحكمة والشريعة، أو بين الدين والفلسفة من جهة أخرى.

* وفّق بين الحكيمين: أفلاطون وأرسطوا واستنتج بعد استعراض فلسفة كل منهما وتفنيدها، أنهما متفقان في الأصول مختلفان في الفروع.

* وفّق بين الحكمة والشريعة، وهذا المنحى لا يوجد له عنده مؤلف خاص بل هو مبثوث في مصنّفاته، وبنى رأيه على أن الشريعة والحكمة ترجعان إلى أصل واحد: فمرّد الشريعة إلى الوحي، والوحي من الله، ومردّ الفلسفة إلى الطبيعة والطبيعة من صنع الله، والنبي والفيلسوف يستمدّان المعرفة من ينبوع العلم الإلهي، فيتلقاه النبي من حامل الوحي، جبريل، ويستمده الفيلسوف، بعد أن يصبح عقله مستفاداً، من العقل الفعّال، وقد وضع الفارابي بعملية التوفيق هذه حجر الأساس للفلسفة الإسلامية كلها وطبعها بطابعه.

□ أهم آراء الفارابي الفلسفية:

* نظرية المعرفة يؤكد فيها أنها مبنية على الحسّ «فمن فقد حسّاً ما فقد علماً ما». و«إدراك الحواس إنما يكون للجزئيات، وعنها تحصل الكليات، والكليات هي التجارب على الحقيقة». والمعرفة لا تحصل عند الأنسان لمجرد مباشرة حسّه للمحسوسات، بل بعد تدخّل قوى نفسية عديدة.

□ المنطق، لم يصلنا من مؤلفات الفارابي المهتمّة به غير كتاب «العبارة» لأرسطو مع فصول متفرّقة في كتب أخرى. وللفارابي ميزة على الفلاسفة الآخرين في أنه فهم منطق أرسطو جيداً. يقول فيه: «انه صناعة تعطي بالجملة القوانين التي من شأنها أن تقوّم العقل وتسدّد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين...». ويقسم المنطق إلى تصوّر وتصديق. فالتصوّر يشتمل على المعاني والحدود، والتصديق يشتمل على البحث في القضايا وأنواعها وأشكالها والبرهان.

* الإلهيات: الفارابي قوي الإيمان، ميّز بين الذات والوجود ليجعل من الله العلّة الأولى التي تمنح الوجود للذات أو تفيض الهوية على الماهية. فالماهية والهوية هما شيء واحد في الله، لا يختلف مدلول أحدهما فيه عن مدلول الآخر، ولكنهما يفترقان في نظام الأشياء، والله وحده هو الذي يجمع بينهما في عملية الخلق. ويقسم الوجود إلى واجب وممكن، يتخلل الفلسفة

الإسلامية كلها، فإذا كان للأشياء أن تخرج إلى حيّز الوجود، فلا بدّ لها أن تتلقى نعمة الوجود من واجب الوجود.

* الفيض: مقولة الفارابي أن وجود هذا العالم، أي الكثرة، إنما خرج من الواحد البسيط عن طريق الفيض: «فمتى وُجد للأول الوجود الذي هو له لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات... على ماهي من الوجود الذي بعضه مُشاهد بالحس وبعضه معلوم بالبرهان. ووجود ما يوجد عنه إنما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر».

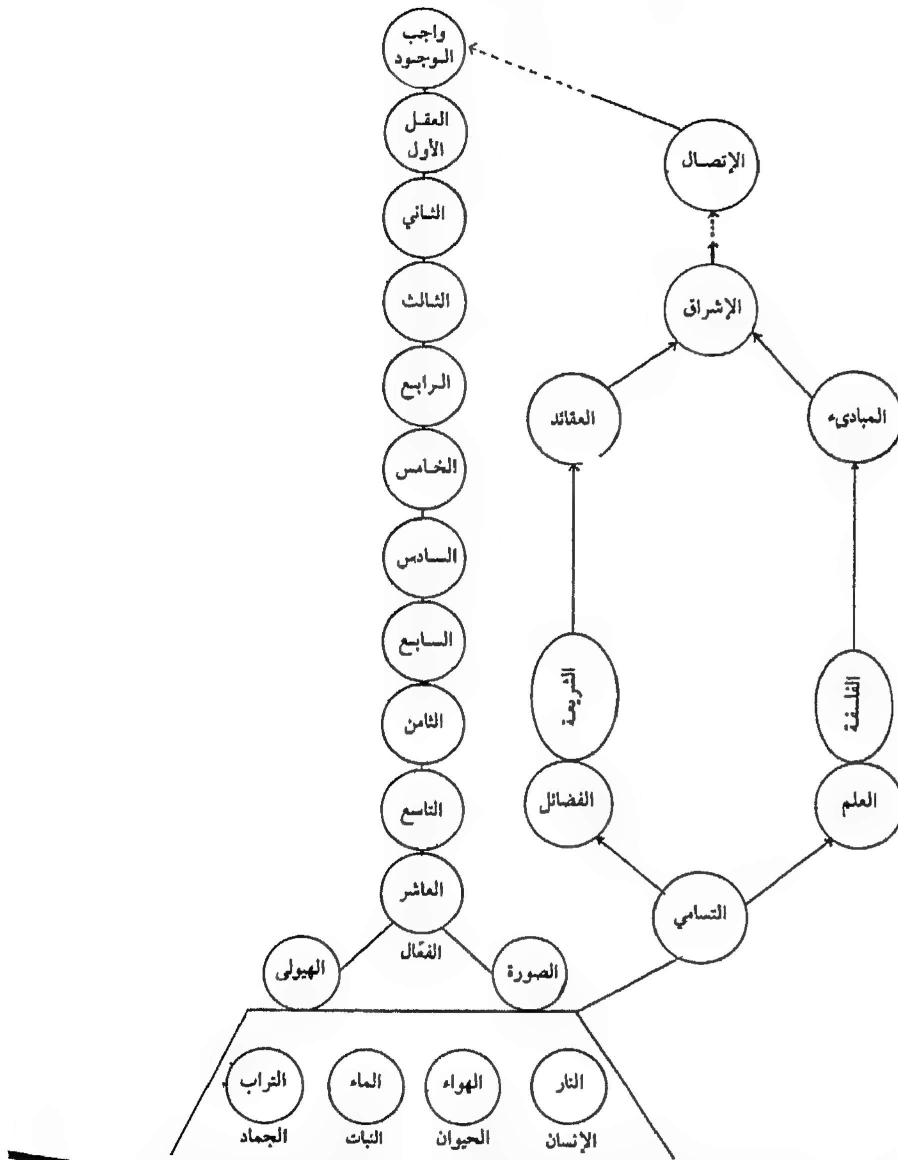
* الطبيعة: وللفارابي فيها نظرية طريفة مبتكرة، حاك فيها مراتب الوجود وتسلسله وعلّل اختلافها تحت فلك القمر، وفيه نفَس أرسطوطاليسي واضح.

□ النفس: هي: «استكمال أول الجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة». هناك النفس النباتية واستكمالها يكون بالإغتذاء والنمو وتوليد المِثل، والنفس الحيوانية واستكمالها بالإحساس والحركة الارادية، والنفس الإنسانية واستكمالها بإدراك المعقولات. وللسماء نفس كما لكل كوكب.

* التصوّف: وهو عنده تصوّف عقلي وتصوّف روحي. التصوّف الروحي قوامه: التقشف والزهد ومجاهدة النفس أما التصوف العقلي فقوامه: التأمل والتفكير والنظر العقلي المجرد، فالعلم وحده هو الوسيلة لجعل العقل الهيولاني عقلاً بالفعل ثم عقلاً مستفاداً.

* السياسة: اعتنى بها الفارابي، وربما دفعه إليها الواقع الإجتماعي السياسي الذي عاشه، فقد رآه يتسلل إليه الفساد، فبحث في المجتمع الفاضل، وكان هذا موضوع القسم الأخير من كتابه «المدينة الفاضلة» «فالإجتماع هو التعاون على الأشياء التي تُنال بها السعادة الحقيقية». والتعاون نوعان: فكري يتدرّج به أهل المدينة إلى تفهم القدرة الإلهية، وعملي، يتعاونون فيه على ممارسة الفضيلة وصنع الخير. والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه معاً. والفرق تعاون الأعضاء في الجسم طبيعي وفي المدينة إرادي. ورئيس المدينة يجب أن يتصف بصفات معينة لأن وظيفته: سياسية وتربوية ودينية ومثالية، وسعادة الأفراد هي بالتشبه به. ومضادات المدينة الفاضلة هي: المدينة الجاهلة (التي لا يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم) ـ والمدينة الفاسقة (آراؤها مثل آراء المدينة الفاضلة ولكن أعمالها مثل أعمال المدينة الجاهلية) ـ المدينة المبدّلة (كانت آراؤها وأفعالها مثل آراء المدينة الفاضلة وأعمالها ثم غيّرت) ـ المدينة الضالة (كانت تقرّ بالسعادة ثم كفرت بها).

نظام الفارابي للكون



من المصادر: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، د. محمد مرحبا، عويدات: ١٩٧٠ - أعلام الفلسفة العربية د. يازجي وكرم، دار المكشوف، بيروت: ١٩٦٨ - المدينة الفاضلة للفارابي، تحقيق د. نادر، بيروت: ١٩٥٩.

مالك بن أنس

(٧١٣ م - ٧٩٥ م)

□ المالكية، وهي المذهب السني الثاني في ظهوره التاريخي، ينسب لمالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر. وأبو عامر من أصحاب رسول الله ﷺ. ولد في المدينة، وأخذ العلم عن علمائها، منهم: عبد الرحمن بن هرمز، ونافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، أمّا شيخه في الفقه فهو ربيعة بن عبد الرحمن.

وقد أجمع الناس على أنه إمام في الحديث موثوق بصدق روايته، ورغم ذلك قال مالك: «ما جلست ـ يقصد لرواية الحديث والإفتاء ـ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك». لم يترك مالك المدينة، وتوفي ودفن فيها.

□ قال الواقدي: «كان مجلس مالك مجلس وقار وحلم وكان رجلاً مهيباً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع صوت، إذا سئل عن شيء فأجابه سائله لم يقل له أين رأيت هذا، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس أحد ممن حضر يدنو منه ولا ينظر في كتابه ولا يستفهمه هيبة وجلالاً».

□ ولمالك في مجالسه دوران، فهو محدّث وهو مفتٍ ومستنبط، وقيل في أفتائه وسعة علمه: «لا يُفتى ومالك بالمدينة». وكان مجلسه يضم شيوخاً أجلّاء وعلماء كباراً يأخذون عنه ويناقشونه المسائل الشرعية.

□ أمّا اعتماد مالك في فتاويه، فكان على القرآن الكريم أولاً، وهو أساس التشريع عنده، كما عند الحنيفية، يلي ذلك سنّة رسول الله ﷺ، وعمدتها كبار المحدّثين من علماء الحجاز، وهو يعطي أهمية كبرى لما جرى عيه العمل في المدينة، لا سيما عمل الأئمة، وهو عند المالكية مصدر من مصادر التشريع، وقد أكّده الإمام مالك في مجادلته مع فقيه مصر الليث بن سعد في مسألة «حجية عمل أهل المدينة». ويعتمد المالكية القياس، إذا لم يكن هناك نص أو سنة.

□ وتحدّث المالكية عن مصدر للتشريع غير القياس هو «المصالح المرسلة» وهي التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نصّ معيّن. ويقصد من ذلك المصلحة التي تعود الى حفظ مقصود شرعي يعلم كونه مقصوداً بالكتاب أو السنة أو الإجماع، إلاّ أنها لا يشهد لها أصل معيّن بالإعتبار، وانما يُعلم كونها مقصودة بمجموع قرائن وأدلة. لذلك تسمى مصلحة مرسلة ولا خلاف في اتباعها إلاّ إذا تصادمت مع مصلحة أخرى، فترجح أحدى المصلحتان بالإستحسان.

□ حجّ أبو جعفر المنصور، والتقى مالكاً، فطلب منه أن يدون كتاباً ينظم فيه أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومسائل الشريعة ليأخذ بها الناس على أنها الأفضل من كل معتمد، وكانت عبارته: «وطّىء للناس كتاباً تتجنّب فيه شدائد ابن مسعود ورُخص ابن عباس لكي أحمل الناس عليه» ورغم أن الإمام مالكاً رفض ذلك كله، معتبراً أن أقواله اجتهادات لا يصحّ حمل الناس عليها، فإنه كان يكتب موطأه وفي ذهنه أنه يبلور طريقة أهل المدينة في التفكير والتصرّف.

□ أعجب الرشيد بموطأ مالك، وأراد جعله والقرآن الكريم دستور الأمة الإسلامية المترامية الأطراف، لكن مالكاً رفض وقال للرشيد: «لا تفعل، فإن أصحاب النبي ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرّقوا في البلدان وكلٌّ مصيب، فلا تضيّق على الناس أمراً وسعه الله عليهم» وهكذا بقي مذهب مالك إلى جانب غيره، وكان أكثر محافظة من المذهب الحنفي، فسمي بمذهب أهل الحديث.

□ روي عن مالك من شيوخه: ربيعة، ويحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، ومن أقرانه: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والأوزاعي، والليث بن سعد، ومن تلاميذه: محمد بن أدريس الشافعي وعبدالله بن المبارك، ومحمد بن الحسن الشيباني.

□ وقصده للأخذ عنه كثير من المصريين والمغاربة وأهل الأندلس، منهم: أبو محمد عبدالله بن وهب، وهو أثبت الناس في مذهب مالك، قيل فيه: ابن وهب اعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار ـ ومنهم: أبو عبدالله عبد الرحمن بن القاسم العتقي، سئل مالك فيه وفي ابن وهب فقال: ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه ـ ومنهم: اشهب بن عبد العزيز القيسي العامري، انتهت إليه الرياسة في مصر ـ ومنهم: أبو عبدالله زياد بن عبد الرحمن القرطبي الملقب بشبطون، وهو أول من أدخل الى الأندلس موطأ مالك ـ ومنهم: أسد بن الفرات وهو مؤلف المدونة ـ ومنهم:

عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون، الذي صنّف مدونة أسد ـ

□ كتب أسد بن الفرات مسائل أجاب عنها مالك، أخذها عن محمد بن الحسن فقيه العراق، وجاء بها إلى القيروان، فكتبها عنه سحنون، وبوّبها ورتّب أكثرها، واحتجّ سحنون لبعض مسائلها بالآثار من روايته. وسحنون فقيه ورع ولي قضاء أفريقيا وكان مثالاً للنزاهة والعدل.

□ وفي المشرق، نبغ كثيرون في فقه مالك دون أن يروه أو يأخذوا عنه مباشرة، منهم: أحمد بن المعذل ـ وأبو اسحٰق اسماعيل بن اسحٰق البغدادي ـ أمّا أهم أصحابه من أهل المدينة فأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، وكان فقيهاً ومفتياً إلى أن مات.

□ انتشر مذهب المالكية في شمالي أفريقيا: ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا، وفي صعيد مصر والسودان والبحرين والكويت ونيجيريا.



المصادر: تاريخ التشريع الإسلامي، الخضري، القاهرة ١٩٣٩ ـ القانون والعلاقات الدولية في الإسلام د. صبحي المحمصاني، بيروت: ١٩٧٢ ـ الموطأ، للامام مالك، دار الافاق الجديدة، بيروت: ١٠٤١ هـ.

مسلم

(٨١٩ م - ٨٧٤ م)

□ مسلم بن الحجاج بن مسلم، كنيته أبو الحسين، يعود نسبه إلى بني قُشَيْر وهي قبيلة عربية معروفة. ولد في نيسابور، ودرس علوم عصره، ومال إلى حفظ الحديث وروايته، فرحل في طلبه: ففي خراسان سمع من يحيى بن يحيى وإسحاق بن راهُوَية، وفي الري سمع من محمد بن مُهرَان ومن أبي غسان، وفي الحجاز سمع من سعيد بن منصور بن أبي مصعب، وفي العراق سمع من أحمد بن حنبل ومن عبدالله بن مسلمة، وفي مصر سمع من عمرو بن سواد ومن حرملة بن يحيى.

□ أجمع العلماء على إمامة مسلم في الحديث وعلى تضلّعه في الرواية، وقد روى عنه كثيرون، منهم: الترمذي، وأبو حاتم الرازي، وأحمد بن سلمة، وموسى بن هرون، ويحيى بن صاعد، ومحمد بن مخلد، والفراء، والقباني، وإبراهيم بن محمد بن سفيان.

□ لمسلم تآليف عديدة منها العلل، وكتاب أوهام المحدّثين، و ليس له إلاّ راوٍ واحد، وكتاب التابعين، وكتاب المخضرمين، المسند الكبير على أسماء الرجال الجامع الكبير على الأبواب.

□ وأهم كتبه «الصحيح»، وصح صحيح البخاري من أصحّ الكتب ب المجيد، وكان مسلم شديد الإعتزا لما بذل من الجهد فيه، فقد صنّفه مئة ألف حديث، وكان من أجل ذل لو أن أهل الحديث يكتبون مئتي سنا فمدارهم على هذا المسند، يعني ص قال ابن الشرقي: سمعت مسلماً ي وضعت شيئاً في كتابي هذا [الم بحجة وما اسقطت منه شيئاً إلاّ بحج

قال أحمد بن سلمة: «كتبت مع تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وه ألف حديث». أما مزاياه:

ـ خلوصه للحديث دون غيره فليست فيه استناجات فقهية أو أصولية أو تفريعات علمية.

ـ صنف مسلم كتابة في بلده بحضور أصوله في حياة كثير من مشايخه، فكان يتحرّى في الألفاظ والسياق.

ـ رسم مسلم خطة بحثه في المقدّمة، وذكر سبب جمعه الصحيح، وأقسام الأخبار والمنهج الحقيقي في تقدير الرواة في الحديث المعنعن، وبهذا جعل مسلم صحيحه عبارة عن منهج وتطبيق له، وهو مستوى جيد من التأليف، وقد فضّله البعض على صحيح البخاري.

وسلك مسلم طريق التيقظ والتحّوط، وقسم الأخبار المسندة عن رسول الله ﷺ إلى ثلاثة أقسام وثلاث طبقات من الناس.

ـ القسم الأول: ما نقله الثقات المتقنون الذين بلغوا أقصى درجات القوة في الرواية كابن عوف وأيوب السختياني.

ـ القسم الثاني: ما يقع في اسناده من ليس موصوفاً بالحفظ والاتقان لكنه صادق متعاطٍ للعلم مستور، أي في الدرجة الوسطى من رجال الحديث، كعوف بن أبي جميلة وأشعث الحمراني مع الحسن وابن سيرين.

ـ القسم الثالث: ما رواه متهمون بالكذب أو الوضع أو الغفلة أو سوء الحفظ، وهذا القسم تركه.

□ اختصر الحافظ المنذري (ت ٦٥٦ هـ) صحيح مسلم، وغيّر في ترتيب كتابه ليجعله أقرب للتناول، كما أضاف بعض العناوين الفرعية، وجعل «الصحيح» في مجلد واحد.
وتحت عنوان حدّ الخمر، في باب: كم يجلد في شرب الخمر، نقرأ:

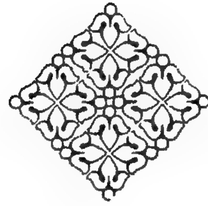
١٠٤٧ ـ عن حُضين بن المنذر أبي ساسان قال: شهدت عثمان بن عفان رضي الله عنه وأتي بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: أنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا علي قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ولّ حارّها من تولّى قارّها [وهو مَثل عربي، أي ولّ شدتها وأوسافها من تولّى هنيئها ولذاتها، والضمير عائد إلى الخلافة أو الولاية، أي كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنيء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها، ومعناه ليتول هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصته أو أقاربه الأدنين] فكأنه وجد عليه، فقال: يا عبدالله ابن جعفر قم فاجلده، فجلده وعلي رضي الله عنه يعدّ، حتى بلغ أربعين، فقال:

أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر رضي الله عنه أربعين، وعمر رضي الله عنه ثمانين، وكل سنة، وهذا أحبّ واليّ.

١٠٤٨ ـ عن علي رضي الله عنه قال: ما كنت أقيم على أحد حداً فيموت فيه فأجد منه في نفسي إلاّ صاحب الخمر لأنه إن مات وَدَيْتُه، لأن النبي ﷺ لم يَسُنْه.

١٠٤٩ ـ عن أبي بردة الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلاّ في حدّ من حدود الله».

□ قال أحمد بن سلمة: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدّمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما. وبعد أن أجهد مسلم نفسه بالبحث وغفل نفسه، مرض بعسر الهضم وتوفي بسبب ذلك.



المصادر: أئمة الحديث النبوي، د. الحسيني هاشم، مجمع البحوث العلمية، ١٩٧٨ ـ مختصر صحيح مسلم، للحافظ المنذري، المكتب الإسلامي، ١٩٧٧ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، حيدر آباد، ١٣٣ هـ.

المعري

(٩٧٣ م - ١٠٥٧ م)

□ أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي، كنيته أبو العلاء المعرّي. ولد في معرّة النعمان، قرب حلب، وكان أبوه ذا علم وثراء ونسب، وكذا أمه، فاعتنيا به، تربية وعلماً. ألّا أن مرض الجدري الذي أصابه وهو في الرابعة من عمره نغّص حياتهم، إذا سرعان ما انطفأ النور في عيني أحمد الأثنتين، فعاش في عيني والديه ليرى بهما الدنيا.

تلقّى علومه الأولى على أبيه وعلى بعض شيوخ المعرّة، ثم ارتحل إلى حلب ليستزيد من علمائها، وكانت حاضرة كبرى للعلم والأدب، وفيها أولع بشعر المتنبي وببعض الكتب الفلسفية والترجمات. فقصد انطاكية لمتابعة الدرس والإطلاع، وفي مكتبتها كان له لقاء مع مؤلفات اليونان وتعاليم المسيحية، ثم توجّه إلى طرابلس قاسداً مكتبتها العامرة، يتابع فيها نهل الثقافة العريضة.

وحين أتاه نعي أبيه، عاد محزوناً إلى المعرّة، وأقام فيها ينظم الشعر حسرة ولوعة، رافضاً التكسّب منه، ولما كانت المعرّة تتعرّض للفتن والحروب بين الروم والحمدانيين والفاطميين، فقد آثر مغادرتها إلى بغداد، عاصمة الفكر.

وفي طريقه إلى بغداد عَبْرَ نهر الفرات غضب ذوو السلطان سفينة خاله التي كانت تقلّه، فتابع سيره في دروب برّية وعرة لمدّة أشهر. وفي بغداد أحسن علماؤها استقباله، إلّا أنه أمضى فترة صعبة حتى استطاع استرداد السفينة، ثم ما لبثت علاقاته مع أولي الأمر في بغداد أن ساءت، إذ كان متعصباً للشاعر المتنبي، فملّ الإقامة، واستعد للرحيل إلى المعرّة. وفي طريقه بلغه نبأ وفاة والدته، فازداد حزنه ويأسه. وحين وصل إلى المعرّة عزل نفسه في داره خمساً وأربعين سنة، حتى وفاته.

□ عاش المعري في عصر غلبت عليه الفتن والتغيّرات السياسية. إذ تقلّصت رقعة الدولة العباسية ونشأت دويلات تنافسها

النفوذ. كما تأثرت التجارة والصناعة والزراعة، فتعرّضت ارزاق الناس للإضطراب والخسارة. في مقابل ذلك اغتنت بلاطات الدويلات برجال افكر والعلم وتنافس الأمراء على استضافتهم والسخاء عليهم.

□ لقد تضافرت عناصر عديدة في حياة المعرّي لترسم صورته ومزاجه. فإذا كان أول ما عانى منه هو فقدانه لبصره ثم نكبته بوفاة أبيه وأمه، فقد تعرّض أيضاً لمجتمع فاسد ودولة مضطربة، وعانى من رحلة بغداد وإساءات علمائها، وصُدم في أحلامه وطموحاته حين خرج من عاصمة الفكر مطروداً، بعد أن كان قد عقد النية على بلوغ العزّ والمجد فيها. تضافرت هذه العناصر مع حساسيته المفرطة، فزادت من أحزانه وأسهمت في تكوين نظرته السوداوية إلى الدنيا، والتي كانت موقفاً فكرياً وحياتياً معاً.

□ ألزم المعرّي نفسه بالعزلة. وسمّى نفسه رهين المحبسين: الدار والعمى، أو رهين المحابس الثلاثة كما قال:

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن النبأ النبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكونِ النفسِ في الجسد الخبيثِ

وفي عزلته، امتنع عن أكل اللحم على أنواعه، مكتفياً بالعدس والزيت والتين والدبس، وأظهر دوام الصوم، مع لبس الثياب الخشنة. ولم يتزوج المعري، بل كان ضابطاً لأخلاقه، قاهراً لشهوات نفسه، فعاش مقلاً من المال، كريماً في الوقت ذاته، يجود بما يملك، عطوفاً على الضعيف إنساناً كان أو حيواناً. هذا الحرمان أو هذه الكآبة التي عمت نفسه وبيته، طوال نصف قرن، تقريباً، ظهرت في فلسفته.

□ فالتشاؤم أخصّ ما يميّز تفكير المعرّي، وقد يكون هذا التشاؤم نتيجة كل ما أصيب به من نكبات، إلاّ أن تفكيره في ذلك أشقاه، فهو يتمتع بثقافة عريضة وذكاء حاد، فكان تفكيره وبالاً عليه، وازداد ألمه، فصوّر مآسي الحياة في عصره، وتعقّب شرورها وأخطارها، ولم ير فيها إلا اليأس والسواد، فذمّها وأهلها، ودعا إلى العزوف عنها، وهو في كل ذلك إنما يرضي عقله المتفكّر في هذا الجانب من الحياة، دون أن يخشى لومة أحد، فنقد الحكام والشعب، وبصّر الأمة بحقوقها، ساخطاً عنيفاً، غاضباً من كل اعوجاج.

□ أمّا ألوان فلسفته القائمة، فقد تأثر فيها بالمشائين حين تفكّر بالإجتماع وأحوال الكون، مسلماً بما يوافق المنطق. وحين تفكر بالأخلاق، كان أفلاطونياً، مطالباً بالسلوك

الفاضل. وفي توجهه الروحي قدّم العمل على القول، فكان الدين عنده المعاملة، من هنا كان مسلماً حيناً، حائراً ومتشككاً حيناً آخر. أما نظرته للحياة فكانت دعوة إلى العزلة والحدّ من النسل، فالحياة عنده ساءت والمجتمع فسد، والخير لا يؤمل في هذه الدنيا لأحد.

□ لأبي العلاء المعري مؤلفات عديدة شعرية ونثرية، ضاع أكثرها، وأهم ما وصلنا منها:

ـ سِقط الزَّنْد: وهو ديوان، نظم قصائده قبل عزلته، تكلّف فيه الغزل والمدح على اسلوب الأقدمين، ولم تبد فيه الفلسفة إلاّ لماماً.

ـ الدرعيات: ديوان جعله في وصف الدروع، نشتم في قصائده نفحات زهد وشك وتشاؤم. وقد حاول في هذا الديوان إظهار براعته اللغوية على أسلوب الأقدمين.

ـ اللزوميات: ديوان كبير، نظم قصائده في عزلته، الزم نفسه فيه ما لا يلزم في القافية والروي، فأكثر من الألفاظ الغريبة والتعقيد المعنوي واللفظي. وقد كان الغموض وقصر الخيال والجفاف عموماً وسائل للوصول إلى المعاني المقصودة ، فآراؤه الفلسفية تضمها قصائد هذا الديوان مبعثرة غير منضبطة.

ـ رسالة الغفران: وهي كتاب نثري، كتبه بعد رجوعه من بغداد، راداً فيه على رسالة ابن القارح، وفي أجوبة المعرّي الغامضة كلام عن الدين والشقاء والغفران، يتخلل ذلك بحوث في الأدب واللغة، والكتاب دليل على ثقافة المعري الواسعة، وخياله المتفوّق، واسلوبه الساخر، وعبثه ببعض التعاليم الدينية، وان كان ظاهر كلامه تطبيقاً لها.

ـ رسالة الملائكة: وهي أجوبة عن أسئلة صرفية ونحويه وجهت إليه.

□ أهم أرائه الفلسفية:

* إيمانه بالله غير متزعزع، فالله تعالى لازم الوجود، حكيم، قدير، مبدع، أتفق بذلك العقل والإيمان عنده:

ـ لا ريب أن الله حق فلْتَعُد
بالّلوم أنفسكم على مُرتابها

ـ أثبتُ لي خالقاً حكيماً
ولست من معشرٍ نُفاةِ

أقرّ بأن لي ربّاً قديراً
ولا ألقي بدائعه بجحدِ

* والعقل عنده هو الهادي إلى الحق والمنقذ من الحيرة والضلال، أكّد ذلك فس شعره وفي «رسالة الغفران».

ـ إذا تفكرت فكراً لا يمازحه
فساد عقل صحيح هان ما صعبا

ـ ولو صفا العقل ألقي الثقل حامله
عنه ولم ترَ في الهيجاء معتركا

* مدح النبي الكريم في مواطن عديدة من شعره:

دعاكم إلى خير الأمور محمد
وليس العوالي في القنا كالسوافل
فصلى عليه ما ذرّ شارق
وما فتَّ مسكاً ذكرُه في المحافل

* ولم يكن أبو العلاء يكذب أو ينافق، إذ كان يصلّي ويقوم بفرائضه كاملة، ولم يذكر أحد إخلاله في أي سنّة من سنن الشريعة. قال:

ـ لِيُشغل بذكر الله عن كل شاغل
فذلك عند اللب خير كلام
ـ ومن يُبل بالدنيا وسوء فعالها
فليس له إلّا التعبد والنسك

مع ان الدين كان عنده المعاملة، وهو فعل الخير، وترك الشرّ، وخلوّ الصدور من الغل والحسد:

ما الخير صوم يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشرّ مطّرحاً
ونفضك الصدر من غل ومن حسد

* وقد حيّرته الحياة الثانية، فاضطرب ولم يطمئن لما سمعه عنها، وعقله لم يهده في هذا الموضوع إلى مقّر أخير، فداور كثيراً في قصائده حول ذلك تسليماً وتشكيكاً.

* الوجود شر، والآلام عديدة، بل أن الشر حقائق ووقائع، لذا يتعجّب من الإنسان الذي يطلب المزيد من الحياة:

تعب كلها الحياة فما أعـ
ـجب الّا من راغب في ازدياد
إن ضرنا من ساعة الموت أضعا
ف سرور في ساعة الميلاد

* رأيه في المادة والفلك، مضطرب، فنفى ثم أثبت:

ـ نُرَدّ إلى الأصول وكل حي
له في الأربع القدُمِ انتسابُ
يا شهبُ أنكِ في السماء قديمة
واشرْتِ للحكماء كل مُشار

* ورأيه في النفس يميل إلى رأي أفلاطون، فهي عنده جوهر مجرد أنزل في جسم يبلى، ولا بدّ من حياة ثانية لتنال عقابها أو ثوابها. والروح دائماً تودّ الإنفلات من سجنها الترابي:

ـ رب روح كطائر القفص المسـ
ـجون ترجو بموتها التسريحا
إلى العالم العلوي تزْمع رحلة
نفوسٌ وتبقى في التراب جسومُ

- فالروح شيء لطيف ليس يُدركـهُ
عقلٌ، ويسكن في الجسم الذي حرجا

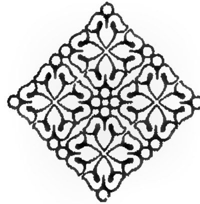
□ ويعتقد المعرّي بالجبرية، فالإنسان ملزم منذ ولادته بأموره، يدخل دنياه مكرهاً ويعيش مكرهاً ويخرج مكرها:

- خرجت إلى ذي الدار كرها، ورحلتي
إلى غيرها بالرغم، والله شاهد
ما باختياري ميلادي ولا هرمي
ولا حياتي فهل لي بعدُ تخييرُ

□ انتقد رجال الحكم، ورجال الدين، ورجال القضاء، ورجال الفكر، والنساء عموماً فحمل عليهن لأنهن أداة النسل وأصل الشر.

□ لم يكن للمعري مذهب فلسفي خاص، ولا عُني بأساليب الفلسفة النظرية في البحث، ولا ناقش مناقشة فلسفية. إلاّ أنه استمد من النظريات الفلسفية مواقف له وآراء لم يضمها في مذهب متماسك أبداً. ولم تزل البحوث حول موقفه الديني والفلسفي قائمة، والكل يدّعي انتسابه إلى فرقته الى مذهبه أو رأيه، علماً أنه شخصياً، لم يعلن رأياً صريحاً أو موقفاً واضحاً من أي فرقة أو مذهب أو فلسفة.

اهتم بنتاجه يجال الفكر واللغة، واعتبروه أفضل شاعر فلسفي، وترجمت له رسالة الغفران ـ وذهب فريق من الباحثين إلى أنها أوحت لدانتي روايته الإلهية ـ كما ترجمت بعض قصائده، وعدّه الغربيون شاعراً نابغة لصبغة شعره الإجتماعية والفلسفية.



المصادر: حكيم المعرّة، د. عمر فروخ، بيروت: ١٩٤٤ ـ لزوم مالا يلزم ـ لأبي العلاء المعري، القاهرة ١٩١٥ ـ أعلام الفلسفة العربية، د. يازجي، د. كرم، بيروت: ١٩٦٨ ـ مع ابي العلاء في سجنه، طه حسين، مصر: ١٩٤٤.

واصل بن عطاء

(٦٩٩ م - ٧٤٨ م)

□ المعتزلة، وهي فرقة كلامية اسلامية، تدين بتأسيسها إلى واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد.

□ واصل بن عطاء، ولد في المدينة ودرس فيها علوم عصره، ثم ارتحل عنها إلى البصرة، ليتصل بالفقهاء والمحدثين فيها، وفي هذا الوقت كان الخوارج من اتباع الأزارقة (نافع بن الأزرق) قد اشتدّت فتنتهم وغالوا في آرائهم وفي بحوثهم حول تحديد الذنوب. وكان للحسن البصري (ت: ٧٢٨ م) - وهو العالم المحدّث المولود في المدينة والمقيم في البصرة - مجلس يقصده الناس في المسجد، وروي أن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد دخلا عليه وهو في مجلسه يدرّس. فسأله واصل: «يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر... وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر... فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكّر الحسن، وقبل ان يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المرتبتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واصل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد... فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمى هو أصحابه معتزلة».

أما الكبائر التي دار الخلاف حول مرتكبيها: فالمطلقة منها هي الشرك بالله وصاحبها مخلّد في النار والنوع الآخر دونها ويضمّ: قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلّا بالحق، الزنا، عقوق الوالدين، شهادة الزور، السحر، أكل مال اليتيم، أكل الربى، رفض الجهاد المقدّس وقذف المحصّنات.

□ وهكذا تأسست المعتزلة في أواخر العصر الأموي وبلغت أوج شهرتها في عصر المأمون الذي جعلها رسمية، فاضطهد من ينكرها وقرّب رجالها، وفي عهد المتوكل، بدأت تخسر بريقها حتى طغت عليها حركة

الأشاعرة السنية المحافظة، فقضت عليها جدلياً وسياسياً.

□ المعتزلة هي الفرقة الكلامية، الفلسفية الصبغة في تعليلها، انتقت مذهبها من آراء الفرق السائدة، كالجهمية والقدرية والخوارج وسواها، وأسست قواعد علم الكلام، استناداً إلى التعليل المنطقي المستقى من الآراء الفلسفية والآيات القرآنية. فشيوخ الإعتزال الأول وتلامذتهم بصريون، أمّا الذين شاركوا في فتنة خلق القرآن فقد كانوا ببغداد، وهم الذين اهتموا بالفلسفة وفلسفوا الإعتزال.

□ أكثر مؤلفاتهم ضاعت، وبقي بعضها لعبد الجبار بن أحمد الأسد أبادي ولواصل بن عطاء: كتاب المعتزلة بين المنزلتين وكتاب الخطب في العدل والتوحيد.

□ قال الخياط، أحد أئمة المعتزلة: لا يستحق أحد منهم اسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد ـ العدل ـ الوعد والوعيد ـ المنزلة بين المنزلتين ـ الأمر بالمعروف ـ والنهي عن المنكر. وأهم ما أتوا به من آراء:

□ إن الله تعالى عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، وهي صفات قديمة ومعان قائمة به.

* إن الله تعالى منزه عن الصفات، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته بوجه من الوجوه.

* إن القرآن الكريم مخلوق لأنه كلام والكلام صفة من صفاته تعالى.

* القول بالقدر، وبأن الإنسان قادر على جعل أفعاله خيرة أو شريرة، لذا يستحق الثواب أو العقاب.

* إن الله تعالى صادق في وعده ووعيده لا يغفر الكبيرة إلّا بعد التوبة.

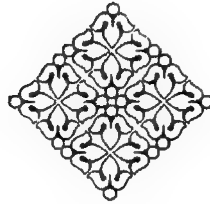
* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو واجب كل مؤمن على قدر ما يستطيع وتبعاً للأوضاع التي تقتضيه.

* الإمامة جائزة في قريش وفي غيرها، وان اختيار الإمام مفوّض إلى الأمة، ولم يراعوا في ذلك النسب أو غيره.

□ لقد امضى المعتزلة حياتهم في تقشف وزهد، واتسموا بالتقوى، مقتدين بالحسن البصري وواصل بن عطاء. وكانوا شديدين ضد خصومهم، بلغاء في الدفاع عن الدين والوقوف ضد الخوارج والرافضة والمرجئة.

□ وللمعتزلة فضل كبير في ترقية الفكر العربي، باغنائهم هذا الفكر بالمعاني الفلسفية، والتمهيد في علم الكلام لفرقة

الأشعرية بعدهم. كما أسهمت المعتزلة في شق الطريق أمام الفلسفة الاسلامية، بإيمانها بسلطة العقل وتوسّله لتخريج بعض التعاليم الدينية، وباعتماد المناقشة والجدل، وقد افاد من ذلك فلاسفة الإسلام بعدهم، خاصة في محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والشريعة.



---

[1] المصادر: الملل والنحل للشهرستاني، القاهرة: ١٢٦١ هـ ـ المعتزلة، زهدي جار الله، القاهرة: ١٩٤٧ ـ أعلام الفلسفة العربية، د. يازجي، د. كرم، بيروت: ١٩٨٦.

محمد بن عبد الوهاب

(١٧٠٣ م - ١٧٩٢ م)

□ شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب. مصلح ديني واجتماعي وسياسي. قام بالدعوة الوهابية في الجزيرة العربية. وهي دعوة سلفية أعادت إلى ممارسة العقيدة الإسلامية نقاوتها وصحّتها كما يفصح عنهما الوحي والسنّة.

□ ولد محمد في العيينة، ولم يدخل الكتاتيب بل درس على والده القرآن واللغة، واستظهر كثيراً من الأحاديث. حتى بات وهو دون العشرين عالماً مقصوداً.

□ ولما كانت الحياة الإجتماعية والدينية فاسدة، ففضلاً عن الجهل المتفشّي، كانت البدع والخرافات عامة: ذبح لغير الله، نذور للانصاب، توسّل بالموتى، تبّرك بالأشجار... والعلماء لم يكونوا هادين ومصلحين، بل حائدين عن الإسلام الصافي والخُطى النبوية الشريفة، فقدقام الشيخ محمد يناقش العلماء وينصحهم حتى عنُف الجدال بينهم واحتدّ. فكثر مناوئوه مما اضطر والده الى ترك البلدة إلى حريملا، ولم يصمد الشيخ الشاب طويلاً حتى غادرها أيضاً إلى مكة.

□ زار الشيخ محمد مكة، فأدّى فيها فريضة الحج ثم قصد المدينة، وهناك لازم، فترة، العالم ابن سيف، ثم توجّه إلى نجد فالبصرة، ثم عاد إلى حريملا أكثر علماً ونضجاً وأشد قوّة على الباطل ورجاله. وتوفي أبوه في هذه الفترةكما حاول بعضهم قتله، فاختار أن يعود مع محازبيه إلى العيينة بلده الأصلي.

□ وفي العيينة، استقبله عثمان بن معمر أميرها وشعبها بحفاوة. وزادت شهرته فأيّده كثيرون في مناطق مجاورة وبعيدة، كما عاداه كثيرون أيضاً، ومنهم أمير الإحساء الذي ألّب بعض زعماء العيينة ضدّه، وحين قويت الثورة، غادر البلدة إلى الدرعية.

□ وفي الدرعية بايعه أميرها محمد بن سعود على دين الله ورسوله وعلى الجهاد في

سبيله وإقامة شريعة دعوته. ومن الدرعية انطلقت الدعوة الوهابية قوية، تجمع الأنصار وتحارب الضالين.

□ وكانت الحروب بقيادة ابن سعود وابن عبد الوهاب ضد أمير الرياض وأمير الإحساء وغيرهما، حتى توطّد الحكم الصالح لمحمد بن سعود، ومن ثم لابنه عبد العزيز. وكان الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو المستشار الدائم، الذي يفصل في الخصومات. ويفتي في العلاقات السياسية وفي المعاهدات لأنه أعلم بالدين وبالاحكام.

□ لم يظهر في الدعاة والمصلحين الدينيين مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فمن عرفناهم قبله أو بعده لم تتجاوز آثارهم محيط الفكر المحدود، أو لم يكتب لدعواتهم الإنتشار والذيوع. لقد كان الشيخ محمد زاهداً ومتعلماً، لم يستخدم الدعوة قط في سبيل دنيا، بل قام بالدعوة مخلصاً لله. ومَن يطّلع على مؤلفات الشيخ محمد وعلى رسائله يعرف أنه كان كثير العلم واسع الثقافة وان كان علمه الفقهي منحصراً بآراء الإمامين المجتهدين: ابن تيميه وابن القيّم.

وهكذا أصلح نفسه ثم خرج للناس يريد لهم الإصلاح، وقد وفقّه الله لما صمد له، فأثمرت دعوته وإصلاحه وتجديده واحياؤه القرآن والسنة اتباعاً كانوا أئمة ودعاة في الفترات التي كانوا فيها، وما يزال اتباعه إلى اليوم كما كانوا بالأمس.

□ أحداث عديدة ضربت الوهابيين، لكنهم ثبتوا وضحّوا. قدم إبراهيم باشا بجيش جرّار وغزا به نجداً ليقضي على الدعوة وأصحابها. قاومت مدن نجد ثم استسلمت. والدرعية بعد حصارها استسلم حاكمها ثم قتل في الاستانة مع صحبه. والمفترون على الدعوة كثر، جابهم الشيخ محمد وجاهاً ومراسلة، بنفسه وبتلاميذه. وصمد الجميع، فقد كان صاحب الدعوة مثالاً للجميع في الصبر والثبات والإيمان.

□ ليس لمحمد بن عبد الوهاب دعوة خاصة، بل هي دعوة الإسلام الحق، ومنهجه هو منهج الإسلام. قال: «إني ـ ولله الحمد ـ متبع ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين به هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة واتباعهم إلى يوم القيامة» فالوهابيون لم يبتدعوا سنة جديدة وإنما سلكوا مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الفروع، أي قواعد الدين العملية والشخصية والتنفيذية التي يصحّ فيها اختلاف العلماء لأنها موكلة إلى المجتهدين منهم، أما الأصول، أي

العقائد وأسس الأحكام فهم فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، لا يحيدون عنها.

□ من أهم المسائل التي دعت إليها الوهابية صرف جميع أنواع العبادة لله وحده، ومنع التوسّل والإستعانة والاستغاثة بغير الله، ومسألة الشفاعة، ومسألة الغلوّ في أهل القبور، وتحريم المسكرات ومنع الدخان.

□ قال فيه محمد كرد علي: «وما ابن عبد الوهاب إلا داعية هداهم من الضلال، وساقهم إلى الدين السمح، وإذا بدت شدّة من بعضهم فهي ناشئة من نشأة البادية، وقلّما رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم، وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة، أما الغزوات التي يغزونها فهي سياسية محضة، ومذهبهم بريء منها، وما يتهمهم به أعداؤهم زور لا أصل له».

□ وقال طه حسن: «ان هذا المذهب الجديد قديم، والواقع أنه جديد بالنسبة الى المعاصرين، ولكنه قديم في حقيقة الأمر، لأنه ليس إلّا الدعوة القوية إلى الاسلام الخالص النقي المطهر من شوائب الشرك والوثنية، هو الدعوة الى الاسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده، ملغياً كل واسطة بين الله وبين الناس، هو احياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل من نتائج الإختلاط بغير العرب».

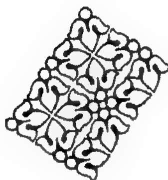
□ ويقول عباس محمود العقاد: «سرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردّد صداها في البنغال سنة ١٨٠٤ . . . ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد الباريلي في البنجاب. . .» ولم تقف آثار الدعوة الوهابية على القارّة الهندية فحسب، بل تجاوزتها إلى جاوا وأقصى الجزر الهندية الشرقية (اندونيسيا) وفي أفريقيا كان للدعوة أثر بليغ، ففي أواخر القرن الثامن عشر نشطت الدعوة وانتشرت في بعض بلدان افريقيا: في السودان ونيجيريا وغيرهما.

□ تنسب الأسرة الوهابية إلى الشيخ عبد الوهاب والدالداعية محمد، وحين ظهر شيخ الإسلام الامام محمد، غلب عليها آل الشيخ ومن الغريب تسمية دعوة الشيخ محمد بالوهابية نسبة إلى أبيه ومحمد هو الذي قام بها وناضل من أجلها ولقي في سبيلها الأذى والجوع وضروب المهانة، وكان الأولى ان تُسمّى الدعوة المحمدية، لكن جرى العدول عنها خوف الإشتباه بالنسبة إلى محمد بن عبدالله ﷺ.

□ لقد بدأ بن عبد الوهاب دعوته دون سن العشرين، شهد ثمارها وثمار جهاده مع ابن سعود وآثار الإصلاح في الديار، وتوفي اثر مرض في آخر يوم في ذي القعدة ١٢٠٦ هجرية الموافق ٢٩ حزيران ١٧٩٢ ميلادية.

□ مؤلفاته:

- مختصر صحيح البخاري
- التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد
- كشف الشبهات
- كتاب الكبائر
- أربع القواعد في التوحيد
- مختصر زاد المعاد
- استنباط القرآن
- السيرة المختصرة
- فضائل الإسلام
- أصول الإيمان
- تفسير القرآن
- مختصر الانصاف
- مختصر الشرح الكبير
- مسائل الجاهلية
- مفيد المستفيد
- الثلاثة الأصول
- آداب المشي في الصلاة



المصادر: محمد بن عبد الوهاب تأليف أحمد عبد الغفور عطّار ـ ط. ٤، منشورات مكتبة العرفان، بيروت ١٩٧٢.

□ ان القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الاسلامي، فصَوْناً له، وخدمة للغته العربية، نشأت الدراسات اللغوية والنحوية: فلقد خيف ان يتسرّب اللحن الى التلاوة في القرآن الكريم، فيُخلّ بمقاصد الآيات التي يُلحن فيها، خاصة وان الفتوحات الاسلامية اتسعت، ودخل الأعاجم في الاسلام، فأقبلوا على تعلم العربية لفهم لغة الشعب الفاتح وقرآنه.

□ واول خطوة كانت. هي صوْن القرآن الكريم بالضبط، فعمل ابو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) على نقْط (تحريك أو تشكيل) الألفاظ القرآنية، ثم جاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) فطوّر ذلك، كما عمل نصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩ هـ) على حلّ إشكال الحروف المتشابهة في الرسم، فالسليقة لم تعد تسعف القارىء للتمييز بين الحروف المعجمة (المنطقة) والمهملة. ثم تتالى العلماء يجتهدون ويكتبون في ذلك.

□ وقد ادّى الاختلاط الاجتماعي الطارىء الى شيوع الخطأ في تلاوة القرآن الكريم، خاصة في أمصار العراق الجديدة، كالبصرة والكوفة. فتتداعى العلماء، تكليفاً وتطوّعاً، الى عمل ما ينجّي القرآن الكريم من الألسنة المعوجة، فوضع علم النحو، لاعراب القرآن. ثم تطوّر هذا العلم ونما تبعاً للحاجة اليه. فنسبت بداية النحو للدؤلي، وللثقفي ولغيره (على تعدّد الروايات).

□ ولمّا كان لا بدّ من تفسير القرآن الكريم، مع تفتّح العقلية العربية، ولحاجة التسلّح بالآيات الشاهدة على المناهج الفكرية والمذهبية الطارئة، وتعليماً وارشاداً للداخلين في الاسلام... فقد احتاج العلماء الى شواهد لغوية متنوعة للتوكّؤ عليها في كتب التفسير المتنوّعة. وكانت الرواية (اي جمع المادة اللغوية وشواهدها من افواه العرب الفصحاء) رائجة لافتخار العرب بلغتهم، وتعزيزاً لمكانتها في مقابل اللغات الاخرى،

فكثر الـرواة، وجلّهم من القـرّاء النحاة في المرحلة الاولى، وكانوا يرحلون الى البـادية لتلقّي اللغة على فصحاء العرب، قبل ان تأتي المرحلة الثانية، وهي رحلة الفصحاء هؤلاء الى أمصار العرب للتعليم والرواية.

□ ومـوازة لـلعمـل الـنحـوي، وضـع المسلمون الأوائل كتباً ورسائـل في احصاء الألفـاظ من نـوع معيّـن: كـالأضـداد، والـمتـرادف، والـمشتـرك... ووضعـوا معجمات لألفاظ اللغة، تختلف في المناهج فيما بينها، مُغْنين اللغـة العربيـة بأبحـاثهم، ومفيدين المكتبةالعربية بكتب ضرورية لكـل دارس، أو باحث، او طالب.

□ وادّى اتساع رقعة الدولة الاسلامية الى حـاجتها لغـةً وظيفيةً في دواوينهـا، للخـراج والمراســلات والمعـاهـدات والقـرارات والأوامر... فتطوّعت اللغة العربية على أيديْ كتبة أدباء، استفادوا من كتب النحو والرواية والدراسات اللغوية الناشئة.

□ ولأن الشاعر هو لسان حال قومه، أو هو «الاعلام» المرافق لـلأحداث الـطارئة، فقـد استعاد الشعر مكانته، بعد توقف طفيف زمن الدعوة الاسـلامية الأول، فكثـر المدّاحـون والمفتخـرون، والهجّـاؤون، في مجـالس الخلفاء والوزراء والأعيان، وقد تعزّز ذلك مع تقسيم الـدولة الاسـلامية في اواخـر العصور العباسية.

□ وكمااثّر الاختلاط الحضاري في تجدّد العقلية العربية وتوجّه الفكر، فقـد اثر هـذا الاختـلاط أيضـاً، في الحياة الاجتمـاعيـة والفنية، وهذا ما ظهر في تنوّع الفنون الأدبية، النثرية والشعـرية، فتيّـار المجون يقـابله تيار الزهد، والغزل العفيف يقابله الغزل الاباحي، والشعر الصوفي يقابله الغناء والأدب المفتون بالمرأة والطبيعة ووسائل الترف...

□ ومـع الغنى الثقافي النـامي، ازدهـرت العلوم التطبيقية والجغرافية والتـاريخية، كمـا تقدّمت الدراسات الفكرية واللغوية والنقديـة والمعجميّة. فباتت المكتبات العامة والخاصـة عـامرة بـالمؤلفات المـوضوعـة والمترجمـة، فعـرفنـا الكتب المتخصصـة، والعلميـة، والنقدية، والفنية، كما عرفنا المقامة والقصة والمقالة والسيرة والرحلة والموشح..

□ لقـد اتحف عبـاقـرة الاسـلام المكتبـة العربية بروائع عديدة ومتنّوعة، لم تزل نماذج تُحتذى، وترجم كثير منها الى لغـات العالم لتأكيد ريادة المسلمين ومآثر حضارتهم. وفي الصفحـات التاليـة نتعـرّف الى بعض هؤلاء العباقرة عبـر مؤلفاتهم، مُطلّين على آرائهم ونهوجهم في التفكير، واساليبهم في البيان.



عباقرة الأدب

ابن بطوطة

(١٣٠٤م - ١٣٧٧م)

□ محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، كنيته ابو عبدالله، معروف بابن بطّوطة. ولد في طنجة - في المغرب - وكان لم يزل دون الخامسة والعشرين من عمره يوم رغب الحج، فانطلق من طنجة قاصداً مكة، وشاء القدر الاّ تكتب له العودة الى دياره الاّ بعد اكثر من ربع قرن.

□ أحب ابن بطوطة السفر منذ شبابه، وكان ما وصله من أخبار بلاد المشرق يثير فضوله. والكتب التي كانت في متناول أيدي العرب عن العالم عديدة، منها «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، و «مسالك الممالك» للاصطخري، وهي تتضمن اخباراً ممتعة تجمع التاريخ والجغرافيا.

وقد اهتم العرب بالرحلات، كما اهتموا بوصف البلاد التي فتحوها، دعاهم الى ذلك للاستخبار عن الامم السابقة ونقل علومهم ومعارفهم الى العربية، كما ان الدول كانت تحتاج لمعرفة المسالك والبلاد والمدن واوصافها. . . لحسن الادارة السياسية والمالية.

ويُعتقد أن العرب كانوا روّاد المغامرات البحرية والبرّية، و«ابن ماجد» العربي العُماني رافق فاسكو دي غاما في اقتحام الهند، كما يظن انهم وصلوا اميركا قبل كريستوف كولومبس، ففي «نزهة المشتاق» للادرسيي ما يشير الى ذلك. امّا أهم رحلات العرب المدونة باسلوب جذّاب قريب، فهي رحلات ابن جبير (١١٥٤م - ١٢١٧ م) ورحلات ابن بطوطة.

□ قام ابن بطوطة بثلاث دورات في رحلته.

* دورته الأولى ابتدأت من طنجة باتجاه شمال افريقيا حتى الاسكندرية فدمياط فالقاهرة، ثم تابع سفره في النيل الى اسوان فعيذاب على البحر الأحمر، ومنها أبحر الى جدّة، ثم عاد الى القاهرة فدمشق عبر فلسطين ثم سار الى اللاذقية فحلب، واتجه مع قافلة

حجـاج الى مكة المكـرمـة. بعد ذلـك زار العراق، ثم فارس. وحج ثانية، ثم انطلق من مكة الى اليمن فالبحرين، ومنها الى مكة ثالثة فالقاهرة.

□ دورته الثانية كانت باتجاه الشمال، فزار الشـام، ودخل اسيـا الصغرى وبلغ سينـوب على البحـر الاسود، ثم عبـرها الى جـزيـرة القرم، وزار جنوب روسيا قبل ان ينتقل الى ارض البلغار. ومنها عـاد الى فارس ودخـل ارض الهند. وفي الهند اقام سنوات في خدمة السلطان،.. ثم زار سيـلان وانـدونيسـيـا وكانتون في الصين. وعـاد من سومـطرة الى ظفار بحراً، وانتقل براً الى فلسطين ثم رحل باتجاه بلاده عبر مصر فتونس، وفي طريقه زار سـردينيا بحـراً، وخلال زيـارته لفـاس عبـر مضيق جبل طارق وزار الاندلس.

* دورته الثالثة كانت بتكليف من سلطانه، اذ قام رحلة الى عمق افريقيـا حتى مالي ثم عاد الى فارس بعد رحلة شاقة.

* لم يتـرك ابن بطوطـة بلداً مـرّ فيـر الاّ وصفه وذكر اهله وحكامه علماءه وقضاته:

□ «على شـاطىء النيـل، واهـل الـدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات يُنزل فيها الى النيل. وشجره المـوز بها كثيـر، يُحمل ثمـره الى مصر في المراكب، وغنمها سائمة هملاً بالليـل والنهار ولهذا يقال في دمياط: سورها حلوى وكلابها غنم».

□ اللاذقية: «قصدتها لزيارة الوالي الصالح عبد المحسن الاسكندري، فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف، فلقيت من أصحابه الشيخين الصـالحين سعيداً البجائـي ويحيى السـلاوي، وهمـا بمسجـد عـلاء الـدين بن البهاء، أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم. وكان قد عمر لهما زاوية بقـرب المسجد وجعـل بهـا الـطعـام للوارد والصادر».

* عبادان: «كانت بلداً فيما تقدّم، وهي مجدبة لا زرع فيها، قيل فيها:

من مبلغ اندلساً انني / مللت عبـادان أقصى الثرى
أوحش ما ابصرت لكنني / قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبـز فيها يتهـادونـه / وشُربـة المـاء بهـا تشترى»

* العلايا: «وهي اول بلاد الروم.. نزلنا في هذه المدينـة بمدرستهـا وشيخها شهـاب الـذين الحموي... فلمـا صليت المغرب، عاد الينا ذلك الرجل وذهبنا معه الى زاويته، فـوجدنـاها زاويـة حسنة، مفـروشـة بـالبسط

الـرومية الحسـان، وبها الكثيـر من ثـريـات الـزجاج العـراقي وفي المجلس خمسـة في البياسيس، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله ارجل ثلاثة، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس، وفي وسطه انبـوب للفتيلة، ويملأ من الشحم المذاب، والى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم، وفيها مقراض لاصلاح الفتيلة وأحدهم موكل بها، اسمه عندهم الخراجي».

□ الكـركدن: «ولمـا اجتزنـا نهـر السنـد المعـروف ببنج آب، دخلنـا غيضـة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها، فخرج علينا الكركدن، وصورته انه حيوان اسود اللون عظيم الجرم، رأسه كبير متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثـل فيقال الكـركدن رأس بـلا بدن».

□ الهند: «ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت النـاس يهرعـون من عسكرنا. ومعهم بعض اصحـابنـا، فسـألتهم ما الخبـر، فأخبروني ان كـافراً من الهنـود مات وأججت النار لإحراقه، وامرأته تحرق نفسها معه. ولما احتـرقا جـاء أصحابي واخبـروا انها عـانقت الميت حتى احترقت معه».

□ سلطان دهلي: «واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت ستة عشر قبّة.. ويجعل في وسط كل قبّة حوض كبير من الجلد مملوء بماء الجلّاب محلولاً بالماء، يشرب منه جميع الناس.. والطعـام بدار السلطان على صنفين: الطعام الخاص والطعام العام، فاما الخـاص فهو طعـام السلطان.. وامـا العـام فيؤتى به من المطبخ وأمامه النقباء يصيحون: باسم الله، ونقيب النقباء امامهم بيده عمود من ذهب، ونائبه معه بيده عمود من فضة... ولا يقعد أحد الّا في موضع معين له، فلا يكون بينهم تزاحم البتّة. فاذا جلسوا اتى الشربدارية وهم السقاة.. ثم يشرعون في الأكل ويجعل امام كل انسـان من جميع مـا يحتوي عليه السماط يأكل فيه وحده، فاذا فرغوا من الاكل اتـو بالفقـاع في اكواز القصـدير.. ثم يؤتى باطباق التانبول والفـوفل فيعـطى كل انسـان غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التانبول مجمـوعة مـربوطـة بخيط حريـر أحمر».

□ جـزر المليبـار: «ومن عجـائبهـا ان سلطانتها امرأة، وهي خـديجة بنت السلطان جـلال الدين... وهم يكتبـون الاوامـر في سعف النخل بحديدة معوجـة شبه السكين؛ ولا يكتبون في الكاغد الا المصاحف وكتب العلم.. ولمـا وصلت اليها نـزلت بجـزيـرة كنلوس.. وكـان غرضي ان أسـافر منهـا الى المعبر وسرنديب وبنجاله ثم الى الصين»..

□ وقد توفي ابن بطوطة في مراكش.

□ طبعت رحلة ابن بطوطة مراراً، وهي وعجائب الاسفار». كما ترجمت منها فصول باسم: «تحفة النظار في غرائب الامصار الى اللغات الاجنبية.



المصادر: رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٦.

ابن الرومي

(٨٣٦ م - ٨٩٦ م)

□ العباس بن جريج، كنيته ابو الحسن. لقّب بالرومي نسبة لأبيه. ولد في بغداد، وكان مسلماً موالياً للعباسيين:

قومي بنو العباس، حلمُهم
حلمي، كذاك وجهلهم جهلي

ورث ابن الرومي عن أبيه املاكاً، أضاع قسماً منها باسرافه، وقضى حظه الأسود على القسم الباقي اذ احترقت ضيعته، وغُصبت داره، وأتى الجراد على زرعه. وكأن القدر لم يكفه مصائب ماله وارثه، فقد أرسل الموت يتخطّف عائلته واحداً اثر الآخر، فبعد وفاة والده، وهو حدث، ماتت امه، ثم اخوه الاكبر، ثم خالته التي اعتنت به بعد أمه. وحين تزوج كان الموت له بالمرصاد، اذ فجعه بزوجته الاولى، واولاده الثلاثة واحداً بعد الآخر.

□ واذا كان ابن الرومي قد رغب ان ينطلق في شبابه، فيتعرّف الى الحياة من بابها العريض، يطلع، ويرود حلقات العلم، كما يداوم على اللهو ويتحسّس اللذائذ، فان القدر الذي اصابه بسهامه العديدة، هدّ من شجاعته، ومال بانفتاح نفسه وعقله الى الانغلاق والتشاؤم، فاضطربت حياته كما اضطرب جسمه، وصار غريب الأطوار، يسيطر عليه الخوف والوهم، ويتوقع الشقاء في كل لحظة، فسخر الناس منه، واضطهدوه، وتجنبوه.

□ يقول فيه طه حسين: «ونحن نعلم انه كان سيء الحظ في حياته، ولم يكن محبباً الى الناس، وانما كان مبغضاً اليهم، وكان مُحسداً ايضاً. ولم يكن أمره مقصوراً على سوء حظه، بل ربما كان سوء طبيعته فقد كان حادّ المزاج، مضطربه، معتلّ الطبع، ضعيف الأعصاب، حادّ الحسّ جداً، يكاد يبلغ من ذلك، الاسراف».

□ ونقم ابن الرومي على مجتمعه، فهجاه، وكان عصره عصر اختلال في كل شيء، فصاحب الجدارة يُبعد، ويرتفع

المحتال المتملّق، مجالس الانس عامرة، وفي مقابلها فكر وعلم وزهد، والغنيّ تُرفع رايته على القصور والضياع . . . وابن الرومي بائس فقير حزين ، أصحابه يتجنبونه والمناصب بعيدة عنه ، فهاله الواقع وازداد يأسه.

□ ولاذ ابن الرومي، الرجل البائس المتشائم، بابن الرومي الشاعر، فقصد مجتمع بغداد العامر بالاستقرار والترف والتفاؤل، ولكن أنّي لابن الرومي أن يستدرّ عطف الكبار ويستمطر اكفّهم وهو المعصور ألماً، والذي له ـ فوق ذلك ـ من كبريائه ما يمنعه من الجهر بالطلب والاستجداء ـ فقد عاش ابن الرومي عهود ثمانية من الخلفاء العباسيين، وبقي عاجزاً عن الاتصال بهم ـ سوى المتوكل ـ وكان الجميع غير راغبين بمديحه، يردّون قصائده اليه لأنها غير صالحة، أو يتمنّعون عن بذل العطاء له:

إن أجدْنا في مدحهم، حسدونا
فحُرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهم، انّبونا
وهجوا شعرنا أشد الهجاء

كان صادق الاحساس والشعور، لا يعرف المراءاة ولا التلفيق، يمزج الفخر بالمدح، يقول لأحد ممدوحيه:

موجبٌ ان اكونَ أدنى جليسٍ
لك أعلو بحقّي الجلساء

وكان يكثر في مديحه الشكوى الأنين، ويُشرك السامع معه في مصائبه ويذكّره الالم والموت، لكن له بعض المدائح الجيدة في ابي القاسم الشطرنجي ، والقاسم بن عبدالله ، وزير المعتضد.

□ ولجأ ابن الرومي الى الطبيعة، وهو الشاعر الحسّاس، فتفاعل وجدانياً مع عناصرها وأجوائها. وبدافع من فشله الدائم، اتجه اليها يعبرّ، عنها ومن خلالها، فنَشَد الوحدة فيها، كما أغرم بدفئها وألوانها. . . يقول العقاد: «فعلى هذا النحو تتجلّى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة، فليست هي دمية ولا حلية، ولا مجلساً للمنادمة، ولكنها قلب نابض، وحياة شاملة، ونفس تخف اليها وتأنس بها، و «ذات» تساجلها العطف وتجاذبها المودّة».

وابن الرومي الشاعر الرومنطيقي أجادفي وصف الطبيعة ما فاق به الشعراء الآخرين، فهو شاعر الوصف بلا منازع، فكانت الطبيعة عنده امرأة:

ـ ورياض تخايل الأرض فيها
خيلاء الفتاة في الأبراد

تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الانثى تصجدت للذكر

ورسمها فرحةٌ فوّارة بالمرح والطرب والحنان:

- ضحك الربيع الى بكا الدِّيَمَ
وغدا يسوّي النبت بالقمم
- هبّت سحيراً فناجى الغصن صاحبه
موشوشاً وتداعي الطير اعلاناً
ورُقٌ تغنّي على خضر مهدّلة
تسمو بها وتشمّ الأرض احياناً
تخال طائرها نشوان من طربٍ
والغضن من هزّهِ عِطْفيْه نشواناً

□ وهل يمكن ألّا تصادف المرأةُ في حياةِ ابن الرومي وقعاً طيباً، وهي: الجمال والحنان واللذة؟! وقد تناثر شعر الغزل في قصائده دون أن يُفرِد له باباً خاصاً، منه:

- اعانقها والنفس بعدُ مشوقة
اليها، وهل بعد العناق تداني
وقيانٍ كأنها امهاتٌ
عاطفاتٌ على بنيها، حواني
مُطفلات، وما حملن جنيناً
مرضعاتٌ ولسن ذات لبان

□ مزاج ابن الرومي الشخصي، ونقمته، ونقمته على الناس، جعلاه يزدري العديد من أصحاب الاشكال أو العادات التي لا يستحبها، فكان هجاؤه لهم ممزوجاً بسخرية عابثة، تجعلهم في صور كاريكاتورية مثيرة للضحك والشفقة معاً.

- البحتري ذنوب الوجه نعرفه
وما رأينا الوجه ذا أدب
- قصُرت أخادُعه وغار قذاله
فكأنه متربصٌ ان يصفعا
وكأنما صُفعت قفاهُ مّرة
واحسّ ثانية لها، فتجمّعنا
- ان تطُل لحية عليك وتعُرض
فالمخالي معروفة للحمير
- يا صلعة لأبي حفصٍ، ممرّدة
كأن ساحتها مرآة فولاذ

□ امّا حكمته فكانت نتيجةً منطقيةً لمسيرة حياته، فهو في وعْظه يقول الحقيقة بلا مواربة:

- عدوّك من صديقك مستفادٌ
فلا تستكثرن من الصحاب
- رأيت حياة المرء رهناً بموته
وصحته رهن كذلك بالسقم
- فبادر الدهر بالمناعم واللذ
ات، واحذرْ من وشك مرتحلِ

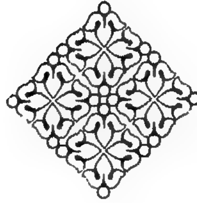
□ حياته القاسية التي عاشها، اذابته عاطفة ورقّة ولوعة، فبكى وتألم - واكثرُ الآمه كانت

لفقدانه اولاده، وله في ابنه الاوسط رثاء يُبكي القلب دماً، كما له رثاء في «خراب البصرة»، وفي المغنية «بستان» يقول في رثاء ابنه:

أُبنيّ، انك والعزاء معاً
بالأمس لُفّ عليما كفنُ
ما اصبحت دنياي لي وطناً
بل حيث دارك عندي الوطن
ما في النهار، وقد فقدتك من
انس، ولا في الليل لي سكن

□ كان ابن الرومي «شاعر الشخصية» في الادب العربي، كما كان «شاعر الوصف»، و «شاعر الغربة النفسية»، هو طائر غرّد خارج سربه، «لكن ذلك لم يُفقد شعره طابع الاجادة، والروعة والخلود».

□ ووفاة ابن الرومي لا تقلّ طرافة عن حوادث حياته فقد توفي مسموماً، ودفن في بغداد: يقول العقّاد: «ان الوزير ابا الحسين القاسم بن عبيدالله بن سلمان بن وهب، وزير الامام المعتضد، كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش، فدسّ عليه ابن فراش، فأطعمه «خشكنانجة» [حلوى] مسمومة وهو في مجلسه، فلما أكلها، احسّ بالسمّ، فقال له الوزير: الى اين تذهب؟ فقال: الى الموضع الذي بعثتني اليه، فقال له: سلم على والدي، فقال له: ما طريقي الى النار».



المصادر: ديوان ابن الرومي ـ ابن الرومي، د. فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت: ١٩٨٩ ـ ابن الرومي، عباس محمود العقاد، مطبعة حجازي، القاهرة: ١٩٣٨.

ابن زيدون

(١٠٠٤ م - ١٠٧٠ م)

□ أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي، كنيته أبو الوليد. يعدو بنسبه الى قبيلة مخزوم العربية القرشية، وكان ابوه قاضياً وجيهاً غزير العلم والمال، توفي وأحمد في الحادية عشرة من عمره.

درس على أبيه اول أمره، وجالس اصحابه العلماء والفقهاء. ثم اتصل بشيوخ عصره وأخذ عنهم، منهم النحوي الرواية ابو بكر بن مسلم بن أحمد والقاضي ابو بكر بن ذكوان. وكان كثير المطالعة تظهر ثقافته الادبية والفلسفية في رسالته الهزلية، كما تظهر معلوماته في التاريخ والثقافة الاسلامية في قصائده.

□ مات الحكم مسموماً، بعيد ولادة ابن زيدون بخمس سنوات، ومنذ هذا التاريخ بدأ «عهد الفتنة» التي بقيت مشتعلة حتى صار عمره ستاً وعشرين سنة، اي الى السنة ٤٢٢ هـ التي مات فيها آخر خليفة اموي. وقد كانت قرطبة في هذه الفترة مسرحاً لاضطرابات دامية بين البرابرة والعامريين والاسبان. وهدأت الفتنة لتنشأ دول صغيرة عرفت بدول طوائف الملوك.

□ لكن النشاط الأدبي في هذه الفترة لم يتوقف، بل ازداد ايام ملوك الطوائف، وقرطبة كانت مدينة لهو وطرب وادب تميل الى الرخاء رغم كل ما أصابها، مجالسها عديدة، وللنساء فيها دور ظاهر.

في هذه البيئة السياسية والادبية والفنية تربّى ابن زيدون، وخالط الامراء والعلماء في مجالس العلم واللهو، وكانت له حظوة في مجالس النساء أيضاً، فهو:

- شاعر سياسي طموح.
- وشاعر متأثر بالجمال.

□ الشاعر السياسي الطموح.

اتصل ابن زيدون ببني جهور، فكرّموه وقربوه، واستخدموه سفيراً ونديماً. قال ابن بسام في الذخيرة: «ونوّه بفتى الأداب وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف، ابي الوليد احمد بن زيدون. . . وقدمّه للنظر على أهل

الذمة، لبعض الامور المعترضة، وقَصَرَهُ بعدُ على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء، فأحسن التصّرف في ذلك، وغلب على قلوب الملوك». ثم تغيّر ابو حزم بن جهور على ابن زيدون فسجنه، ويقال ان ابن زيدون حاول القيام بثورة فحوكم ثم سجن، كما قيل ان ابن زيدون حاول استغلال ارث احد الاسياد بعد وفاته... وهكذا سجن خمسماية يوم يستعطف ويناشد ابن جهور العفو، وقد نظم في سجنه قصائد جيدة:

مَن يسأل الناس عن حالي فشاهدُها
محْضُ العيان الذي يُغني عن الخبر
لم تطو بُرْدَ شبابي كَبْرةٌ وأرى
برقَ المشيب اعتلى في عارض الشَّعر
ها انها لوعةٌ في الصدر قارحةٌ
نار الاسى ومشيبي طائر الشّرر

ثم فرّ ابن زيدون من سجنه بعد أن اخفقت رسائله وتوسّلاته، وقصداً أشبيلية، ومنها كتب لحبيبته ولّادة قصيدته الشهيرة ومطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وطاب عن طيب لُقيانا تجافينا

ثم عاد الى قرطبة، واختبأ عند بعض اصحابه مستشفعاً بهم لدى أبي حزم. واخيراً حظي بعفوه، فعاد ليمدحه ثم يرثيه بعد وفاته دون عاطفة صادقة. وتألق نجم ابن زيدون في عهد ابي الوليد بن ابي حزم، فعينه على أهل

الذمة، قال ابن زيدون في قصيدة تعبّر عن سعادته لديه:

ما للمُدام تديرها عيناكِ
فيميل في سكر الصبا عطفاك
قلدني الرأي الجميل فانه
حسْبي ليومَيْ زينةٍ وعراك

ثم طلب الوزارة لديه ونالها، فصرخ مادحاً:

ملكٌ لذّ جنى العيش به
حيث وردُ الأمن للصادي علَلْ
نحن من نعمائكم في زهرةٍ
جددت عهدَ الربيع المقتبلْ

وعمل سفيراً بين ابي الوليد وادريس الحسني في مالقة، وبعد جفاء بينه وبين بني جهور قصد بلنسية، يتنقل بين الأمراء والملوك، وهم يحسنون ضيافته، ثم عاد الى اشبيلية فاحتُفي به، وتولى الوزارة فلقب بذي الوزارتين «كانت الكتب تنفذ من انشاء ابي الوليد الى شرق الأندلس فيقال تأتي كتب من اشبيلية هي بالنظوم ،أشبه منها بالمنثور».

لقد كانت حياة ابن زيدون في عهد المعتضد غنية بالهناء والمجد، لكن الحروب الصغيرة ما لبثت ان دفعته للعودة الى قرطبة حيث احباؤه وأهله، الّا ان سعاة السوء كادوا له، فأرسل في مهمة الى اشبيلية رغم مرضه،

يومذاك، فساءت صحته ومات هناك.

□ **ولّادة بنت الخليفة المستكفي، مثقفة موهوبة، جميلة جاهرت بحياتها الحرّة، «وكانت واحدة أقرانها يتهالك الكتّاب والشعراء على حلاوة عشرتها، وكان مجلسها في قرطبة منتدى لأمراء المصر» مالت للأدب، فنظمت الشعر، واولعت بالحب فاستسلمت للعبث، تعلّق بها ابن زيدون طويلاً، فلاقاها، وراسلها، وعاتبها. . وكانت حدائق قرطبة مرتعاً لحبهما، ثم حصلت بينهما جفوة فكتبت اليه:**

الا هلْ لنا من بعد هذا التفرق
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبّ بما لقى؟

وأجابها:

لحا الله يوماً لست فيه بملتقٍ
محيّاك من اجل النوى والتفرّق
كيف يطيب العيش دون مسرّة؟
وأي سرور للكئيب المؤرَّقَ

وحين اضطر للهرب والتنقّل بعيداً عنها، كتب اليها مشتاقاً من الزهراء:

اني ذكرتك بالزاهراء مشتاقاً
والافق طلقٌ ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في اصائله
كأنه رقّ لي فاعتلّ اشفاقاً

وقصيدته النونية التي أشرنا الى مطلعها هي ألطف غزله، منها:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوا نحنا
شوقاً اليكم وما جفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الاسى لولا تأسّينا

في غزله تظهر اصالته، فقد عبّر صادقاً عن حبه ولوعته وشوقه، وهذا الشعر، ولو كان اقل من مدائحه، ولكنه اصدق واجود. وقد انتهت العلاقة بين ابن زيدون وولّادة، ربما لتدخّل الوزير ابن عبدوس بينهما، ولم تشفع قصائده العديدة في الشكوى والعتاب، وهي قصائد تنضح الماً، وتعبّر عن انكساره ورجائه.

□ اهم ميزة شعر ابن زيدون انه صورة لحياته السياسية والعاطفية، في طموحه ولهوه وتعشقه الجمال، وقد أجمع النقاد على انه شاعر من الطبقة الاولى في شعراء الأندلس، فقد كان جيد التعبير، نظماً واسلوباً، موسيقى شعره فيها خفّة ورشاقة، فشبهوه بالبحتري، وهو اجمالاً شعر ذو طابع عربي اصيل، كان نتيجة لثقافة مشرقية ومغربية معاً قال د. شوقي ضيف فيه: «وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة او الموروثة في عُمْلة اندلسية جديدة، فيها الفن وبهجة الشعر وما يفصح عن اصالته وشخصيته».

المصادر: في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي، مصر: ١٩٦٦ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، بيروت: ١٩٥٦ ـ ديوان ابن زيدون، القاهرة: ١٩٣٢.

ابن شهيد

(٩٩٢م - ١٠٣٤م)

□ أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد. يعدو بنسبة الى غطفان. ولد في قرطبة، عهد كان ابوه عبد الملك من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية، مقرباً من المنصور بن أبي عامر الذي كان الأمر له، بعد أن حجر على الخليفة القاصر هشام بن الحكم.

عاش ابن شهيد في جاه ابيه وغناه منذ طفولته، لكنه، كما يظهر لم ينعم بعطف أبيه المشغول بمجالسه، وقد ظل يذكر كيف دخل على المنصور بن عامر وهو في الخامسة من عمره، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة اشتهاها، فقدّمها له المنصور، ولما صعب عليه عضّها لكبرها، صار المنصور يقضم منها بفمه ويطعمه، ثم أَمَرَ أن يُحمل الى زوجته، فلاطفته وامرت له بأربعة آلاف درهم، ما لبث ابوه ان صادرها منه حين عودته. ولما وصل الخبر الى المنصور، بعث اليه بخمسمائة دينار وأقسم على ابيه بحياته الا يمنعه عنها، فتصرّف ابن شهيد بها على هواه.

وتنسّك عبد الملك في آخر حياته، فزهد في الدنيا ومنع اولاده عن الحياة المترفة، فحلق لمّة ابنه وألبه مدارع الكتان وحملة على التقشف، وهو ابن ثمانية، ولما وصل خبر ذلك للمظفر ولي العهد، استقدمه وألبسه الحرير وعقد له - صورياً - على الشرطة، وامر له بألف دينار. فأرضى في نفسه تشوّفها الى المراكز العالية وتطلّعها الى الثياب الجديدة والمال الوفير.

□ وبلغ ابن شهيد مرتبة الوزارة في عهد المظفر، لكنه لم يصل الى منزلة الكتابة في الديوان ليلقّب بالوزير الكاتب أسوة بالوزراء الكتاب، ثم اتصل بعد المظفر باخيه عبد الرحمن الناصر.

□ كان ابن شهيد لم يزل شاباً حين حصلت الفتنة، فانطوى على نفسه بمرارة، وكان حسّاده قد كثروا فأحسّ ان عليه الجهاد ليثبت وينتصر، فاندفع للاتصال بالامراء

والكبار ومدحهم وقد «أحرق قسماً من جهوده الفنية بخوراً على اعتاب المستولين على قرطبة، فمدح المستعين فيمن مدح، وحين فقد أمواله، راسل ابن حمّود واصفاً معاناته:

فراق وسجن واشتياق وذلة
وجبّار حُفّاظٍ عليّ عتيدُ
فمن مُبلغ الفتيان اني بعدهم
مقيمٌ بدار الظالمين وحيدُ

وابن شهيد في نتاجه الأدبي اثنان: شاعر سياسي طموح، وناثر ناقد.

□ في شعره السياسي: مدائح، ومراثي، وشعر مناسبات: استعطف المعتلي بن حمّود فقال:

الى المعتلي عاليتُ همّي طالباً
لكرّته ان الكريم يعود

ومدحه بعد أن استجاب لطلبه وأطلقه، ولما انتصر على ابن الشرب قال فيه:

عجبت لمن يعتدّ دونك جنةً
وسهمك سعد والقضاء مفوّقُ
وما شرب ابن الشرب قبلك خمرةً
من الذل بالعجز الصريح تُصفَّقُ

وتناوب على كرسي الحكم عديدون، اتصل بهم ابن شهيد ووزر للمستظهر من بينهم، فمدح ورثى، ومرّ في مناقضات ومماحكات بينه وبين معاصريه من الشعراء والادباء. ومن ذلك التنافر بينه وبين ابن عباس اذ كان كل منهما معجباً بنفسه، وكان شدّ ما يضايق ابن شهيد إلصاق العيب بشعره فهجا ابا بكر المعروف باشكيماط، وتهكم على ابن الافليلي. وكان له اصحاب رافقوه مراحل عمره وطموحه، منهم ابو المغيرة بن حزم، والقاضي ابن ذكوان وابو جعفر ابن اللمائي... ورثى منهم حسان بن مالك وهو من الأئمة في اللغة والادب:

أخي كل عام مصرعُ لعظيم
أصاب المنايا حادثي وقديمي
وكيف اهتدائي في الخطوب اذا دجت
وقد فقدتْ عيناي ضوء نجوم

كان ابن شهيد في شعره ميالاً الى القوة والجزالة، متوقّدُ القريحة، يقرّ انه يستعمل حوشي الكلام غير انه لا يجعله نابياً لانه يُحسن وضعه في اماكنه، حاول التفوّق على الشعراء كلهم الاّ المتنبي فقد كان رمزه وآسره، شغف في شعره بالصور وبالموسيقى القوية، وتكلّف احياناً في استخدام الجناس.

□ وفي نثره: عرف له: رسالة التوابع والزوابع، كتاب حانوت عطّار، كشف الدك وآثار الشك، وما وصلنا منها غير فضول من التوابع والزوابع اوردها ابن بسام في الذخيرة.

قال ابن حيّان في نشر ابن شهيد: «كان ابو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام، واذا تأملته ولَسَنَه، وكيف يجرّ البلاغة رسَنَه، قلت: عبد الحميد في اوانه، والجاحظ في زمانه».

* ومن حسنات نثره أنه يظهر علاقاته الادبية والسياسية وصداقاته.. فمن احاديثه نستخرج اخباره وآراءه في اهل قرطبة وحكامها. يقول في معلمي قرطبة: «وقوم من المعلمين بقرطبتنا.. يرجعون الى فطن حمئة، واذهان صدئه، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مَدَبّ لها في أنوار البيان، سقطت لهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع، والزمز على الألحان»... ويغلب القصص على انشاء ابي عامر، وابرز خصائصه تتبعه الموصوف بتصوير ميزاته في الاعضاء والالوان والصوت والحركة والطباع:

«البعوضة مليكة، لا جيش لها سواها، تحقرها عين من يراها، تمشي الى الملك بندبها، وتضرب في بحبوحة داره بطبلها، تؤذيه باقبالها، وتعرّفه باراقة دمه ما لها، فتعجز كفه، وترغم انفه وتضرّج ضدّه.

* في رسالة التوابع والزوابع رحلة قام بها ابن شهيد الى وادي عبقر لملاقاة توابع الشعراء والكتاب ومخاطبتهم نثراً وشعراً لنيل اجازاتهم. وهدف الرسالة الانتقاص من أدب الجميع وانعاش لغرور ابن شهيد، قال له تابع الجاحظ: «انك لخطيب، وحائك لكلام مجيد، لولا انك مُغْرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر» فيجيبه: «ليس هذا أعزّك الله، مني جهلاً بأمرا السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودُهيت بغباوة اهل الزمان» فيقول له الجنّي: «فكيف كلامهم بينهم» فيقول: «ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي اليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، انما هي لكنة اعجمية، يؤدون بها المعاني، تأدية المجوس والنبط».

والرسالة مدخل وأربع فصول: فصل في توابع الشعراء، وفصل في توابع الكتاب، وفصل في نقّاد الجن، وفصل في حيوان الجن، ونتبين من خلال طوافه بينهم إجلاله لبعضهم، وفي حلقاته التي يعقدها معهم ينظر في امورهم وأحوالهم ويسألهم: بما غُفر لهم، ويستفسرهم اموراً تختصّ بهم، او يوقع بينهم المشاحنة والمناظرة..

□ غلب عليه الفالج آخر ايامه، فقاسى منه حتى قضى على حركته تماماً. وكان يخاف الموت، فنسك وتاب:

ـ أنوح على نفسي وانـدب نبلها
اذا انا في الضرّاء ازمعت قتلها

رضيتُ قضـاء الله في كـل حـالـة   ان اقضِكم حقكم من قلة عمـري
علـيّ واحكـامـاً تـيقّنت عـدْلـهـا   انـي الـى الله لاحـقٌ ولا عُـمُـرُ
ـ هـذا كتـابي وكف الموت تـزعجني

عن الحيـاة وفي قـلبي لكـم ذكَـرُ

وتـوفي ابن شهيـد بـلا عقب. ودفن في قرطبة.



المصادر: رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت: ١٩٦٧ ـ تاريخ الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت: ١٩٦٩.

ابن عبد ربه

(٨٦٠م - ٩٤٠م)

□ احمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، كنيته أبو عمر. كان مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية الاموي. ولد في قرطبة. وتعلّم فيها الفقه والتفسير والحديث واللغة. ولم يرتحل الى المشرق ليأخذ عن شيوخه، بل اكتفى بما قرأ وأخذ عن علماء الأندلس، أمثال الخُشَني وابن وضّاح وبقي بن مخلد.

□ نوّع ابن عبد ربه من مصادر ثقافته، بحكم وجوده في البلاط، فأضاف الى ثقافته الدينية ثقافة فنية وأدبية، ومال الى الغناء والموسيقى والجمال. ولمّا اتصل بالأمير عبدالله لازمة ونادمة ومدحه وفعل ذلك ايضاً مع خلفه عبد الرحمن الناصر، حتى توفي عن احدى وثمانين سنة.

□ قال فيه الفتح بن خاقان: «انه حجة الأدب، وله شعر انتهى منهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه». وقال فيه ابن سعيد: «امام اهل ادب المئة الرابعة [الهجرية] وفرسان شعرائها في المغرب كله».

□ استناداً الى شخصيته ومواهبه ومركزه، كان أفضل ما وضعه كتابه «العقد الفريد» وقد عاب الأدباء العقد بأنه عني بادب المشرق، وكان الأوْلى به أن يُعنى بادب الأندلس، حتى رووا عن الصاحب بن عباد أنه لما وصله قال فيه: «هذه بضاعتنا رُدّت الينا. ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم، وانما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لاحاجة لنا فيه».

□ لكن هذا الأمر كان معتمداً في الأندلس، فقد كانت كتب هناك كتب تعني بأدب المغرب، مثل كتاب **«مطمح الانفس»** للفتح بن خاقان: وكتاب **«الذخيرة»** لابن بسام، وكتاب «نفح الطيب» للمقّري، كما **كانت هناك كتب تنشر في المغرب أيضاً وتُعنى بادب المشارقة، مثل كتاب «الامالي» لأبي علي القالي، وفي هذا الاتجاه كان كتاب ابن**

عبد ربه «العقد الفريد».

□ وقد مرّت كتب المجاميع بمراحل قبل العقد، اذ نشأت ساذجة لا يُعنى فيها بالاختيار مثل كتاب «الكامل» للمبّرد و «البيان والتبيين» للجاحظ، ثم ارتفعت الى نوع من الكمال والترتيب مثل كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، وقد كان الجاحظ والمبرّد مثلاً يعنيان بالنتاج العربي فقط، والجاحظ بينهما يهتم بالأحداث الاجتماعية بينما المبرّد يهتم بالمسائل النحوية والصرفية.

□ اما كتاب العقد فقد كان مختلفاً ومتميزاً بما يلي:

* صاحب العقد: ابن عبد ربه، رجل يملك من الذوق الأدبي والفني ما يؤهله للاختيار، فهو واسع الثقافة، نديم الامراء، عليم بالمذاهب والفرق. شغوف بالموسيقى والغناء، ميال الى التاريخ، حافظ للأخبار والانساب، شاعر مجرّب.

* يقول ابن عبد ربه عن منهجه في وضع كتابه، فيذكر: «انه تخيرّه من متخيّر جواهر الادب ومحصول جوامع البيان، وان ليس له الاّ تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدرر كل كتاب، وانه تطلّب نظائر الكلام واشكال المعاني فقرن كل جنس منها الى جنسه، وجعل كل جنس بابا على حده، وانه عمد في اختياره من جملة الأخبار وفنون الآثار الى اشرفها جوهراً، واظهرها رونقاً،. وألطفها معنى، وأجزلها لفظاً، وأحسنها ديباجة، واكثرها طلاوة وحلاوة، وانه حذف الأسانيد طلباً للاستخفاف والايجاز، وانه رأى الكتاب قبلة قاصرة فجعل كتابه كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه الخاصة والعامة، وانه أتبع ذلك بشواهد من الشعر تجانس الأخبار، وقرن بها غرائب شعره».

* ويقدّم ابن عبد ربّه لكل باب في عقدة بمقدّمة لطيفة الاسلوب جيدة المعاني، ويتبع الباب بما ينشئه من شعره، ويشيع في الكتاب آراءه في نقد ما ينقل. وهو بين مؤيد ومخالف يورد اسباب الاستحسان والاستهجان..

□ طبع العقد الفريد مرات في القاهرة وبيروت، ووضعت فيه الشروحات والدراسات، وهو متداول جداً في سبعة اجزاء، يتضمن الجزء السابع فهارس عديدة مفصّلة للموضوعات، والأرجاز، والأشعار، والكتب، والامثال، والايام، والامكنة .والأعلام، والاحاديث، والايات الكريمة.

ومنه في الجزء الثالث، كتاب «الياقوتة في العلم والأدب» ـ تحت عنوان الشباب والصحة، ص ٤٦ وما بعدها: «قال ابو عمرو بن العلاء: ما بكت العربُ شيئاً وما

بلغت به ما يستحقه، وقال الأصعمي: أحسن أنماط الشعر المرائي والبكاء على الشباب، وقيل لكثّير عزة: مالك لا تقول الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما اطرب، ومات عبد العزيز فما أرغب، وقال ابن أبي حازم:

ولّى الشباب فخلّ الدمع ينهمل
فقْدُ الشباب بفَقْد الروح متصلُ
لا تكذبنّ فما الدنيا بأجمعها
من الشباب بيوم واحد بَدَلُ

وقال جرير:

ولى الشبابُ حميدةً ايامهُ
لو كان ذلك يُشترى أو يُرجَعُ

ومن قولنا فيه:

قالوا شبابُك قد مضت ايامُه
بالعيش قلتُ وقد مضت أيامي
لله! اية نعمةٍ كان الصبا
لو أنها وصلت بطول دوام

قال النبي ﷺ: غيّروا هذا الشيب [وجنّبوه السواد]. وكان أبو بكر يخضّب بالحناء والكتم [نبت يخلط بالحناء فيبقي لون الشعر] وقال مالك بن اسماء بن خارجة لجاريته: قومي اخضبي رأسي ولحيتي، فقالت دعني، قد عييت بما أرقّعك، فقال مالك بن أسماء:

عيّرتني حلقاً أبليتُ جدّتَه
وهل رأيت جديداً لم يعُدْ خَلَقاً

ودخل ابو الأسود الدؤلي على معاوية [وفي نسخة أخرى على عبيدالله بن زياد] وقد خضب فقال: لقد أصبحت يا أبا الأسود جميلاً، فلو علّقت تميمة، فأنشأ ابو الاسود يقول:

أفنى الشبابَ الذي فارقتُ بهجته
مَرُّ الجديدين من آت ومنطلق[الليل والنهار]
لم يُبقيا لي في طول اختلافهما
شيئاً يُخاف عليه لذعه الحدق

ودخل معاوية على ابن جعفر يعوده، فوجده مفيقاً [رجعت صحته اليه] وعنده جارية في حجرها عود، فقال: ما هذا يا ابن جعفر؟ قال: هذه جارية اروّيها رقيق الشعر فتزيده حسناً بحُسن نغمتها، قال: فلْتقل. فحركت عودها وغنّت، وكان معاوية قد خضب:

أليس عندك شكرٌ للتي جعلتْ
ما ابيض من قادمات الريش كالحممِ
وجَدَّت منك ما قد كان أخلقه
ريبُ الزمان وصرْف الدهر والقدمِ

فحّرك معاوية رجله، فقال له ابن جعفر: لم حرّكت رجلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كل كريم طروب. وقال النبي ﷺ: من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة، وقال ابن أبي شيبة: نهى رسول الله ﷺ عن نتف الشيب، قال: هو نور المؤمن...»

المصادر: العقد الفريد لابن عبد ربه، القاهرة: ١٩٥٢ ـ ابن عبد ربه، فؤاد افرام البستاني، الروائع رقم ٨ ـ ٩.

ابن قتيّبة

(٨٢٨م - ٨٨٩م)

□ عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كنيته أبو محمد. ولد في الكوفة - على الأرجح - ونشأ في بغداد. وكانت بغداد في عهده تشهد حركة فكرية مزدهرة، فاستفاد ابن قتيبة منها، وقد تلقّى معارف عصره من علمائها وشيوخها، فأخذ الحديث عن اسحق بن راهويه، والنحو عن ابي حاتم السجستاني، وحضر مجالس المناظرات بين المعتزلة وأهل السنة، فألم بعلم الكلام والفلسفة، ونبغ واشتهر.

عيّن ابن قتيبة قاضياً لمدينة دينور الفارسية فقضى مدّة يحكم ويُفتي ويتصل يجماعة فيها من المحدثين ومشاهير العلماء. ثم انتقل الى بغداد فدرّس فيها.

كانت بغداد، حين وصلها ابن قتيبة تنتصر لأهل السنة على اهل المعتزلة، وكان الحكم للمتوكل، فانبرى ابن قتيبة يدافع عن السنة ويكيل للمتكلمين وآرائهم مستشهداً بما يعرفه من منطق وفلسفة، ولما كان ملمّاً بالفارسية أيضاً ومطلعاً على الكتب السماوية الأولى، فقد استخدم اسلحته كلها في مجادلاته. وقد بقي ابن قتيبة يدْرّس ويكتب ويناظرحتى وافية المنية فجأة، فدفن في بغداد.

□ قال ابن قتيبة في نفسه: «وقد كنت في عنفوان الشباب وتطلب الأداب أحب أن أتعلّق من كل علم بسبب. وان اضرب فيه بسهم، فربما حضرت بعض مجالسهم، وانا مغتربهم طامع أن أصدر عنه بفائدة او كلمة تدل على خير أو تهدي لرشد، فأرى من جرأتهم على الله تعالى، وقلّة توقيهم، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس او لئلا يقع انقطاع، ما أرجع منه خاسراً نادماً». ولما تمكن من العلوم العقلية والنقلية، وقويت حجته، استطاع مقارعة المتكلمين.

ورغم ان امثال ابن تيمية اعترف بقدرة واعتبره ممثّلاً لأهل السنة في زمانهم، بل إمامهم، فإن البعض الآخر اتهمه وسفّه آراءه.

□ وضع ابن قتيبة مؤلفات عديدة انتصر

فيهـا للمـذهب السنّي وللمحـدّثيـن في مناهجهم، واهمـهـا: «تأويل مختلف الحديث» و «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة» و «المسائل والاجوبة». وقـال الحافظ الـذهبي في مؤلفاتـه حـول الحـديث: «ابو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية، [وهو] من اوعية العلم، لكنه قليل العمل في الحديث» لـه: «غريب الحديث» «اصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد». وكان يذهب في الفروع مذهب أحمد بن حنبل وقد عاصره، قال ابن تيمية: «وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد».

□ **ابن قتيبة اللغوي**: اخذ ابن قتيبة عن السجستـاني تلميـذ الأصعمي، وروى عن الكوفيين واخذ عن البصريين، قالـه فيه ابن النديم: «انه كان يغلو في البصريين الّا انـه خلط في كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو».

وكان الى جانب علمه باللغة اديباً، جامعاً لمعارف عصره: يروي الأخبار بعد التدقيق، ويحسن الاختيار في ما يستشهـد به. وينقـد محكماً المنطق، دون ميل للتعنّت اللغوي، وكان ذوّاقة، يعود الى حسّه في الحكم اكثر من تحكيمه القياس.

* مؤلفاته الأدبية قصد منها تعليم الناشئة وارشاد الكتبة وافادة المتأدبين، منها: «تحبيب اللغـة الى الـدراسين والشـادين» و «أدب الكاتب»، يقول في مقدّمة:

«اني رأيت كثيراً من كتّاب زمـاننا كسـائر أهله قد استطابوا الدّعة... فلما رأيت هـذا الشأن كل يوم الى نقصان، وخشيت ان يذهب رسمه، ويعفو أثره، جعلت له حظاً من غايتي وجزءاً من تأليفي، فعملت لمعقل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة وفي تقـويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن» وقد عدّ ابن خلدون كتـاب «ادب الكـاتب» من دواوين الأدب الأربعة، شرحه كثيرون وعلقوا عليه.

□ **ابن قتيبة الناقد**: وعُمـدَة كتبه هنـا، «الشعـر والشعـراء» وهـو من أهم كتب ابن قتيبة، ومن اوائل كتب النقد، في مقدّمته رسْمٌ لمنهـج النقـد المعـروف في عصـره مـع اجتهـادات جريئـة في مـواجهـة اللغـويين المتزمتين، ومقاييسهم النقدية.

* يشير في المقدمة الى منهجه فيقول:

ـ الشاعر هو من غلـب الشعرعلى نتاجـه، اي كان في المرتبة الأولى عنده.

ـ الشعر الجيد هـو الذي يتفق مـع مفهوم العصر الجمالي، فـالقيمة الفنيـة هي المعوّل عليهـا، ولا عبرة للمتقـدم أو للمتأخـر من الشعراء.

ـ ويجعل الشعر انواعاً، من حيث الفاظه ومعانيه، ويفصّلها ويدرسّها.

امّا بناء القصيدة، فيكون أولاً بذكر الديار والآثار والنسيب، استدعاء للاسماع ثم وصف الرحلة ومشاقها والدخول، من ثم، في موضوع القصيدة، «والشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدّل بين هذه الاقسام».

ـ ويشير الى الشعر المتكلف (مثل شعر زهير بن ابي سُلمى) والمطبوع، ثم يتكلم عن الأوقات التي تجود فيها القريحة.

ـ عيوب الشعر عنده تتصل بالصياغة، او الاعراب، ومنها ما يغفر للشاعر ومنها ما لا يغفر له. وفي كتابه يتبع المنهج التارخي، فيبدأ بشعراء الجاهلية ثم الاسلام. وقد ترجم لكثيرين، فأطال اوقعر حسب مكانة كل شاعر عنده، واعتمد في معلوماته عن الشعراءعلى ما سمع عنهم لذا فالمقدمة تظهر شخصية ابن قتيبة اكثر من فصول الكتاب يقول د. مندور: «فابن قتيبة لم يتناول النصوص ولا الشعراء بنقدفني تطبيقي وانما اكتفى بان عرض في مقدّمته لبعض المسائل العامة يحاول أن يضع لها مبادىء..».

لكن كتابه مهم في باب النقد، اذ كان خطوة متقدمة مهّدت لكتب النقد المتأخّرة.

* وقد تمّم كتابه هذا بواحد آخر هو «معاني الشعر»، وهو يشهد على مقدرة ابن قتيبة اللغوية، جمع فيه ذخيرة ادبية جيدة من الشعر القديم في موضوعات مختلفة، مع تفسيره لألفاظ غريبة، يمكنها ان تمثل معجماً خاصاً.

□ يعتبر ابن قتيبة عالماً ولغوياً ونقاده. قال فيه الخطيب البغدادي: «شهرته ظاهرة في العلم ومحلّه في الأدب لا يحقّر».

وقال ابن حزم «كان ابن قتيبة ثقة في دينه وعلمه».



المصادر: ابن قتيبة، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر: ١٩٦٥ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة. دار الثقافة، بيروت: ١٩٦٤.

ابن المقفّع

(٧٢٤م - ٧٥٩م)

□ عبدالله بن المقفّع، وكان اسمه روزبة قبل أن يسلم، كنيته ابوْ محمد وقيل أبو عمرو. ولد في جور ـ فارس ـ لُقّب ابوه بالمقفع لتشنّج أصاب يديه إثر تنكيل الحجاج به، يوم ولي امر العراق، لتهمة مدّ يده الى اموال الدولة، فعُرف ابنه بابن المقفّع.

درس ابن المقفع اللغة الفارسية قبل أن ينتقل الى البصرة، ليتعلّم العربية وآدابها فيتقنها مثل ابنائها. وكان لارتياده حلقات الأدباء، خاصة في سوق المربد« الشبيه بسوق عكاظ»، وعشرته لآل الاهتم بلغاء ذلك الزمان، ما جعله يملك ناصية العربية بياناً وأدباً. ولولا بلاغته لما استكتبه السفاح ثم اخوه أبو جعفر المنصور.

□ عاش ابن المقفع فترة انتقال الحكم من الامويين الى العباسيين، فرافق الأزمات السياسية والاجتماعية والاخلاقية التي عمّت البلاد. وكان له من اطلاعه ما هداه الى نوع من الكتابة الاصلاحية المباشرة وغير المباشرة، فاستعان ببلاغته ليجسّد فكره قصصاً ونصائح لا غنى للسياسي عنها، مفيدة لكل مثقف، ومُدلة على أحوال العصر لكل باحث في تاريخ تلك الفترة.

□ كان ابن المقفع ينظر دائماً الى مثال أعلى في كتاباته، وفي حياته الشخصية، فقد كان فاضلاً ونبيلاً، كريماً ووفياً، وفي كتبنا قصص عديدة تشير الى ذلك، منها:

ـ «بلغ ابن المقفع ان جاراً له يزمع على بيع داره لدين ركبه، وكان ابن المقفع يجلس في ظل دار جاره. فقال: «ما قمت اذن بحرمة ظل داره اذا باعها معدماً وبتّ واجداً» وقام فأتاه بثمنها ليدفع دينه».

ـ قال سعيد بن سلم وهو أحد معارفه: «قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحّب بي، وقال: ما تصنع هنا؟ قلت: ركبني دين، فقال: هل رأيت أحداً؟ قلت: رأيت ابن شبرمة فوعدني أن اكون مربياً لبعض اولاد الخاصة: فقال: اف! أيجعلك مؤدباً في آخر

عمرك؟ أين منزلك؟ فعرّفته. فأتاني في اليوم الثاني، وانا مشغول بقوم يقرأون عليّ. فوضع بين يديّ منديلاً، فاذا فيه اسورة مكسورة، ودراهم متفرّقة، مقدار اربعة آلاف درهم. فأخذت ذلك، ورجعت به الى البصرة، واستعنت به».

- «لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية استخفى عبد الحميد [بن يحيى الكاتب الشهير]، فعُثر عليه عند ابن المقفع، وكان صديقاً له. وفاجأهما الطلب [اي الرجال الذين يطلبونه]، وهما في البيت، فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: انا! خوفاً على صاحبه، الى أن عرف عبد الحميد وسلم»...

□ سئل ابن المقفع: من ادّبك؟ فقال: «نفسي، اذا رأيت من غيري حسناً أتيته، وان رأيت قبيحاً أبيته».

ولم يعش ابن المقفع طويلاً، فقد نقم عليه المنصور بعد مدة من اتصاله به، لكلام بلغة عنه في حقّه. فطلب من امير البصرة سفيان بن معاوية الاقتصاص منه، فاستقدمه ومثّل به وقتله، وعمره لم يتجاوز السادسة والثلاثين.

□ مؤلفاته:

* كليله ودمنه: كتاب وضعه الفيلسوف بيدبا لدبشليم ملك الهند. وقد جعله على ألسنة الحيوان ليكون ظاهرهُ لهواً للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخواص، وضمنّه ما يحتاجُه الانسان لسياسة نفسه، وأهله، وخاصته، وجميع مايحتاج اليه من أمر دينه ودنياه، ويحضّه على طاعة الملوك. ففي الكتاب موضوعات منها: ادب النفس، ادب الصداقة، ادب الرعية، أدب الملوك..

ويضم الكتاب اربعة ابواب بمثابة مقدمة، ثم يلي خمسة عشر باباً، تبتدىء بباب الثور والأسد، وتنتهي بباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

وقد نقل الكتاب من الهند الى فارس بطلب من كسرى انو شروان، ثم ترجمه ابن المقفع الى العربية، ولما ضاع الأصل الفارسي ترجمه الفرس عن العربية، بث ابن المقفع فيه الروح الاسلامية والعربية، فزاد وتصرّف. مثل قوله: «واضمرت في نفسي ان لا ابغي على احد ولا اكذب بالبعث والقيامة والثواب والعقاب وان لا اله الا الله الفرد الصمد». وفي باب الفحص على أمر دمنه أبي ان يصدر الحكم بالقتل الاّ بشهادة شاهدين، لأن شهادة واحدة في الشرع الاسلامي لا توجب حكماً.

اسلوب ابن المقفع في كليلة ودمنة من

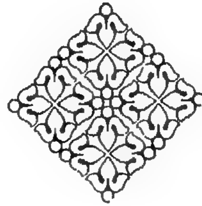
السهل الممتنع، الذي ينساب مع الطبع فلا يشوبه تعقيد ولا تعيبه خشونة ولا غرابة، وعرّف بلاغته بنفسه: البلاغة هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يُحسن مثلها.

* **الأدب الكبير**: وهو قسمان، قسم يختص بالسلطان والمتصلين به، وقسم يختص بالصديق، وفي كتابه تشيع عناصر ثقافية مختلفة: يونانية وهندية وفارسية وعربية. والكتاب في مجمله دروس في الأخلاق والاجتماع وحسن الادارة. وقد كتبه ابن المقفع كتابة خبير وأديب، وراصد للأحداث ومستوعب لثقافات عصره.

* **الأدب الصغير**: وهو مجموعة دروس في الأخلاق غايته تهذيب النفس وترويضها على معرفة الخالق وممارسة الأعمال الفاضلة. ويكون ذلك بطلب العلم والتواضع ومحاسبة النفس. وقد صاغ الكتاب باسلوب العربي الذي اختمرت في ذهنه حكم ومعانٍ غنية. قال في كتابه: «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها، واحياء للتفكير، واقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق».

* **رسالة الصحابة**: عرض فيها للقضايا الاجتماعية في عصره، وهدف منها اصلاح المجتمع سياسياً واقتصادياً واخلاقياً، وقد نقل فيهاشيئاً من حضارة الفرس لما يتلاءم مع المجتمع الاسلامي العربي.

□ يعتبر ابن المقفع في رأس مدرسة النثر الأولى، هو كاتب عبقري في ما الف وفي ما نقل، وان تحامل عليه البعض يبقى اديباً مميزاً في سلسلة عباقرة الاسلام.



المصادر: المجموعة الكاملة لابن المقفع، مكتبة البيان، بيروت: ١٩٧٠ - كليلة ودمنة، الاب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت: ١٩٥٧.

ابن منظور

(١٢٣٢م - ١٣١١م)

□ محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور الأنصاري الافريقي ثم المصري. كنيته أبي الفضل. ولد بمصر ودرس فيها ونبغ في اللغة والأدب وعلوم عصره فسمع من ابن المقير ومرتضى بن حاتم وعبد الرحيم بن طفيل ويوسف بن المخيلي. وكان مولعاً بالقراءة والبحث. خدم فترة في ديوان الانشاء في القاهرة، ثم ارتحل الى طرابلس وولي القضاء فيها، قبل أن يستقرّ في مصر أخيراً، ويتفرّغ للقراءة والكتابة.

□ قال فيه ابن حجر العسقلاني: «. . . وعمّر وكبّر وحدّث فأكثروا عنه، وكان مغرى باختصار كتب الأدب المطوّلة، اختصر الأغاني والعقد والذخيرة ومفردات ابن البيطار والتواريخ الكبار، وكان لا يملّ من ذلك».

□ وقال الصفدي: «لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطوّلاً الاّ وقد اختصره، واخبرني ولده قطب الدين انه ترك بخطّه خمسمائة مجلّدة، ويقال ان الكتب التي علقها بخطه في مختصراته خمسمائة، قلت: وجمع في اللغة كتاباً سماه «لسان العرب» جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح والجمهرة والنهاية وحاشية الصحاح [وهي معاجم لغوية تمثّل مصادر كتابه] جوّده ما شاء، ورتبه ترتيب الصحاح، وهو كبير. انشدني لنفسه:

ضع كتابي اذا أتاك الى الأر
ضِ وقلّبه في يديك لماماً
فعلى خِتمه وفي جانبه
قُبَلٌ وقد وضعتهن تؤاماً

□ قال فيه الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي:

«. . . وكان صدراً رئيساً فاضلاً في الأدب مليح الانشاء روى عن السبكي والذهبي وقال تفرّد بالغوالي، وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة، اختصر تاريخ دمشق في نحو ربعه. مات في شعبان سنة ٧١١ هـ».

□ يعتمد منهج «لسان العرب» على تناول

الألفاظ الثلاثية في أبواب مرتبة تبعاً لآخر حرف في اللفظة، بينما في كل مجلد يعود الى ترتيب الألفاظ حسب اوائلها: فمجلد حرف «ل» يحوي الألفاظ التي تنتهي باللام، ومجلد حرف «ف» يحوي الألفاظ التي تنتهي بالفاء أمّا ترتيبها في داخل مجلد «ف»، فكما يلي: حسف ـ حصف ـ خلف ـ دغف ـ سكف ـ سلف ـ شأف ـ هدف... ويحشد ابن منظور لكل لفظة مشتقاتها مع شواهد على كل معنى من القرآن والحديث والشعر والأمثال، وتحت لفظة شرف في مجلد «ف»، من صفحة ١٦٩ حتى ١٧٤ نقرأ:

شرف: الشّرف: الحسب بالاباء، شرُف يشْرُفُ شرفاً وشرْفَة وشَرْفَةً، وشرافة، فهو شريف، والجمع اشراف. والشرف والمجد لا يكونان الاّ بالاباء. يقال: رجل شريف ورجل ماجد.. والشرَف: مصدر الشريف من الناس. وشريف واشراف مثل نصير وأنصار وشهيد وأشهاد. واستعمل ابو اسحق الشرَف في القرآن فقال: اشرفُ آيةٍ في القرآن آيه الكرسي. وشارفت الرجل، فاخرتُه، وفي الحديث: ان النبي ﷺ قال: «ما ذئبان عاديان أصابا فريقة غنم بأفسدَ فيها من حبّ المرء المالَ والشرف لدينه». يريد انه يتشرف للمباراة والمفاقرة والمساماة. الجوهري: وشرّفه الله شريفاً وتشرف بكذا. وشرَّف العظم اذا كان قليل اللحم فأخذ لحم عظم آخر ووضعه عليه، وقول جرير:

اذا ما تعاظمتم جعوراً فشرّفوا
جحيشاً، اذا آبت من الصيف عيرها

قال ابن سيده في معناه: اذا عظمت في اعينكم هذه القبيلة من قبائلكم فزيدوا منها في جحيش هذه القبيلة الذليلة، فهو على نحو تشريف العظم باللحم. والشرفُ من الأرض: ما اشرف لك، ويقال: اشرف لي شرفٌ فما زلت اركض حتى علوته، قال الشاعر:

آتي الندي، فلا يقرّب مجلسي
وأقود للشرف الرفيع حماري

وفي حديث ابي طلحة رضي الله عنه: انه كان حسن الرمي فكان اذ رمى استشرفه النبي ﷺ لينظر الى مواقع نبله اي يحقّق نظره ويطلع عليه. والاستشراف: ان تضع يدك على حاجبيك وتنظر...

المصادر: لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

ابو تمّام

(٧٨٨ م - ٨٤٥ م)

□ حبيب بن أوس الطائي، كنيته ابو تمام. ولد في «جاسم»، وهي قرية قرب دمشق. وكان ابوه عطّاراً في دمشق، ما لبث ان أخرج ابنه من كتّاب القرية وأودعه عند حائك من معارفه لتعلم مهنته.

وقد تفتقّت موهبة ابي تمّام الشعرية باكراً، فعقد الآمال على بلوغ المجد سريعاً، وهكذا ترك عمله في دمشق وارتحل الى مصر. وفي القاهرة التي نزلها، تردّد على جامع عمرو، يسمع من اساتذته، كما كان يزيد من اطلاعه وثقافته بارتياد مجالس العلماء والشعراء. قال فيه ابن خلكان: «اخذ في تحصيل الشعر فحفظ اربعة عشر الف ارجوزة غير القصائد». ويقول الباحثون في فنّه: ان ديوانه يُنبىء باطلاعه العميق على القرآن الكريم وكتب التاريخ والفقه والنحو.

□ اول من مدحه في مصر كان عيّاش بن لهيعة، ومما قاله في قصيدته الأولى متوجّهاً به الى لائمته:

أحاولتِ ارشادي فعقلي مرشدي
ام استمْتِ تأديبي فدهري مؤدّبي

كان طريّ العود، يكشف في هذا البيت عن ايمانه بجهوده وكفاحه طوال الحياة، وقد كانت هذه القصيدة بداية طيبة نال عليها خمسة آلاف درهم من عياش، لكن العلاقة ما لبثت ان ساءت بينهما فهجاه، ثم قرأنا عن مهاجاته الشاعريوسف السرّاج، وربما لكونه أحد «الجماعة التي أفسدت بينه وبين عياش». وقد عاب على السرّاج حبه للغريب، ويظهر انه تأثر به فيما بعد، لا سيما وانه كان في دور الاعداد وتقبّل المؤثرات، ثم تنقل ابو تمام في مصر، فمكث خمسن سنوات في الاسكندرية، قبل ان يغادرها.

□ نزل ابو تمام في الشام فمدح ابا المغيث في قصائد يبدو فيها المدح والاستجداء، منها:

كن مآبا ابا المغيث فما زل
تَ مآباً يأوي اليكم الجريضُ

وكان امله ان يصله بالكثير من المال، ثم عنّ لـه ان يـطلب منه وظيفـة، فـأمهله ابـو المغيث، فعاتبه ابو تمام ثم هجاه، وتمرّ فترة غامضة في حياة أبي تمام، قد يكون أمضاها بين الشام والعراق مشتغلاً بالتأليف وهذا مـا اشار اليه الآمـدي: «كان ابـو تمام مشتهـراً بالشعر، مشغوفاً به مدة عمرة بتخيره ودراسته، وله كتب واختيارات مشهورة منها: الاختيـار القبـائلي الاكبر، اختيـار المقـطعـات، وهـو مبّوب على ترتيب الحماسة، اختيار مجرّد في اشعار المحدثين. . .».

□ وفي العـراق، ابتـدأت افضـل ايـامـه وأخصبها، وفيها قال أفضل شعره، بدأه برثاء محمد بن حُمَيد الطوسي وهو بـطل قتل في حرب بابك الخرمي. قال البديعي: «ان ابا تمام لما بلغه خبر قتله غمس طرف ردائه في مـداد ثم ضـرب بـه كتفيـه وصـدره وانشـد القصيدة:

كـذا فليجـلّ الخـطبُ وليفـدح الأمـرُ
فليسَ لعينٍ لـم يَفِضْ مـاؤهـا عـذرُ
تُـوفّـيت الآمـال بـعـدَ محـمـد
وأصبـح في شغل عن السفـر والسفْرُ

ثم اتصل، وهو في العراق، بأبي سعيد الثغري احد قواد الطوسي، ومهدي بن أصرم. وقد تأثّر بالمعـارك التي خاضهـا الابطال في معركة بابل، ممّا أعطى شعره، فيما بعد، لوناً جديداً، كما مدح خالد بن يزيد بطل المعارك ضـد الروم، ثم كـانت اول قصيدة مـدحيـة بخليفة قالها في المأمـون، وحشد فيهـا كل زخرف وصناعة، مطلعها:

كُشف الغـطاء فـأوقـدي أو أخمـدي
لمْ تكمـدي فـظننتُ انْ لم تكمـدي

ثم أتبعها بقصيدة اخرى افضل منها بكثير، بدأها واصفاً الربيع:

رقّتْ حـواشي الـدهـرِ فهي تَمَـرْمَـرُ
وغـدر الثـرى في حلْيـه يتكسَّـرُ
نزلت مقـدمـة المـصيف حميـدةً
ويـدُ الشتـاء جـديـدة لا تُكْـفَـرُ
لـولا الـذي غـرس الشتـاءُ بكفـه
قـاسى المصيفُ هشائمـاً لا تثمـرُ

وكـرّت سبحـة القصـائـد المـوفقـة في المـأمـون، وفيهـا الغـزل ووصـف المعـارك والتاريخ.

□ وفي خراسان، التي قصـدها بعـد وفاة المأمون، مدح ابن طاهر ثم غاضبه فراضاه. وانتقل الى اذربيجان ثم عاد الى خراسـان، وقصائده في رحـلاته عـديدة، نـاضجة غير متكلفة تجري في أريحية وطلاوة.

□ وعـاد ابو تمـام الى بغداد، والمعتصم

خليفة، فاذا بتيوفيل ملك الروم يخرج بجيش ضخم الى بلاد المسلمين، فيوقع بأهل زبطرة، فيقتل الرجال ويسبي النساء، ويثور الرأي العام الاسلامي، وحين بلغ المعتصم ان امرأة هاشمية صرخت وهي اسيرة في ايدي الروم: وامعتصماه، اجابها وهو في سريره: لبيك لبيك! ونهض ونادى: النفير، النفير! ثم ركب دابته، وأوصى وخرج للمعركة.

سار ابو تمام في جيش المعتصم، حتى دخل آسية الصغرى، وسار الجيش العربي حتى عمّورية، فحاصرها حتى وقعت فقال فيها ابو تمام قصيدته العصماء ومطلعها:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجدِ واللعبِ
بيضُ الصفائح لاسودُ الصحائف في
متونهن جَلاءُ الشك والريبِ

وقصّ في قصيدته شأن المعركة كلها، جاعلًا من فنّه خادماًللواقع بلا تزييف، وذلك في أجمل اسلوب وأروع عبارة، ذكر فيها تكذيب المعتصم للمنجمين الذي نصحوه بتأخير فتح عمورية، وذكر تلبية المعتصم للسيدة الهاشمية:

لبّيت صوتاً زبطرياً هرقت له
كاس الكرى ورُضاب الخرّد العُرُب

وأشار فيها للحريق الكبير، مخاطباً المعتصم:

لقد تركت أمير الؤمنين بها
للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

□ وعاد أبو تمام الى سامرا، واتصل بابن ابي دؤاد وابن الزيات، ووصف ثورة العباس بن المأمون. ثم ظهر في الشام وفي سامرا يصف ويمدح ويرثي، واستقّر ثانية في العراق، ليقول كثيراً في ابن ابي دؤاد بين مدح وخصام واعتذار. ثم سكن مع اهله الموصل حتى توفي، فرثاه وابن الزيات:

نبأ اتي من اعظم الانباء
لما ألمّ مقلقلُ الاحشاء
قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم
ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

شعر ابي تمام مصطبغ بالدم كما كان عصره، فهو ثمرته بخيره وشرّه، فأجمل شعره ما قاله في الحرب والخراب والحريق.

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً
يشلّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها او كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخانٍ في ضحى شحبِ

فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلتْ
والشمس واجبةٌ من ذا ولم تجبِ

□ كان ابو تمام مولعاً بالحياة يتعشّقها ويتحسّس مظاهرها، فيرى ويبصر ويلاحظ، وتلحقه نفسه فتحب وترتعب وترتعش. حرّكه الحقد والتاريخ والبطولة والموت والانتصار. وقد يقال ان شعره مادي، قرّب بينه وبين الجسدية وباعد بينه وبين المثالية، نعم فالعصر، كان عصر إغراق في كل شيء وتهالك على كل شيء. احسّ بجمال الطبيعة، فأدخله في كثير مما نظم. قال في جواد:

يدٌ يُستندَلّ الدهرُ من نفحاتها
ويخضرُّ من معروفها الأفُقُ الوردُ

ودعا لدار حبيبته فقال:

لا مرّ يومٌ واحدٌ الاّ وفي
احشائه لمحِلّتيك غمامُ

حتى تُعمَّم صُلْعُ هامات الربا
من نوره وتأزّر الاهضامُ

□ أرّخ ابو تمام لعصره وأحسن تصويره رجالاً وأحداثاً كباراً، ساح في البلاد الاسلامية، حواضرها وثغورها ولم يفته خدث مهم جرى فيها. فهو حلقة في تاريخ الامة وموثق شعري لها.

□ شعره يجري فيه الفكر والشعور معاً لا يفترقان: حس رقيق ومعنى عميق متغلغل الى وراء الظواهر. وقد اكثر من الصور المخترعة، وان رغب الغريب من المعاني، فاللفظ عنده مظهر مركّب يعتني به ويتوخى الصنعة في اختياره احياناً.

□ بوأه البعض منزلة كبير الشعراء. فقد بلغت الفكرة الشعريه عنده اوجها، ولما وصلت المتنبي التبست عنده بالفلسفة.



المصادر: أبو تمام الطائي، نجيب محمد البهبيتي، القاهرة: ١٩٤٥ ـ الديوان ـ م. الوهبية ١٢٨٢ هـ ـ ديوان الحماسة، م. التوفيق، مصر: ١٣٢٣ ـ أخبار ابي تمام ابو بكر الصولي، ذخائر التراث، بيروت: ١٩٨٠.

ابو فراس الحمداني

(٩٣٢م - ٩٦٨م)

□ الحارث بن سعيد بن حمدان، كنيته ابو فراس ولد في الموصل واغتيل والده وهو في الثالثة من عمره على يد ابن اخيه جزاء طموحه السياسي، الاّ ان سيف الدولة احاط ابن عمه ابا فراس بالرعاية، وأنساه الجريمة وشبح اليتيم.

تنقّل ابو فراس مع امه في مواطن الحمدانيين قبل ان يستقرّ في منبج. وقد تعهّده فرسان وادباء فثقفوه ودرّبوه، لكن الفضل الكبير في تنشئته يعود للبلاط الحمداني في حلب. وما لبث سيف الدولة ان ولى ابا فراس على منبج. فانقطع لرصد تحرّكات الروم والبدو معاً، وقد أبلى في ذلك حسناً.

ويشاء القدر أن يقع ابو فراس اسيراً في يد الروم إثر معركة غير متكافئة، فينقله الروم الى خرشنة ثم الى القسطنطينية ويبقى في الأسر اربع سنوات (وقيل سبع سنوات)، حتى افتداه سيف الدولة، وفي الأسر قال أجود قصائده، وهي المعروفة بـ«الروميات»، ومراحلها هي:

* نقل جريحاً الى خرشنة فقال معزياً نفسه:

ان زرتُ خرشنةً اسيراً
فلقد حللت بها مغيراً

وأتى من أخبره ان الروم مستعدون لاطلاق سراحه إذا وافق سيف الدولة على اطلاق سراح ابن اخت ملك الروم. فكتب الى سيف الدولة طالباً نجدته:

دعوتك والابواب ترتجّ دوننا
فكن خير مدعوٍ واكرم منجد
فمثلك من يدعى لكل عظيمة
ومثلي من يُفدي بكل مسوّد

لكن سيف الدولة رغب بافتداء جميع الاسرى معاً، دون تمييز ابن عمه عنهم، فداوم أبو فراس على الكتابة شاكياً، لائماً ومفتخراً، علّ سيف الدولة يلين ويعجّل بافتدائه:

- سيذكرني قومي اذا جدّ جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
- وان وراء الستر اماً بكاؤها
عليّ، وان طال الزمان، طويل

* وكانت علاقته بامه قوية، وهي التقّية الصبورة، فكتب اليها مراراً يخفّف من لوعتها ووحدتها:

عليلة بالشام مفردة
بات بايدي العدى معللها
تُمسك احشاءها على حُرق
تطفئها، والهموم تشعلها

وكتب الى سيف الدولة معاتباً ردّه لامه خائبة، وقسا عليه احياناً لتنعّمه دونه، مستنبطاً الحيل لحمله على افتدائه، دون جدوى وماتت امه، فرثاها باكياً:

يا ام الاسير سقاكِ غيث
بكرةٍ منك ما لقي الأسير
وقد ذقت المنايا والرزايا
ولا ولد لديك ولا عشير
نسلّى عنك انا عن قليل
الى ما صرتِ في الاخرى نصير

* وطلب ابو فراس من ابن عمه ان يسمح له بمكاتبة اهل خراسان ليفادوه، فاجابه سيف الدولة: ومن يعرفك بخراسان، فالّم الجواب ابا فراس وكتب اليه يقول:

فلا تنسبنّ اليّ الخمولَ
عليك أقمت فلم اغتربْ
واصبحت منك فان كان فضل
وان كان نقص فأنت السبب
وان خراسان ان انكرت
علاي، فقد عرفتها حلب

ثم اتفق ابو فراس مع ملك الروم على طريقة لمبادلة كبار الاسرى، وكتب لاميره بذلك مراراً، فلم يلق سوى التعنيف:

تنكّر سيف الدولة لما عتبته
وعرّض بي تحت الكلام وقرّعا

* ولما تأكد الروم من رفض سيف الدولة افتداء ابن عمه نقلوه الى القسطنطينية، وصار مع ثلاثة الآف اسير ينتظرون، فنظم ابو فراس بائيته الشهيرة:

اما لجميل عندكن ثواب
ولا لمسيء عندكن متاب
بمن يثق الانسان في ما ينوبه
ومن اين للحرّ الكريم صحاب

□ وأخيراً رضي سيف الدولة فافتدى ابا فراس والثلاثة آلاف اسير بستمائة الف دينار رومية، فقال ابو فراس:

وهل غضّ مني الاسر اذ خفّ ناصري
وقلّ على تلك الامور مساعدي

الا لا يُسرُّ الشامتون، فانها
مواردُ آبائي الاولى. وموارِدي

وتناسى ما بينه وبين ابن عمه، فولّاه على حمص، قبل ان يتوفى بأشهر.

□ كان ابن سيف الدولة صغيراً، فجعل غلامه التركي فرعويه وصياً عليه، وحدّثت أبا فراس نفسُه في الاستيلاء على الحكم، لكنه سقط قتيلاً في اول اشتباك مع فرغويه، ويُروى انه خاطب ابنتيه عند موته قائلاً:

أيبنيتي لا تجزعي
كل الانام الى ذهاب
نوحي على بحسرة
من خلف سترك والحجاب
قولي اذا كلمتني
وعَييت عن ردّ الجواب
زين الشباب ابو فراس
لم يمتع بالشباب

□ قال الثعالبي: «وشعره مشهور وسائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك» تأثر ابو فراس باسلافه الاقدمين، كما تأنّق بألفاظه، وتكلّف اوجه البيان احياناً. وهو لم يقل الشعر تكسباً، لذا له «الفخريات التي لا تعارض والاسريات التي لا تناهض».

وقال فيه الصاحب بن عباد: «بُدِىء الشعر بملك وخُتم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس. وقال ابن رشيق: «اما ابو الطيب المتنبي فلم يُذكر معه شاعر الا ابو فراس وحده، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه».


اطلال من قلعة حلب

المصادر: أبو فراس الحمداني، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت: ١٩٦٦ ـ ديوان أبي فراس، مطبعة صادر، بيروت. ـ ابو فراس الحمداني، محسن الأمين، م. امية، دمشق: ١٩٤٥.

الاصبهاني

(٨٩٧م - ٩٦٦م)

□ علي بن الحسين بن محمد الاصبهاني، يتصل نسبة بعبد مناف، فهو من بني امية، من ولد محمد بن مروان بن الحكم، ولد في اصبهان، في خلافة المعتضد بالله، في السنة التي توفي فيها البحتري. نشأ في بغداد واستوطنها، واتصل فيها بأقطاب الأدب والحديث واللغة والرواية والنحو، ومنهم: ابو بكر بن دريد، ابو بكر بن الأنباري، الفضل بن الحباب الجُمحي، علي بن سليمان الأخفش، نفطويه، محمد بن جرير الطبري، محمد بن خلف بن المرزبان، جعفر بن قدامة، الحسن بن محمد، عبد العزيز بن أحمد، حتى صار زعيماً للحياة الأدبية الناشطة ببغداد، وقد عاش اديباً وجوّالاً، ونال رعاية سيف الدولة واسماعيل بن عباد والمهلبي وهما من وزراء بني بويه، واتصل بأهل العلم والفضل والأدب، يصاحبهم ويتتلمذ عليه شيوخهم، امثال: الدارقطني، ابو زكريا الأندلسي، ابو الحسين علي بن محمد، الباقرحيّ، ابراهيم بن أحمد بن محمد الطبري، الرزاز.

□ كان نزيهاً، خلوقاً، لكنه كان وسخاً في نفسه وفي ثوبه ونعله، اكولاً نهماً، وكان اصحابه يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصبرون في مجالسه ومعاشرته. ومن جهة اخرى. كان موهوباً ملهماً، ساحر البيان، محدثاً لبقاً، وشاعراً مبدعاً، والمرجع الأول في عصره لأخبار العرب واشعارها وأيامها ومثالبها ووقائعها. وكان دقيق الخبر اذا ساقه. اماماً من ائمة النقد في الأدب يتتبع الشعراء حتى يعرف مصادر شعرهم، لكنه كان يميل الى الاعتدال في نقده ويكره الاسراف.

□ قال ياقوت: «وتصانيفه كثيرة، وهذا الذي يحضرني منها: كتاب الأغاني الكبير، كتاب مجرّد الأغاني، كتاب التعديل والانتصاف في اخبار القبائل وانسابها، كتاب مقاتل الطالبيين، كتاب أخبار القيان، كتاب

الاماء الشواعر، كتاب جمهرة الانساب... وله بعد تصانيف جياد فيما بلغني كان يصنّفها ويرسلها الى المسؤولين على بلاد المغرب من بني امية وكانوا يحسنون جائزته».

□ وصلنا البعض من هذه الكتب، ووقفنا على شيء من نثره وشعره وروايته وقصّه لكن اهم كتاب له، هو «الأغاني».

□ ويعرّف الوزير الصاحب بن عباد **بكتاب الأغاني**، فيقول:

ألف ابو الفرج الأصبهاني كتابه الاغاني في ايام سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وأهداه اليه فأعطاه ألف دينار، ولما حدّث الوزير الصاحب بن عباد بذلك قال: «لقد قصّر سيف الدولة، وانه ليستحق اضعافها، اذ كان كتابه مشحوناً بالمحاسن المنتخبة، والفقر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة، وللعامل مادّة وزيادة، وللكاتب والمتأدّب بضاعة وتجارة، وللملك طيبة ولذاذة، ولقد اشتملت خزائني على مائة الف وسبعة عشر الف مجلد ما فيها سميري غيره ولا اقتني سواه. ولقد عنيت بامتحانه في أخبار العرب وغيرهم فوجدت جميع ما يعزب عن اسماع قرفة [اتهمه]، بذلك قد اورده العلماء في كتبهم ففاز بالسبق في جمعه وحسن رصفه وتأليفه. ولله درّ أبي الفرج، فقد أبقى له به ذكراً لايُنسى، وبسط نمرقة لا تبلى، ولقد جمل الدنيا بفضله الذي أظهره فيه، فهو حقيق بتسميته الحاوي لا الأغاني». وقد سلخ في كتابته خمسين سنة.

□ جمع كتاب الأغاني اخبار العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، واخبار الدولتين، الاموية والعباسية، وذكر الكثير من الرسائل والقصائد، والخطب والقصص، والفوائد التاريخية والطرائف الأدبية. وهو فريد في جمعه تراجم اكثر المغنين في صدر الاسلام، والدولتين الاموية، والعباسية، وجمعه الاغاني العربية قديمها وحديثها. وانفرد بذكر الغناء العربي وقواعده وآلات الطرب والموسيقى التي استعملت وشاعت في أيامه.

□ خصائصه: احاط الاصبهاني في كتابه بمفردات اللغة، فانتخب ما يناسب غايته ومذهبه في كتابه. وأحكم فقه اللغة بحيث لا يستعمل اللفظ الاّ في موضعه. وكثيراً ما نجد تراكيب خاصة عامية امثال: «هجم الشتاء... بختي انا.. استر علينا..» جارى الأصبهاني عصره في تطوّر اللغة ولم يجمد على حال، فاشتقّ الفاظاً جزلة المعاني، هذا من خصائص لغته. امّا خصائص فنه في الكتاب ففي رأسها الوصف، فهو يستطيع وصف انسان بلفظ واحد، وهو مقتصد في التصوير.

أوتي القــدرة على أن يجعــل بين الصفــة والموصوف صلة وثيقة، وبرع ابو الفرج في تـراجمه، كمـا برع في تصـوير الحـركـات والجلسات، اما لغته الشعرية فلم يلجأ فيهـا الاّ الى الصـور التي تقع عليهـا العين. وقد جعل عموماً، لكل مقام مقالا، فكل خبر نال مقامه في الرواية، معطياً كل ذي حق حقه.

□ وهذه مقتطفات من الاغاني.

* «كـانت متيّم يعجبهـا البنفسـج جـداً، وكان عندها آثر من كـل ريحان وطيب حتى انها من شدّة اعجابها به لا يكاد يخلو من كمها الريحان، ولا تراه الاّ كما قطف من البستان».

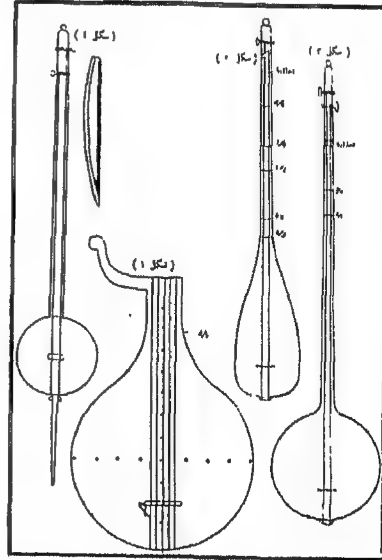
* لمـاً ولي الوليـد بن يزيـد لهج بـالغناء والشراب والصيد، وحمل المغنين من المدينة وغيرها اليـه. وأرسل الى أشعب فجـاء به، فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، وقال له: ارقص وغنني شعراً يعجبني، فان فعلت ذلك فلك ألف درهم، فغناه، فأعجبه، فأعطاه الف درهم».

* «ان جارية للمعتصم قالت له حين ماتت متيّم وابراهيم بن المهدي وبذْل [وهم رؤساء المغنين في عصرهم]: يا سيدي اظن ان في الجنة عرسـاً، فطلبـوا هؤلاء اليـه. فنهـاهـا المعتصم عن هذا القول وأنكـره، فلما كـان بعد أيام، وقع حريق في حجرة هذه القـائلة فاحترق كل ما تملكه. وسمع المعتصم الجلبة فقال: ما هذا؟ فأُخبر عنه، فدعا بها فقال، ما قصتك؟ فبكت ثم قالت. يا سيدي احترق كل ما املكه، فقال لا تجزعي، فان هذا لم يحترق وانما استعاره أصحاب ذلك العرس».

* حـكى الـطبـري وغيـره انـه [هــرون الرشيد] كان يصلّي في كل يـوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاماً ويحج عاماً. . وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وهو القائل لمالك [مالك بن انس] حين اشار عليه بتأليف الموطأ: يا أبا عبدالله، انه لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مني ومنك، واني قد شغلتني الخـلافـة فضـع أنت للنـاس كتـابـاً ينتفعـون به، تجنب فيـه رخص أبي عبـاس وشدائد ابن عمر وطئه للنـاس توطئة. قال مـالك: فـوالله لقد علمني التصنيف يـومئذ. ولقد ادركه ابنه المهدي ابو الرشيد هذا وهو يتـورّع عن كسـوة الجـديـد لعيـالـه من بيت المـال، ودخل عليـه وهـو بمجلسـه يبـاشـر الخياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله، فـاستنكف المهديّ من ذلـك وقال: يـا أمير المؤمنين، عليّ كسوة العيال عـامنا هـذا من عطائي، فقال له: لك ذلك، ولـم يصدّه عنه ولا سمح بالانفاق من اموال المسلمين».

* «قـال الـجـاحظ: قلت لاسـحق بـن

ابراهيـم . هل كـانت الخلفاء من بني اميـة تظهر للندمان والمغنيين ؟ قال: لا، اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندمان ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندمان على ما يفعله الخليفـة اذا طـرب للمغني والتـذه حتى ينقلب ويمشي ويحرّك كتفيه ويرقص ويتجرّد حيث لا يراه الا خواص جواريه، الّا انه اذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو نعيـر طرب أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة: حسبك يا جـارية، كفى!



رسم بعض آلات الطرب والموسيقى التي ورد ذكرها في كتاب الاغاني

انتهى! أقصري! يوهم النـدمان ان الفـاعل لذلك بعض الجواري».

* «قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية: ثقيل أول ورسمه: تنّ تنّ تنّ تنّ تنّ تنّ.

وهـو مركب من تسـع نقـرات هي ثـلاث متواليات وواحـدة كالسكـون فخمس مطويـة الأول... واعلم ان اللحن يسمّى مطلقاً اذا لم يكن مقيداً بلفظة تدل على وصفه كالثقيل والخفيف وخفيف الخفيف»...

□ يعدّ الاغاني ثروة تاريخية وادبية، وهو أول المصادر الادبية التي تغلب عليها صحة النقل وتحرّي الصـواب. طبع عـدة مرات، عدة طبعات، لم تتعدّ اجزاؤه الواحد العشرين جزءاً. واذا كان الاصبهـاني قد الّفـه لإمتاع النفوس، والقلوب، والأذواق، فقد حق لطه حسين ان يقول فيه: «فهو في حاجة شديدة جداً الى ان يُقرأ والى ان يُستخلص منه العلم على النحو الذي يلائم العقول في هذا العصر الذي نعيش فيه».

المصادر: أبو الفرج الأصبهاني، شفيق جبري، نوابغ الفكر العربي ١٠، مصر: ١٩٦٥ ـ أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني، محمد عبد الجواد الأصمعي، مصر، ط٢: ١٩٥١.

البحتري

(٨٢٠م - ٨٩٧م)

□ الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري. كنيته ابو عبادة، وهو يمني قحطاني من ناحية أبيه، عدناني من ناحية أمه، ولد في منبج ـ قرب حلب ـ ودرس فيها علوم الدين واللغة والأدب. ولما أنس من موهبته الشعرية تفتحاً رعاها بحفظ اشعار الاقدمين والتدرّب على النظم.

ولما أراد صقل موهبته الشعرية وتهذيبها، رحل الى حمص، حيث كان ابو تمام، فعرض عليه شعره، واتصل به يتعلّم منه. وكان اول ما قال له ابو تمام: «يا أبا عبادة، تخيّر الاوقات، وانت قليل الهموم، صفر من الغموم... فاذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، واكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجّع الكآبة، وخلق الاشواق، ولوعة الفراق، واذا اخذت في مدح سيد ذي ايادٍ، فاشهر مناقبه، واظهر مناسبه،.. واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حُسن نظمه. فان الشهوة نعْم المعين، وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحْسَنه العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه».

رحل البحتري بعدها الى بغداد وسرّ من رأى، يتصل بالوزراء وكبار الرجال. ومن الشعراء الذين اتصل بهم وعاصروه غير ابي تمام: دعبل الخزاعي، وابن الرومي، وعلي بن الجهم، وابن المعتز، وابن الزيات، وابن طاهر.

□ نشأ البحتري فقيراً وانتهى غنياً، لأنه كان يسعى مثل شعراء عصره الى الاكتساب من مدح الخلفاء والوزراء والكتاب والقوّاد. وقد سعى البحتري جهده في ذلك، فاكثر من شعر المديح يفتتحه بالغزل ويضمنّه الحكمة، والعاطفة، والفخر والوصف وتسجيل حوادث العصر.

□ اتصل البحتري بالخليفة المتوكل، وصار شاءه يرافقه ويؤانسه ويسجّل مآثره زهاء خمسة عشر عاماً، مما قال في مدحه:

يا ابن عم النبي حقاً، ويا از
كى قريش: نفساً وديناً، وعرضا
بنتَ بالفضل والعلو فاصبحـ
ـتَ سماء، واصبح الناسُ أرضا
وارى المجدبين عارفة منـ
ـك ترجّى، وعزمةٍ منك تُمضى

وحين ولّى المتوكل اولاده الثلاثة ولاية العهد قال البحتري:

حاط الرعية حين ناط امورها
بثلاثة بكروا ولاة عهود
كانوا أحقّ بعقد بيعتها ضحا
وبنظم لؤلؤ تاجها المعقود

ويقول في وصف بركة قصر الجعفري الذي بناه المتوكل احلى قصائده في الوصف:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات اذا لاحت مغانيها
كأن جنّ سليمان الذين وَلُوا
ابداعها، فادقوا في معانيها
تنصبّ فيها وفود الماء معجلة
كالخيل جارية من حبل مجريها

□ واتصل البحتري بمستشار المتوكل ونديمه الفتح بن خاقان فمدحه، ومن ذلك وصفه لمبارزة ابن خاقان للأسد:

هزبر مشى يبغي هزبراً، وأغلبٌ
من القوم يغشى باسل الوجه أغلباً

□ وحين قتل المتوكل في مجلس كان يحضره، اعتزل فترة متألماً، ثم دفعته الحاجة الى مدح المنتصر بعده ثم المستعين، دون ان تكون صلته بهما قوية، قال يمدح المنتصر:

وبحر يمدّ الراغبون عيونهم
الى ظاهر المعروف فيهم جزيله
ترى الأرض تُسقى غيثها بمروره
عليها، وتكسي نبتها بنذوله

وقد هجا المستعين بعد ما آلت الخلافة الى المعتز، ومن المعتز نال جاهاً ومالاً كثيراً. وفي آخر أيامه عاد الى منبج، ومات فيها.

□ طرق البحتري، فضلاً عن المدح، باب الرثاء والغزل والحكمة، لكنه اجاد في الوصف، فهو قدير على تصوير ما يرى، يصف لك احساسه ويشرك في ذلك عينيه وقلبه.

يقول في وصف الطبيعة:

- سرى البرقُ يلمع في مزنةٍ
تمدّ الى الأرض أشطانها
فكم بالجزيرة في روضةٍ
تضاحك دجلة ثغبانها
تريك اليواقيت منثورةً
وقد جلّل النَّوْرُ ظهرانها

- هذي الرياض بدا لطرفك نورُها
فأرتك احسن من رباط السندس

ينشــرن وشياً مـذهبــاً، ومــديحــاً
ومــطارفــاً نـسجـت لغيــر المـلبس

وقال في وصف الربيع احلى الصور:

اتـاك الربيـع الـطلق يختـال ضـاحكـاً
من الحسن حـتى كـاد ان يـتكـلمـا
وقـد نبّـه النيــروزُ في غسق الـدجى
اوائــل وردٍ كن بــالأمس نُــوّمـا
يـفتـقـهــا بــرْدُ الـنـدى، فـكــأنــه
يبثّ حــديثـاً كــان من قبـلُ مكتّمــاً

وايـوان كسرى، الـذي زاره في المـدائن تخفيفاً عن الآم نفسه، فاسترجع صـور حضارة الفرس في وصفه، نظم فيه قصيدتـه السينية الشهيرة، منها:

وكــأن الايــوان مــن جـب الـصـنـ
عــةِ جــوْبٌ فـي جنـب أرعن جـلْس
مــشـمــخــرٌ تـعــلو لــه شــرفــات
رفـعـت فـي رؤوس رضــوى وقــدْس
لابـســاتٌ من الـبيــاض، فـمــا تـبْـ
صــرُ مــنــهــا الاّ غــلائــل بــرْس

☐ تأثر البحتـري بكبار الشعراء، خـاصة بابي تمام، فأخذ كثيراً من اقواله وقاس عليها، لكنه لم يجعل الحكمة بين اغراض شعـره، ولا صبغه صبغة فلسفية، لقد تخيّر الاسلوب وانتقى الالفاظ ليوضح المعاني. وللبحتـري مكانة رفيعة بين شعراء العربية، فقالوا: «انه من المـطبوعين على مـذاهب الاوائـل، ولم يفارق عمود الشعر».

تجنّب البحتــري التعـقيـد، والالـفـاظ المستكرهة، والاستعارات الغريبة، وقد كان قديراً في مدحه، شأن شعراء عصـره، لكنه بزّهم فقد «اسقط في ايامه اكثر من خمسمائة شاعر، وذهب بخيرهم، وانفرد بأخذ جـوائز الخلفـاء والملوك دونهم». ولو كـان في هذا القول مبالغة، لكنه يصوّر حقيقة منزلته.

☐ تـرك البحتري ديـوانـاً ضخمـاً، رتبـه علي بن حمـزة الاصبهاني، ونشـر حـديثـاً. كما أن له كتاب الحماسة اختار فيه من شعر نحو ستمائة شاعر، اكثرهم من الجاهليين و المخضرمين، وجعله في ثلاثة ابواب: واحد للحماسة، وواحـد للأدب، وواحـد للرثاء. وهو يشترك مع ابي تمام في كثير من الشعراء الـذين رويا عنهم. وله ايضـاً كتاب معـاني الشعر، لكنه لم يصل الينا.

المصادر: البحتري، د. أحمد أحمد بدوي، دار المعارف: ١٩٦٤ ـ اخبار البحتري، ابو بكر بن يحيى الصولي، المجمع العلمي دمشق: ١٩٥٨.
ـ حياة البحتري وفنه، د. احمد احمد بدوي، مكتبة الانجلو المصرية.

الجاحظ

(٧٧٦م - ٨٦٨م)

□ عمرو بن بحر، كنيته أبو عثمان. لقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه. ولد في البصرة - العراق - ونشأ يتيماً فقيراً، لكنه كان ميّالاً لأخذ العلم، فاختلف الى المساجد ومنازل العلماء، والى سوق المربد، ليتلقّى اللغة والمعرفة عن بلغاء العرب وشيوخهم، وكان محبّاً للقراءة «فانه لم يقع بيده كتاب قطّ الا استوفى قراءته، كائناً ما كان، حتى انه كان يكتري [يستأجر] دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للنظر».

انتقل الجاحظ الى بغداد ليتصل بنخبة المفكرين، فاتصل بالأصعمي والأنصاري وأخذ عنهما اللغة واتصل بالاخفش واخذ عنه النحو، واتصل بالنظام واخذ عنه علم الكلام، كما اتصل بمن أطلعه على الثقافة اليونانية، مثل سلمويه وحنين بن اسحق، ثم راد البادية فترة، ليأخذ اللغة والأخبار شفاهاً، وكان لتنقّله سهم في زيادة ثقافته، فقد زار دمشق وانطاكية... وهكذا استقامت له علوم عصره.

□ كان الجاحظ دميماً وظريفاً معاً، حلو الحديث وصاحب نكتة، حتى على نفسه، قال: «ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وُلده، فلمّا رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني». وكان يحفظ الكثير من الأخبار والانساب والأشعار والحكم والنوادر... يستعين بزاده هذا في كل ما يكتب، وقد قرن حظه من الحفظ بموهبته في اجراء التجارب العلمية، فجاءت كتاباته موضوعية، كما كان مدققاً يلاحق المعلومات في مصادرها، ويقوده الشك لتقصّي جوانب الأمور حتى يصل الى اليقين مسلّماً بمنطقية العمل ونتيجته.

□ هذه الميزات في نفسية الجاحظ واسلوبه جعلته فريداً بين الكتّاب ورأس مدرسته في النثر العربي فكان «صاحب التصنيف في كل فن» لغزارة معرفة، وهو

«واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده ومن اعلم الناس في علوم الدين والدنيا»، هو «شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة»، ورسائله افنان مثمرة، الخلفاء تعرفه، والامراء تصفه وتناديه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم».

□ كان الجاحظ رجل فكر له في «الاعتزال» رأي وحجة، وقد ألّف في ذلك. وكان رجل علم، «حسن الايمان، يرى ابداً في الخلائق يد الخالق وحكمته» جمع الى السماع التجربة والملاحظة، فالّف في العلوم، كما كان خبيراً بالطبائع، واسع الثقافة، نقّاده، فألف في الاجتماع، وكان يتمتع بخيال خصب ونفس رقيقة طروب ألهمت موهبته الشعرية قصائد جيدة، والجاحظ الموسوعي، يصعب تعداد مؤلفاته في الوان المعرفة، وقد ذكر له مئات منها، وصلنا بعضها، كما وصلنا أخبار بعضها الآخر من كتبه وكتب سواه.

اهمها:

□ **البيان والتبيين**: وهو في ثلاثة أجزاء، أهداه الى الوزير ابن ابي دؤاد، قصد منه تعليم الناشئة والكتّاب اصول الكتابة الصحيحة، مظهراً بلاغة العرب، كاشفاً من أسرار اللغة ما يرفع من شؤنها ومن مقام البلغاء فيها، من هنا كان كلامه عن اللسان والخطباء وخير الشعر، كما كان كلامه عن عيوب النطق، مستطرداً الى الردّ على اعداء العرب في لغتهم وبلاغتهم. مزيناً احاديثه بالآيات البينات والاحاديث النبوية الشريفة وبكلام البلغاء نثراً وشعراً، خطباً وحكماً ووصاياً ونوادر. . .

□ **البخلاء**: وهو كتاب في النقد الاجتماعي، يصوّر فيه أحوال البخلاء في عصره من أهل البصرة وخراسان. . ذاكراً اخبارهم، متندّراً باحاديثهم، وحججهم، مستطرداً الى مناظرات بينهم حول البخل والكرم والضيافة. والكتاب دليل على سعة ثقافة صاحبه، وعلى نفسيته الناقدة العلمية، وعلى مزاجه المرح، وعلى فكرة الاعتزالي المنطقي، وعلى موقفه المجيد من العرب ضد الشعوبيين.

□ **الحيوان**: وهو في سبعة أجزاء، أهداه الى ابن الزيات وزير المأمون، وهو كتاب موسوعي يقول في مقدمته: «هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه في العرب والعجم، لأنه وان كان عربياً أعرابياً واسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف

الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة واشرك علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسّة وأحساس الغريزة». ضمنّه كلاماً عن الحيوان عموماً، وعن طبائعه ومميزاته، واستطرد لذكر أخبار العرب ونوادرهم في هذا الموضوع، فالكتاب يقصد الافادة والتسلية معاً، ويعكس الثقافة العريضة لصاحبه، اما تبريره للاستطراد فيه، فيقول الجاحظ: «متى خرج القارىء من آي القرآن صار الى الأثر ومتى خرج من أثر صار الى خبر، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ومن الشعر الى نوادر ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد، ثم لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقل والملال اليه اسرع، حتى يقضي الى مرح وفكاهة وسخف وخرافة، ولست أراه سخيفاً».

□ ومن كتبه الأخرى:

- رسالة التربيع والتدوير: وهي موجهة الى أحمد بن عبد الوهب، تتضمّن مئة مسألة معجزة، تثير مواضيع فكرية وعلمية وتاريخية، يرتبط اكثرها بمواقفه السابقة التي سبق وعرض لها في كتاب الحيوان.

- التاج في اخلاق الملوك: يعرّف باساليب التعامل مع القادة والحكام، في الاستقبال والمآدب، والمناسبات. .

- المحاسن والأضداد.
- الصرحاء والهجناء.
- أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات.
- فضل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والاناث.
- الحجة في ثبت النبوة.
- الرد على الجهمية.
- الرد على اليهود.
- ذكر ما بين الزيدية والرافضة.
- الطفيليون.
- المزاح والجد.
- عناصر الآداب.
- الأمثال.

□ اذا لم يكن الجاحظ عالماً، بالمنظار الحديث، فهو مؤرخ واديب وعالم اجتماع، فضلاً عن كونه عالماً بالأخبار والانساب، وراوية للأشعار والحكم والنوادر. وهو في كل ذلك ناقد متبصّر، وكاتب مبدع، انشاؤه سلس، وضوحه عفوي يتخيّر الكلمة ويضعها في مكانها، وهو اقل الكتاب عناية بالتصنّع والزخرفة.

□ أُصيب الجاحظ، بالفالج، في أُخريات ايامه، قال المبرد يصفه في هذه الحال: «دخلت على الجاحظ في آخر ايامه، فقلت له: كيف انت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بقربه آلمه، واشد من ذلك ست وتسعون سنة انا فيها».

ويقال انه توفي اثر سقوط قسم من مكتبته فوق رأسه، فمات شهيداً للمعرفة والبحث العلمي. «واختتمت حياة رجل شاء القدر ان يكون موته طريفاً كان طريفاً في حياته».



صورة لنهر دجلة وعلى ضفتيه النخيل

المصادر: كتب الجاحظ ـ الجاحظ، د. فوزي عطوي، دار الفكري العربي، بيروت: ١٩٨٩.
ـ الجاحظ ومجتمع عصره، د: جميل جبر، م. كاثوليكية، بيروت.
ـ الجاحظ، خليل مردم بك، مكتبة عرفة، دمشق: ١٩٣٠.

جميل بن معمر

(ت ٧٠١م)

□ جميل بن عبدالله بن معمر، كنيته ابو عمرو، وهو من قبيلة عُذرة، ومسكنها في وادي القرى، بين الشام والمدينة، والجمال في عُذرة والعشق كثير. قيل لاعرابي من العذريين: ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث [تذوب] كما ينماث الملح في الماء؟ أمّا تجلّدون؟ قال: انا لننظر الى محاجر أعينٍ لا تنظرون اليها، وقيل لآخر، فمن أنت؟ فقال: من قوم اذا احبّوا ماتوا؟ فقالت: جارية سمعته: عُذريٌّ ورب الكعبة.

□ كان جميل مفطوراً على قول الشعر، فقد نقل من كتب الأدب انه كان راوية لهدْبة بن خشرم، وهدبه كان شاعراً وراوية للحطيئة... اذاً، كان لجميل في الرواية والأدب نسب متصل الحلقات. امّا تأريخ حياته، فيعود الى علاقته ببثينة، فقد أحبها وطلب الزواج منها لكنه لم يوفق، فراح ينشد شعراً في حبه لها وامله بها، ثم انتقل الى عتبه عليها لانصرافها عنه بعد أن تزوجت من رجل آخر، ولما هجا أهلها استعْدوا عليه السلطان فأهدر دمه، وهكذا زاد قلقه فلم يعد يطمئن، ويئس، فخرج في البلاد تائهاً يتنقل بين الشام واليمن، ثم نزل مصر ومات هناك.

□ يعتبر جميل بن معمر رائد شعراء الحب العذريين. ومع كل الشك الذي يمكن ان يدور حول نوع الحب الذي شُهر به، فاننا نسلّم بما نقلته كتب التراث من شعره ومن أقواله في وصف حاله، معتبرين هذه الآثار طلائع فنّ أدبي نموذجي يسهم في درسنا تطور فن الغزل في الأدب العربي.

□ **غزله العذري** يوجَز في هذين البيتين الممثلين لنفسيته:

يقولون جاهد، يا جميل، بغزوة
وايّ جهاد غيرهن أريدُ
لكل حديث عندهن بشاشةٌ
وكلُّ قتيل بينهن شُهيدُ

ان محور الحياة عنده، هو ما يضمّه قلبه

من لوعة وامل ويأس.. قيمة غير ما تواضع عليه الناس، فالجهاد عنده جهاد نفسي لاجهاد آخر، تلك هي صورة الحياة عند العذريين.

* ومن احلى ما قال في حبه لبثينة:

علقت الهوى منها وليداً فلم يزلْ
الى اليوم يَنْمى حُبُّها ويزيدُ
وأفنيتُ عمري بانتظاري وعدها
وأبليت فيها الدهر، وهو جديد
فلا انا مردود بما جئتُ طالباً
ولا حبُّها، فيما يبيدُ، يبيدُ

* وقال في قوة حبّه العذري:

خليلّي فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حب قاتله مثلي؟

* وكان قنوعاً في حبّه، يرضيه القليل، قال:

- أقلّب طرفي في السماء لعلّه
يوافق طرفي طرفها حين تنظُر
- وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرّت بلابله

□ قال احد الأعراب لجلسائه: ايكم ينشد بيتاً نصفه مخنّث يتفكك بالعقيق، ونصفه أعرابي في شملة البادية؟ قالوا: ما نعرفه، قال هو قول جميل:

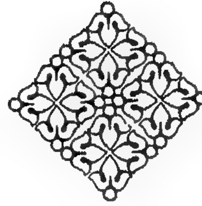
الا ايها الرَّكب النيامُ الا هُبّوا
أسألكم: هل يقتلُ الرجلَ الحبُّ؟
فقالوا: نعم حتى يرضّ عظامه
ويتركه حيران ليس له لبُّ

□ كثرفي شعرجميل الغزل، والعتاب، والتمنّي، وذكر الشوق المكتوم، والقناعة بالقليل، والضراعة للمحبوبة، ووصفه الحب بالديمومة، وقد عرّض بالوشاة والأهل والأصحاب، ووصف شفافية نفسه وألمه ويأسه وضياعه.

□ خصائص الحب العذري جديدة، لم يعرفها الشعر الجاهلي قبله، فهي أنصع وأعفّ. فيها آثار البيئة الاسلامية، والثقافة الطارئة. وفيها عمق الأحاسيس وشفافيتها، وفيها أبعاد جديدة للمعاني.

□ «قال سهل بن سعد الساعدي: لقيني رجل من أصحابي، فقال: هل لك في جميل فانه ثقيل؟ فدخلنا عليه وهو يكيد بنفسه، وما يخيّل لي أن الموت يكرثه (يشتد عليه]، فقال: ما تقول في رجل لم يزن قط ولم يشرب الخمر فقط، ولم يقتل نفساً حراماً قط، يشهد ان لا اله الاّ الله، قال: اظنه والله

قد نجا، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا. قلت: والله ما سلمت وانت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة. قال: اني لفي آخر يوم من ايام الدنيا وأول يوم من ايام الآخرة، فلا نالتني شفاعة محمد ﷺ ان كنت وضعت يدي عليها لريبة قط، قال: فأقمنا حتى مات».



المصادر: تطور الغزل، د. شكري فيصل، بيروت: ١٩٦٥ ـ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، بيروت: ١٩٦٤.

حافظ ابراهيم

(١٨٧٢م - ١٩٣٢م)

□ حافظ بن ابراهيم، فهمي، هو شاعر النيل. ولد في سفينة نهرية صغيرة في اسيوط ـ مصر ـ وفقد أباه باكراً، فربّاه خاله، وادخله المدرسة، لكنه لم يكن راغباً بالعلم واكتفى منه بقراءة دواوين الشعراء والتدرّب على النظم. ولما ساءت العلاقة مع خاله، هجر بيته تاركاً له هذين البيتين من الشعر:

ثقلتْ عليك مؤونتي
انـي اراها واهية
فافرح، فإني ذاهب
متوّجهٌ في داهية

□ المرحلة الثانية من حياة حافظ كانت موسومة بالوحدة والفقر والضياع والألم، وانتهت بدخوله المدرسة الحربية ليمضي فيها اربع سنوات، ويتخرّج طابطاً فيستقر في السودان، بعد تنقل، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقد تركت حياته هناك اثراً في نفسه وشعره، فعرف الاستعمار وانقياد الشعب المغلوب على امره له، وعرف الحنين الى وطنه، كما عرف الوطنية والشعور القومي، فرقّت شاعريته، وتغذّت بمواضيع مثيرة.

وحتى صيّرتني الشمس عبداً
صبيغاً بعد ما دبغت إهابي
متى انا بالغٌ يا مصر أرضاً
اشمّ بتربها ريح الملاب؟

□ وطرد حافظ من وظيفته في الجيش، بعد أن اتهمت انكلترا بعض الجنود والضباط المصريين بتدبير مؤامرة عليها. فعاد الى مصر، ليعيش الفقر والألم والتشرّد من جديد. في هذه المرحلة الثالثة من حياته تعرّف عن قرب ونضوج لحياة المصريين، وجرّب شعره مدحاً وتوسلاً ورثاء ووطنية، كما تثقف في لقاءاته الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمود سامي البارودي، فعوّض عما كان ينقصه. وانتهت هذه المرحلة بتوظّفه في دار الكتب المصرية، حيث الاطمئنان الى العيش، مع قيود على الخيال والشعور.

□ وفي مرحلة الوظيفة الأخيرة، امضى حافظ ابراهيم ثلث حياته، ينظم في المناسبات والرثاء، دون اندفاع ولا وطنية صادقة، سوى ما رثى به سعد زغلول، ولما أحيل الى التقاعد، حاول أن يجدّد قواه ليقول ما سبق ان قال مثله، قبل هذه المرحلة، ولكن الموت كان اسرع، فخطفه بعد أشهر قليلة.

□ كان حافظ ابراهيم طيب القلب، لم يحوّله البؤس عن نقاوته ورغبته بالخير والعدل. وقد كان معروفاً بسخريته من الآمه، يشكو ولا ينتقم، نفسه كبيرة.

وقد كنت عوناً للضعيف، وانني
ضعيفٌ، وما لي في الحياة نصير

كان صديق الجميع: الغني والفقير والكبير والصغير، احبّوه جميعاً، وكانوا مدرسته، فالعلم الذي لم ينله في المدراس النظامية، كما ينبغي، استقاه من علاقاته وشعبه.

□ فقد «خرج من المدرسة جاهلاً كما دخل اليها»، واذا كان قد اطلع على لزوميات أبي العلاء وديوان البارودي وبؤساء فيكتور هوغو، فان حظه من المطالعة بقي قليلاً جداً.

آثاره:

ـ ديوان شعر، يضم اكثر من خمسة آلاف بيت، طبع مشروحاً بعناية الدولة المصرية.

ـ ليالي سطيح: وهو اشبه بالمقامات، يتحدث عن نفسية السوريين وميزاتهم.

ـ تعريب قصة البؤساء لفيكتور هوغو، ولم يكن يعرف الفرنسية جيداً فلاقى صعوبات جمّة في الترجمة.

□ وشعر حافظ مرتبط بالمناسبات، ان كان مدحاً أو رثاء أو وصفاً.. وفي وطنياته كان مخلصاً، فقد هزّه ظهور رجال الوطنية، قُبيل الحرب، رجال ثوار لا يستسلمون للحوادث ولا للاحتلال، قال في حادثة دنشواي، يوم أعدم اربعة من اهلها اثر اصابة انكليزي، عرضاً، وهو يصطاد الحمام فيها:

ليت شعري! أتلك محكمة التفتيش
عادت ام عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوي التشفّي
من ضعيف ألقى اليه القيادا

ندّد بسياسة الانكليز، ولكنه كان يحتاط لنفسه، فيعتدل، الاّ أن بعض المناسبات كانت تفجّره صادقاً فودّع «كرومر» الذي ازاحته انكلترا استجابة لمشاعر المصريين، ورثى مصطفى كامل مصوراً الانكليز قائلاً:

تصغي لأصواتنا طوراً لتخدعنا
وتارة يزدهيها الكبر والصمم

ماذا يريدون لا قرّت عيونهم
ان الكنانة لا يطوى لها علم

وتجنّب، طويلاً المشاركة في مناسبات وطنية، الّا ان الموت كان يثيره، فأبدع في الرثاء، وله ثلاث قصائد رائعة في رثاء مصطفى كامل، منها:

الله اكبر، هذا الوجه أعرفه
هذا فتى النيل، هذا المفرد العلم
لبيك نحن الالى حركت أنفسهم
لما سكنْتَ ولما غالك العدم

وفي رثاء سعد زغلول يقول:

خرجت امّة تشيع نعشاً
قد حوى امّة وبحراً عباباً
وسها النيل عن سراه ذهولاً
حين ألفى الجموع تبكي انتحاباً
ظن يا سعد ان يرى مهرجاناً
فرأى مأتماً وحشداً عجاباً
لم تُسقّ مثله فراعين مصرٍ
يوم كانوا لأهلها اربابا

وقد دعا الى تربية النساء، يوم كانت الدعوة قائمة، فلم يسكت، وان كان اختار موقفاً وسطاً:

من لي بتربية النساء فانها
في الشرق علة ذلك الإخفاق

لكنه صدق القول في مواقف اخرى مسّت الاطفال والايتام، ذاكراً حاله:

ـ انقذوا الطفل ان في شقوة الطفل
شقاء لنا على كل حال
ـ واكفلوا الايتام فيه واعلموا
ان كل الصيد في جوف الفرا
كم طوى البؤس نفوساً لو رعت
منبتاً خصباً لكانت جوهراً

ومن احلى ما قال، يوم بايع احمد شوقي باسم مندوبي البلاد العربية امارة الشعر:

امير القوافي قد أتيت مبايعاً
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وقال متجسداً اللغة العربية:

انا البحر في احشائه الدرّ كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

□ قال خليل مطران في مذهب حافظ ابراهيم: «يتعب في قريضه تعب النحّات الماهر في استخراج مثال جميل من حجره، يؤثر الجزالة على الرقة.. له غرام باللفظ لا يقل عن غرامه بالمعنى».

□ وقال محمود سامي البارودي فيه:

حاك القريض بلهجة عربية
أغنت عن الاسهاب بالايجاز

وأحمد شوقي اكّد سيره على مناهج الأقدمين بقوله فيه:

ما زلت تهتف بالقديم وفضله
حتى حميت امانةُ القدماء
جدّدت اسلوب الوليد ولفظه
واتيت للدنيا بسحر الطائي

□ورغم انه كان محدود الابتكار، فقد اتفق الشعراء والنقّاد على انه أحكم الصياغة والاسلوب وأجاد، الاّ أنه لم يبلغ منزلة شوقي في الابداع والشمولية.



حافظ ابراهيم

المصادر: حافظ إبراهيم، خليل هنداوي، دار الانوار، بيروت: ١٩٧٣ ـ حافظ وشوقي، طه حسين، م. الخانجي. مصر: ١٩٦٦.

الخليل بن احمد

(٧١٨م - ٧٨٦م)

□ الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسس علم العروض وواضع أول معجم عربي. وُلد في عُمان، وترك موطنه باكراً الى البصرة، فنشأ فيها. ومن العلماء الذين تلقّى عليهم علومه: ابو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، وغيرهم، فاجتمع له من العلوم والمعارف ما أتاح له ان يكون استاذ البصرة في عصره، بلا منازع. وكثر تلاميذه أمثال: سيبويه، والكسائي، والنضر بن شميل، ومؤرج السدوسي، والأصمعي وغيرهم. وقد اعترفوا جميعاً، وكلهم اساتذة كبار، بريادته في اللغة، والنحو، والعروض، وعلم الموسيقى، والرياضة.

وكان الخليل الى علمه الغزير، متواضعاً، زاهداً، ورعاً يحج كل سنتين مرّة، ويعيش في خصّ من أخصاص البصرة، قال فيه تلميذه النضر بن شميل: «أكلتُ الدنيا بعلم الخليل وكتبه، وهو في خصّ لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال».

□ ومن حكايات زهده، ان سليمان بن حبيب بن ابي صفرة والي فارس والاهواز، كان يدفع له راتباً بسيطاً يعينه به، فبعث اليه سليمان يوماً يدعوه اليه، فرفض، وقدّم للرسول خبزاً يابساً ممّا عنده قائلاً: ما دُمتُ اجده فلا حاجة بي الى سليمان وقال:

أبلغ سليمان اني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال
شحا بنفسي اني لا أرى احداً
يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الفقر في النفس لا في المال نعرفه
ومثل ذاك الغني في النفس لا المال

فقطع سليمان عنه الراتب، فأرسل اليه الخليل:

ان الذي شقّ فمي ضامن
للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيراً قليلاً فما
زادك في مالك حرماني

وحين وصل ذلك الى سليمان، اضطرب واعتذر من الخليل وأعاد اليه راتبه.

□ ذكر ابن خلكان ان الخليل اجتمع يوماً وابن المقفع وتحدّثا حتى الفجر، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ اجاب: رأيت رجلاً علمه اكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فأجاب: رأيت رجلاً عقله اكثر من علمه.

□ والخليل هو استاذ سيبويه واضع: «الكتاب» اول وافضل كتب النحو، واعترافاً من سيبويه بفضل استاذه، فاننا حين نقرأ في «الكتاب»: «سألته». أو «قال». من غير أن يُذكر الضمير، نعرف انه يعني الخليل بن أحمد.

□ قال سفيان بن عيينة: «من أحب أن ينظر الى رجل خُلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن أحمد. توفي الخليل في البصرة.

□ علم العروض وضع أسسه الخليل بن أحمد، فكان يقضي الساعات ذاهلاً عن نفسه يرفع أصابعه ويحرّكها ببطء لضبط اوزان ما يتمتم به من الشعر وتنسيقها، وقد استطاع ضبط أوزان خمسة عشر بحراً، يجري عليها النظم حتى اليوم، وزاد عليها الاخفش (الاوسط)بحر الخبب، فصارت ستة عشر بحراً.

□ يقول ابن خلدون: «فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من ائمة اللسان لذلك واملوا الدواوين». وهكذا عُمد الى وضع كتب المعاني أو المعاجم، في مرحلة متقدمة، خدمة للقرآن والحديث، فرتبت الالفاظ على مخارج الحروف أو نسبة الى حرفها الأول، أو وزّعت تبعاً للموضوع مع استخلاص المشتقات وشرحها.. لكن الكتب التي وصلتنا في هذا الصدد لا ينطبق عليها اسم «معجم» الاّ بتأويل بعيد، ذلك أنها لم تقصد الجمع والاحصاء الدقيق، قدر ما مثّلت مرحلة تالية للتأليف الموسوعي، بالتفرّد بموضوعات مستقلّة، كالمعاني، والصفات، والغريب.

□ ويعتبر معجم العين للخليل أول معجم اعترف به القدماء والمحدثون، وكان هدف الخليل منه «ضبط اللغة وحصرها»، وقد خطا لذلك خطوات علمية مدروسة، بدأها بترتيب الحروف، ثم بتقسيم الأبنية، واخيراً بتقليب اللفظة على أحد أوجهها.

□ أقبل الخليل على الحروف ليرتب عليها الفاظه، فلم يرتضها: «لأن الألف حرف

معتل، فلما فاته كره وأن يبتدىء بالثاني وهو الباء»، فنظر الى الحروف على أنها أصوات تخرج من جهاز النطق فرتّبها على هذا الأساس، تباعاً: اب، اح، اع، اغ، . . فوجد العين أدخلُ الحروف في الحلق. فكان ترتيبه: ع ح هـ ـ خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط د ت ـ ظ ث ذ ـ ف ب م ـ و ا ي ـ الهمزة. وسمي المجموعات على التوالي: حلقية، ولهوية ـ وشجرية ـ اسلية ـ ونطعية ـ ولثوية ـ وذلقية ـ وشفوية، وهوائية، وسمى معجمه بأول حرف فيه «العين».

□ بعد أن رتّب الحروف بدقة، انتقل الخليل الى اللغة التي تتكوّن مادتها من هذه الحروف فوجد ان «كلام العرب مبين على أربعة أصناف: على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي»، وأنه ليس في اللغة العربية بناء يقلّ عن الثنائي او يزيد عن الخماسي «فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف من فعل واسم، فاعلم انها زائدة في البناء، وليست من أصل الكلمة».

□ وانتقل الخليل، من ثمّ، الى الأبنية، فوجد فيها الصحيح والمعتل، وفرّق بينهما في كل بناء، فقسم الابنية على هذا الأساس الى: ثنائي صحيح، وثلاثي صحيح، وثلاثي معتل، وثلاثي صحيح وثلاثي لفيف، ورباعي صحيح وخماسي صحيح، ورباعي وخماسي معتلين. ثم تناول هذه الابنية على هذا الترتيب عند كلامه عن كل حرف من الحروف الصحاح ابتداء من العين وانتهاء بالميم، سوى الرباعي والخماسي المعتلين فقد اخّرهما الى ختام الكتاب.

□ واهتدى أخيراً الى فكرة التقليب، اذ وجد ان بمقدوره أخذ كل بناء من الاربعة، وقلبه على جميع أوجهه الممكنة، فيحصل على وعاء يضم جميع ألفاظ اللغة. ولم تكن هذه المقلوبات مستعملة كلها، فنصّ على المستعمل منها غير المستعمل، فالكلمة الثنائية تتصرّف على وجهين: قد، دق. والثلاثية على ستة أوجه: ضرب ـ ضبر ـ برض، بضر، رضب، ربض، والكلمة الرباعية على اربعة وعشرين وجهاً. . .

□ وبعد أن رسم الخليل منهجه طبقّة خطوة خطوة، وقد أشار في شروحه الى القلب والنحت، والأضداد، والمعرب، كما عالج بعض المسائل النحوية، واعتمد شواهد نثرية وشعرية وقرآنية، وعني باللهجات واللغات.

□ وقع الخليل في كتابه «العين» في اخطاء صرفية، كما أهمل أبنية في اللغة لأنه لم

يسمع عنها شيئاً . . وجمع اخطاءه باحثـون، لكنهم رغم هذه الهنات اعترفوا بأهمية منهجه أولاً، وما جمعه بين دفتي كتابه، ثانياً، اذ من المستغرب الّا يخطىء انسان يعمل وحيداً في معجم ريـادي. طبع الكتـاب مرات، كـاملاً ومشروحاً، ومختصراً.



المصادر: مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، القاهرة: ١٩٥٥ ـ مختصر العين، الزبيدي، السلسلة اللغوية ١، المغرب ـ الدراسات اللغوية عند العرب، د. محمد حسين آل ياسين، بيروت: ١٩٨٠.

سيبويه

(ت ـ ٧٩٦م)

□ عمرو بن عثمان بن قنبر، كنيته أبو بشر، عُرف بسيبويه، ولد في البيضاء قرب شيراز ـ فارس ـ ثم انتقل اليه البصرة ليدرس فيها، فاتصل بالمحدث المشهور، حمّاد بن سلمة، وبمشايخ اللغة والنحو أمثال: عيسى بن عمر، والأخفش الأكبر، وابو زيد الأنصاري، وكان اكثر ما أخذه عن الخليل بن أحمد اذ لازمه ملازمة الظل، فكان أنبه تلاميذه واكثرهم رواية عنه.

□ نبغ سيبويه في علم النحو، فأخذ عنه جماعة، أشهرهم الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة وقطرب. ووضع سيبويه: «الكتاب»، فأكبّ عليه الدارسون في عصره، وبعده، ينهلون منه ويفخرون به. قال ابن خلكان: «كان أعلم المتقدّمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع مثل كتابه». وقال الزجاج: «اذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبّيت انه أعلمُ الناس باللغة».

□ يعتبر اللحن الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النحو وتصنفيها ، وابو الاسود الدؤلي الذي بدأ بتنقيط المصحف كان أول من قام بخطوة عملية في النحو. وتبعه علماء آخرون، امّا تعليل الظواهر اللغوية ودراستها، والتأليف في النحو، فكان خطوة متأخرة، ادّت الى العناية بالتراث جمعاً وتنقية ونقداً، اذاً، كانت الخطوات الأولى في علم النحو خدمة مقصورة على العناية بلغة القرآن الكريم، ثم تفرّعت.

□ البصرة كانت منشأ النحو، فكونها محطة تجارية، عرّضها للاختلاط ووسّع للحن فيها، فعرفَت الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه الذي كوّن مدرسة نحو البصرة، اما علماء الكوفة وبغداد فقد تتلمذوا على ايدي علماء البصرة، ثم اسسوا لهم نهجاً، وهذا ما حصل للمدرسة البغدادية في النحو وللمدرسة الأندلسية. . .

□ اختلاف المدرستين البصرية والكوفية

ضمنّه، كتب عديدة، سجّلت للبصريين تشديدهم في القياس، واستبعادهم الاستشهاد بالقراءات، الاّ اذا كان هناك شعر أو كلام عربي يؤكدها، علماً أن الاستشهاد بالقرآن وحده كان يمكن ان يكفي في مسائل نحوية عديدة، وكان على البصريين ترك أقيستهم معها، لأن اللغة، عموماً، لا يتحكم بها منطق قاسٍ كافٍ لاستخلاص كل النتائج.

□ لسيبويه في «الكتاب» طابعه الخاص وشخصيته التي يُحسّ بها قارئا، فقد عرض للاراء وناقشها، وحكم عليها، فكثيراً ما تجد في كتابه: قال فلان كذا والقياس كذا، قال النحاة كذا والصواب خلافه... وقد نقل شواهد من أفصح العرب، وأحصي في كتابه الف وخمسون شاهداً معروفاً وخمسون فقط غير معروفين، لكن جرى العلماء على الثقة بهم، لأنه عُرف عن سيبويه تحرّيه الدقّة، فلم ينقل الاّ ممّن يُحتجّ بلغته.

□ من مناقشاته: «وذلك قولك: ويحٌ له وتبّ، وتباً لك وويحاً، فجعلوا التبّ بمنزلة الويح، وجعلوا (ويح) بمنزلة التبّ فوضعوا كل واحد منها في غير الموضع الذي وضعته العرب»... وجعل عنوان الباب الذي استقينا منه هذين السطرين؛ «هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح، فوضعوا الكلام على غير ما وضعت العرب».

□ درج القدماء على استعظام كتاب سيبويه وتشبيههم دراسته بركوب البحر، فاخر به أتباعه، وقرأه خصومه سرآ، وفي «الكتاب» شواهد كثيرة من الشعر العربي ومن أوثق ما نقل من النثر، وعبارة سيبويه جزلة بليغة.

□ أهم موضوعات «الكتاب».

* في الجزء الأول: الكلمة - فاعل اللازم والمتعدّي من الأفعال وأشباهها - اسماء الأفعال - اضمار الفعل - المصادر المنصوبة - الحال - المفعول فيه - الجر والتوابع..

* في الجزء الثاني: ما ينصرف وما لا ينصرف - النسب - التصغير - حروف القسم - نونا التوكيد - ادغام المضعف - المقصور والممدود - تمييز الأعداد - التكسير - اوزان المصادر...

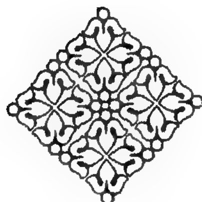
* مثال: باب الاضمار في ليس وكان.

كالاضمار في (انّ) اذا قلت: (انه من يأتينا نأته) (انه امة الله ذاهبة) فمن ذلك قول بعض العرب: (ليس خلق الله مثله)، فلو لا ان فيه اضماراً لم يجز ان نذكر الفعل ولم تعمله في اسم، ولكن فيه من الاضمار مثل ما في (انه) قال حميد الارقط:

فأصبحوا والنوى عالي معرّ سهم
وليس كلٌّ النوى تلقى المساكين

فلو كان (كلّ) على (ليس) ولا اضمار فيه لم يكن الاّ الرفع في (كل)، ولكنه انتصب على (تلقى) ولا يجوز ان تحمل (المساكين) على (ليس)، وقد تقدّمت فجعلت الذي فيه الفعل الآخر يلي الاول وهذا لا يحسن..

☐ والدراسة في كتب النحو الحديثة مختلفة، لاختلاف تبويب «الكتاب» واختلاف اسلوب العرض، اذ يلزم من يريد قراءته بعض الالفة اولاً. فالبيئة التي أُلّف الكتاب فيها أرفع ثقافياً من البيئات التي تلتها، لكن لا مفّر من القياس على «الكتاب» والتحفّز للاستفادة منه وتجويد العمل النحوي اليوم وتوظيف ذلك في لغة سليمة بليغة.



المصادر: مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، القاهرة: ١٩٥٥ ـ الكتاب، سيبويه، مطبعة بولاق: ١٣١٧ هـ الدراسات اللغوية عند العرب، د. محمد حسين آل ياسين، بيروت: ١٩٨٠.

السيّاب

(١٩٢٦م - ١٩٦٤)

□ بدر شاكر السيّاب، ولد في قرية جيكور - جنوب البصرة في العراق - من اسرة مسلمة سنيّة تعيش على الزراعة. تمتّع بدر بطفولته في بساتين بلدته وقرب نهيرها «بويب»، لكن سعادته لم تدم فقد توفيت والدته وهو في السادسة. ولم يكن في جيكور مدرسة، بل في قرية قريبة منها اسمها «باب سليمان» درس فيها المرحلة الابتدائية، وتفتحت موهبته الشعرية باكراً حين نظم الاناشيد باللهجة الدارجة وبعض القصائد باللغة الفصحى.

التحق بدر بمدرسة ثانوية في البصرة، وعاش مع جدته لأمه، بعد أن تزوج والده ثانية، وكان خلال دراسته يكتب الشعر باستمرار، اما مواضيعه فالطبيعة ومشاعره في هذه المرحلة، خاصة بعد أن علق بحب ابنة عمه وفيقة، كما كان حين يزور جيكور يسرع لمساعدة جدّه برعاية الماشية طمعاً في مقابلة راعية فتية، قال فيها عام ١٩٤٣:

تذكرتُ سرب الراعيات على الربا
وبين المراعي في الرياض الزواهر
وما كنت لو لم أتبع الحب راعياً
ولا انصرفت نحو المروج خواطري

وخلال الحرب العالمية الثانية، عانى بدر من مشاكل مادية صعبة، وتوفيت جدته، وصودرت املاك جدّة، كما ازداد احساساً بقبح منظره وهو يمر في فترة المراهقة، فعظم شعوره بالظلم عامة، مما أشعره بالحسرة والمرارة، إلاّ ان الثورة لم تجتاحه حتى هذا الوقت.

□ عام ١٩٤٣ انتسب بدر الى دار المعلمين العالية في بغداد، واقام في القسم الداخلي ملتحقاً بفرع اللغة العربية. وأخذ يتعرّف الى بغداد تدريجاً: مقهى ابراهيم، حلقة الأصدقاء، مقهى الزهاوي، شارع الرشيد... وكان لم يزل ينظم الشعر، فقال في زميلته لبيبة «صاحبة المنديل الأحمر» ما يختصر عواطفه حتى الآن:

خيالك من اهلي الأقربين
أبّر، وان كان يعقلُ
ابي.. منه جرّدتني النساء
وامي.. طواها الردى المعجلُ
وما بي من الدهر الاّ رضاك
فمر حمال فالدهر لا يعدل

وازدادت مجموعته الشعرية حجماً ولما تثقف بقراءة «بودلير» و «ابي شبكة» كتب قصيدة ناهزت الف بيت عنوانها «بين الروح والجسد» اهداها الى روح بودلير، وكان بين هذين القطبين مضطرباً: الحب العذري والحب الجسدي. وقد اكثر من المطالعة في هذه الفترة في الأدبين العربي والانكليزي، خاصة بعد انتقل الى قسم اللغة الانكليزية في دارْ المعلمين.

وازداد الحقد الطبقي في نفس بدر، كما ازداد مقْتُه للظلم الاجتماعي والسياسي، فضلاً عن ازدياد شعوره بالمرارة من قبحه وعدم إقبال الفتيات عليه. فانتظم في حلقات سياسية، ولما اشترك في اضراب ١٩٤٦ فُصل سنة من الجامعة ثم اشترك في مظاهرات أدّت الى سجنه فترة، ليعود بعد أن اطلق سراحه ليتابع دراسته، لكنه ماترك التحركات السياسية حتى تخرّجه.

□ وازداد نضوج بدر الفني، فنشر ديوانه الأول في القاهرة عام ١٩٤٧ بعنوان «ازهار ذابلة» وفيه قصيدته: «هل كان حباً»، وهي اول قصيدة من الشعر الحر، برّرها بدر في ملاحظات هامشية (مع ان نازك الملائكة تقول انها هي التي نشرت اولى قصائد الشعر الحر وهي قصيدتها الكوليرا)، مطلع قصيدة السياب:

هل تسمين الذي ألقى هياماً
ام جنونر بالأماني؟ ام غراماً؟

□ أحب الشاعر لميعة، لكنها حاولت الابتعاد عنه لأسباب، منها خوفها من ان يكون اختلاف المذهب حائلاً بينهما والسعادة، فأحدث هذا الأمر عنده مرارة جديدة فشنّها حرباً على العادات الاجتماعية الدينية، وسجلها في قصيدته «اساطير» عام ١٩٤٨ :

اساطير من حشرجات الزمان
نسيج اليد البالية
رواها ظلام من الهاوية.

□ اشتغل بدر مدرساً ثانوياً في قرية بعيدة، وامضى مع الوحدة لياليه الطويلة، فكتب شعراً حزيناً. ثم سجن فترة لتحرّكه ضد النظام، ومنع ادارياً في التدريس عشر سنوات، فاستبد به اليأس، وعمل ذوّاقة للتمر في البصرة، ثم عمل صحافياً دون أن يوقف النظم والنشر، وكان يكثر من القراءة متأثراً

بأحوال الأمة العربية وأحوال بلاده السياسية، مما كتب: قصيدة حفّار القبور من الشعر الحر في ٢٩٩ بيتاً حيث مزج الاسلوب القصصي بالوصف والمشاعر، وقصيدته هذه ضحية النظام الاجتماعي الفاسد بقدر ما هي ضحية شهوته العارمة دائماً:

واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطيّبات: من الرغيف إلى النساء الى البنين.
هي مِنّة الموتى عليّ. فكيف أُشفق بالأنام؟..

□ فرّ الى الكويت ثم عاد بعد سنة من التشرّد، وتحسنت احواله المالية قليلاً، زاد من النظم والنشر متأثراً باحوال العراق الجديدة، الاّ ان «المدينة» بقيت بالنسبة اليه مجسّدة للرأسمال والاستغلال فتذكر جيكور، قريته البريئة، وراح يستخدمها رمزاً للحب والطفولة والسلام في قصائد عديدة:

وتلتف حولي دروب المدينة
حبالاً من الطين يمضغن قلبي
ويعطين عن جمرة فيه، طينه.

□ تزوج عام ١٩٥٥ من قريبة له وانجبت له «غيلان». لكن اليأس بقي مسيطراً على نفسه، فراح يكتب «تموزياته» حيث الرمز تموز يعاني ويريد الانبعاث من جديد ليعيد الفرح والحياة للمجتمع، للسياسة للوطن العربي كله، كان ينشر في مجلة «شعر» اللبنانية، حين وعي لمؤتمر في بيروت، وفي محاضرة له قال: «ان رؤيا الشاعر الحديث للعالم انما هي رؤيا كابوس مرعب، وواجب الشاعر ان يفسّر العالم ويحسّنه بإيقاظ الروح والكشف لها عن اذرع الاخطبوط الهائل من الخطايا السبع.. ولمّا كان العالم الحديث لا شعر فيه وتسوده القيم المادية توجّب على الشاعر أن يعمد الى الاساطير والرموز ليعبّر عن رأيه فيه».

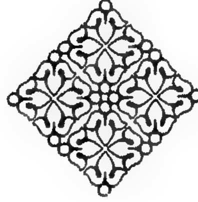
□ وبعد مرحلة «تموزيات» استخدم رموزاً اخرى واساطير، ناقماً على المجتمع ومستدعياً المحبة والسلام له، وازداد اهتماماً بقضية «الموت» بعد أن ساءت صحته وكبرت معاناته العامة.

اريد أن اعيش في سلام
كشمعة تذوب في الظلام
بدمعة أموت وابتسام

□ وفي أقصى درجات اليأس، زار روما ولندن لحضور مؤتمرات ادبية، واجراء فحوصات طبية، فنظم قصائد يائسة يفوح منها الموت والألم والجوع الى الحب والسلام، ثم نقل الى الكويت لرعاية طبية جيدة قرب أهله، وفيها توفي، ثم نقل جثمانه الى البصرة حيث دفن.

□ بدر شاكر السياب من الرواد الاوائل للشعر الحرّ، قصائده، رغم ذاتيها ذات طابع اجتماعي، تصف المعاناة العامة، مستخدمة الرموز والاساطير وهي متكئة على ثقافة عريضة، وتمثل الصراع بين الخير والشر. ولم يكن السياب على هامش الحياة، بل كان ينقل صورة من صراعاتها، بعد أن ذاق منها كل الوانها، فكان ملتزماً بمواقفه، كتب الشعر لتفسير العالم وتحسينه من خلال ذات حرّة صافية، واصلية.

□ جمعت دواوينه في جزأين ومنها: انشودة المطر - شناشيل ابنة الجلبي - ازهار واساطير - المعبد الغريق، منزل الأقنان - اعاصير - الهدايا - قيثارة الريح - فجر السلام -



المصادر: بدر شاكر السيّاب، عيسى بلّاطة، دار النهار، بيروت ١٩٧٨ - ديوان السياب، دار العودة، بيروت ١٩٧٤ - بدر شاكر السيّاب، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت: ١٩٦٩.

احمد شوقي

(١٨٦٩م - ١٩٣٢م)

□ أحمد شوقي، امير الشعراء، ولد في القاهرة، وفي دمه يجري خليط من دماء عربية وكردية وجركسية ويونانية، تبعاً لنسب والديه وجديه وجدتيه، واهتمت به جدته اليونانية التي كانت تعمل وصيفة في قصر الخديوي اسماعيل.

يقول شوقي عن جدته: «حدثتني انها دخلت بي على الخديوي اسماعيل، وانا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه، فطلب الخديوي بدرة من الذهب، ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقفت على الذهب، اشتغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتي: «اصنعي معه مثل هذا، فانه لا يلبث ان يعتاد النظر الى الأرض»، قالت: «هذا دواء لا يخرج الاّ من صيدليتك يا مولاي»، قال: «جيئي به متى شئت فإني آخر من ينثر الذهب في مصر». وهكذا دخل شوقي القصر وتلمّس ذهبه باكراً.

درس شوقي علومه الأولى في المدرسة الخديوية، وفي التجهيزية، ثم التحق بكلية الحقوق، ولما لم ترق له، التحق بقسم الترجمة، وكان قد أنشيء حديثاً، وتخرّج منه.

تفتّحت عبقرية شوقي الشعرية باكراً، حتى بهر أساتذته بها، فلمّا عُيّن، بعد تخرّجه، موظفاً في رئاسة القلم الافرنجي في القصر، اتصل بالخديوي وصار شاعره، ولم تمض سنة واحدة حتى شعر الخديوي ان على شوقي متابعة تحصيله ليستكمل ثقافته، فأرسله الى فرنسا ليلتحق بكلية الحقوق، ويوثّق معارفه بالمدنية الغربية وآدابها، وهكذا سافر شوقي ليعود وقد نال اجازة في الحقوق وليعيش، من جديد، في القصر.

□ عام ١٨٩٤ أوفده الخديوي عباس الثاني ليمثل بلاده في مؤتمر المستشرقين في جنيف، فألقى هناك قصيدته التاريخية «كبار الحوادث في وادي النيل»: ومطلعها:

همّتِ الفلكُ واحتواها الماءُ
وحَداها بمن تُقِلّ الرجاءُ

ضرب البحر ذو العباب حواليها
سماء قد اكبرتها السماء.

□ تأثر شوقي بالقصر، فوظّف شاعريته لمدحه، وقد وجد في الخديوي عباس حلمي صورة المثال الذي يرغبه، فكان لسانه ان وصف أو مدح أو هجا أو خاصم... وكان فخوراً بمركزه حين تولّى رئاسة القلم الافرنجي، فضلاً عن كونه شاعر الخديوي:

شاعر العزيز وما
بالقليل ذا اللقب

ومع انه اشار في مقدمة ديوانه ـ فيما بعد ـ انه كان يكره المدح في هذه الفترة، ويتمنّى لو برّىء الشعر في التهالك عليه والتنافس فيه، لكنه كان يرغب ان يتصل بالأمير، ويحرص على ان يكون شاعره، حاسداً المتنبي على سيف الدولة، فسعد واغترّ، وابتعد عن الناس، وعاش عيشة الامراء في القصر وفي بيته «كرمة ابن هانيء». وبقيت «شاعريته حبيسة القصر الذهبي» ربع قرن تقريباً. حتى الحرب العالمية الأولى.

□ عند نشوب الحرب العالمية الأولى، أبعد الانكليز الخديوي عباس حلمي عن مصر، وهو المعروف بعدائه لهم، وعينوا قريبه السلطان حسين كامل مكانه، كما بدلوا موظفي القصر، فقدم بعضهم استقالته من وظيفته، ولما كان لأحمد شوقي مكانة في القصر والبلاد، فقد طلب الانكليز منه الرحيل، فاختار منفى محايداً، وسافر مع اسرته الى الاندلس.

وفي الاندلس أُتيح لشوقي التوسّع في مطالعاته، فنظم العديد من القصائد معارضاً البحتري والشعراء الاندلسيين، ومنهم ابن زيدون ومنها:

لكنّ مصرَ وانْ أغضتْ على مِقةٍ
عينٌ من الخلدِ بالكافور تسقينا

وكان يشعر في الأندلس، رغم حريته برغبة في العودة وكأن ربّة شعره ضاقت بهذه الحرية:

أأخون اسماعيل في ابنائه
ولقد ولدت بباب اسماعيلا

□ وعند انتهاء الحرب العالمية الأولى، عاد شوقي الى مصر فاستقبل كالابطال لأنه لم يهادن الاستعمار، لكنه لم يتصل بالقصر، فقد حصل انقلاب في نفسه، فراح يذوق ألم الشعب وينظم فيه، متقرّباً منه، في مصروفي البلاد العربية، فذاعت شهرته. واختير عضواً في مجلس الشيوخ، وفي عام ١٩٢٧ تنادت الأقطار العربية الى تكريمه، وبايعته وفودها

اميراً للشعراء، وقد اعلن ذلك حافظ ابراهيم بلسان الجميع:

اميـر القـوافي قـد أتيتُ مبـايعـاً
وهـذي وفودُ الشـرق قـد بـايعت معي

وتحسّس شوقي مآسي البلاد العربية خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخها، فجسّد في قصائده شعوراً قومياً منعتقاً من الاقليمية. فيوم ثورة دمشق التي جابهها الفرنسيون بقوة، كان له موقف مشرّفٌ قال:

سـلام مـن صـبـا بـردى ارقّ
ودمـعٌ لا يـكـفـكـف يـا دمـشق
ومـعـذرة الـيـراعـة والـقـوافـي
جـلالُ الـرُزء عـن وصـف يـدَق
دم الـثـوار تـعـرفـه فـرنـسـا
وتـعـلـم انـه نـور وحـق
ولـلحـريـة الـحـمـراء بـاب
بـكـل يـدٍ مـضـرجـة يـدق

وكان شعوره مع كل عربي اينما كان:

- ونحن في الشرق والفصحى بنور رحم
ونـحن فـي الجـرح والآلام اخـوان
- كـلـمـا انّ بـالـعـراق جـريـحٌ
لـمسَ الشـرق جنبـه فـي عُمـانـه

□ وقد تنازعته في شعره، كما في نفسه، شخصيتان: شخصية الورع المؤمن والحكيم الانساني، وشخصية رجل االدنيا والملذات والتبذّل، فهو القائل في حالتيْه:

- ريم على القـاع بين البـان والعلم
احـلّ سفـك دمي في الأشهـر الحـرم
- ولـد الهـدى فـالكـائنـات ضيـاءُ
وفـمُ الـزمـان تـبسّـم وثـنـاء
و- حـفّ كـأسهـا الـحـبـبُ
فـهـي فـضـة ذهـب

□ وشوقي شاعر الاخلاق، طالما حضّ على الفضيلة والقيم، حتى اصبحت بعض أبياته الحكمية أمثالاً تجري على السنتنا:

- وانمـا الأمم الاخـلاق مـا بقيت
فـان هـمُ ذهبت اخـلاقهم ذهبـوا
- صـلاح امرك لـلاخلاق مـرجعه
فـقـوّم النفس بـالاخـلاق تستقم
- والنفس من خيرها في خير عـافية
والنفس من شـرّهـا في مرتـع وخمٍ.

□ وكان رغم تواضعه، سريع الغضب، ضيّق الصدر من النقّاد، وان جاملهم، فهو معتقد دائماً انه الأفضل، وفي اعتداده بشعره، كان يتحدّى الكبار، امثال المتنبي والبحتري وابن زيدون، قال:

ولي دُررُ الأخلاقِ في المدح والهوى
ولـلـمـتـنـبـي درّة وحـصـاةُ

□ يتميّز شعره بغنائيته، فموسيقاه شوقية خاصة، تتلمسها في اللفظة والتركيب.. كما في الوزن والقافية، مطالع قصائده فخمه رنانة. يقول شوقي ضيف: «هذه الروعة في الموسيقى تقترن بحلاوة وبراعة لا تعرف في عصرنا لغير شوقي».

□ مؤلفاته في الشعر والنثر: الشوقيات: وهو ديوان شعره في اربعة اجزاء. اسواق الذهب: مجموعة مقالات. دول العرب وعظماء الاسلام: اراجيز في تاريخ الاسلام وعظمائه. مسرحياته:

- مصرع كليوباترا (١٩٢٩) - مأساة من التاريخ المصري (شعرية).
- مجنون ليلى (١٩٣١) - مأساة من التاريخ العربي (شعرية).
- قمبيز (١٩٣١) - مأساة من التاريخ المصري (شعرية).
- عنترة (١٩٣٢) - مأساة من التاريخ العربي (شعرية).
- علي بك الكبير (١٩٣٢) مأساة من التاريخ المصري (شعرية).
- اميرة الاندلس (١٩٣٢) - مأساة من التاريخ العربي (نثرية).
- الست هدى (١٩٣٢) ملهاة اجتماعية (شعرية).

□ تأثر شوقي بالمسرح الانكليزي والفرنسي، وبالكلاسيكية بنوع خاص، ولكن مسرحياته جاءت ضعيفة من حيث التمثيل يقول طه حسن: «كان تمثيله صوراً تنقصها الروح، وان جببّها الى الناس ما فيها من براعة وغناء».

□ سنة ١٩٣٢ «سقطت قيثارة الشعر من يده ولبّت روحه نداء ربه». من أجمل ما قيل في رثائه، قصيدة خليل مطران حيث صوّر لوعة العالم وتحدث عن نبوغه:

يجلو نبوغك كل يوم آيةٍ
عذراء من آياته الغرّاء
كالشمس ما آبت اتتْ بمجّدد
متنوع من زينة وضياء

وقصيدة بشارة الخوري ومطلعها:

قف في ربى الخلد واهتف بشاعره
فسدرة المُنتهى ادنى منابره
وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
اشعةُ الوحي شعراً من منائره

المصادر: شوقي شاعر العصر الحديث، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥ - أحمد شوقي، د. فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٨٩ - الشوقيات، دار الكتاب العربي، بيروت.

العقّاد
(١٨٨٩م - ١٩٦٤)

□ عباس محمود العقّاد. ولد في اسوان - جنوب مصر - من أب مصري وأم كردية، وكان أبوه موظفاً في امانة المحفوظات في أسوان. نشأ العقّاد نشأة ودينية محافظة، وتربّى في حضن الطبيعة المنفتحة فألف، منذ صغره، حالات وصوراً متناقضة، درس العقّاد في «الكتّاب» ثم انتقل الى مدرسة اسوان الابتدائية، وقد برزت عنده باكراً بوادر النزعة الفردية، فمال الى العزلة والتأمل والتميّز عن رفاقه في اللباس والهوايات.

وكان يحضر، في منزل والده، مجالس الشيخ أحمد الجداوي، القاضي الشرعي، وأحد تلاميذ جمال الدين الافغاني، فسمع منه، تعرّف الى الاصلاح السياسي، والى الشعر، والمقامات، كما اطلع على بعض الصحف، خاصة صحيفة «الاستاذ» لعبدالله النديم، فتسرّب الى نفسه حب القلم والكلمة.

□ عام ١٩٠٣ أتمّ العقّاد دراسته الابتدائية، فتطوّع مدرّساً في مدرسة تابعة للجمعية الخيرية الاسلامية، ثم توظف في القسم المالي بمدينة «قنا»، قبل أن ينتقل الى «الزقازيق» ليعيش حياة صعبة. عمل العقّاد في صحيفة «الدستور»، متبعاً خطاً فكرياً وسياسياً مستقلاً لفت اليه الأنظار، وخلال عمله في الصحافة اتصل بالمهاجرين من سوريا، ولبنان، والعراق، والتقى بالدكتور يعقوب صرّوف، كما تعرّف الى حافظ ابراهيم وجرجي زيدان، في «دار المقتطف» ومكتبات القاهرة.

وحين تعرّف العقاد الى عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري، الّف معهما اتجاهاً جديداً في نقد الشعر ونظمه، وأطلق على مذهبهم اسم «مدرسة الديوان».

□ وبين الصحافة والأدب، سافر الى اسوان فترة، كما عمل موظفاً فترة اخرى، نشر خلالها «بين الكتب والناس» و «الانسان

الثاني» و «جمع الأحياء»، كما نظم اكثر ديوانه، ثم عمل مدرساً ومترجماً وصحافياً متفرّغاً في: «الاهالي» و «البلاغ».

□ للعقاد اكثر من ستين مؤلفاً، تمتاز كلها بحيوية التفكير، منها:

- ديوان «وحي الأربعين» / وديوان: «هدية الكروان».
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الثاني.
- الديمقراطية وصلاحيتها للأمم الشرقية.
- قصة سارة.
- العبقريات: ابو بكر، عمر وعلي.
- هتلر في الميزان.
- مطالعات في الكتب والناس.
- عقائد المفكرين في القرن العشرين...

□ ثقافة العقاد واسعة، يؤكدها نتاجه الأدبي الفني المتنوع، فقد كان مطالعاً متفرّغاً، تعد مكتبته نحو أربعة عشر ألف كتاب. وقد نال سنة ١٩٦٠ جائزة الدولة المصرية التقديرية في الآداب تنويهاً بأعماله.

□ **الكاتب السياسي:**

نشأ العقاد في عصر قلق واضطراب، ورغم ذلك استطاع وهو في السادسة عشرة من عمره، ان ينتهج خطاً سياسياً واضحاً لنفسه: فالجامعة الاسلامية عنده هي جامعة شعوب ميتقّظة متعاونة، لا جامعة مراكز وحكومات، وموقفه من الدول الأجنبية قائم على التعاون انطلاقاً من ان «مصر للمصريين» كما آمن أن الحكم الدستوري هو أفضل النظم الديمقراطية على الاطلاق، ولا يمكن مقابلته بحكم الاستبداد. ومن أقواله: «فكرةُ التعويل على الرأي العام هي الفكرة التي نريد أن نخلص اليها من هذه النظرة العاجلة الى نظم الانتخاب وقوانينه المتعدّدة.. فالرأي العام دون غيره هو ضمان كل حريّة أياً كان الدستور وأياً كان قانون الانتخاب، وأياً كانت الكثرة او القلة بين الأحزاب».

وقد استطاع العقّاد بمقالاته التي كان يكتبها في «البلاغ» احباط مؤمراة تعديل دستور ١٩٢٣ التي كانت تهدف الى الغاء مبدأ «الأمة مصدر السلطات». كما أصدر العقاد كتابين هاجم فيهما الاستبداد السياسي المطلق، ودخل السجن مرّة لانتقاداته العنيفة، وهو من اكبر المتحمسين للديمقراطية، وان كان يكتب دائماً بنفس الأديب والمفكر المنظر فيقول: «والادباء لا يمثلون الامة، بل يدلون عليها، فلا تخفى حالة الأمة على من يعرف ادبها وادباءها... ومن المعلوم ان الأدباء عامة أميل الى الانتقاد وطلب التغيير، لأنهم يعيشون في جو المطالب المثالية ولا يقيسون الامور بمقاييسها العلمية الواقعية..».

□ **الاديب الموسوعي:**

ان انطواء العقاد على نفسه لم يجعله بعيداً

عن الناس، بل كان يعيش بينهم عبر الكتب، اذ ان ميله الشديد الى المطالعة جعله يشارك في فهم النفسيات، والثورات، والمذاهب الأدبية، والتحرّكات السياسية، وتقييم النظريات والكتب الجديدة والصراعات الفكرية.. هذه المشاركة لم تكن عملية «اخذٍ» فقط، بل كانت «عطاء» عبر مقالات ومناظرات وكتب ومحاورات شفوية في المجالس، فقد كتب العقاد في التاريخ وفي شخصياته، في الادب العالمي ونظرياته وكتبه وأعلامه، في الفكر، واللغة والفن، والحرية، والأنواع الادبية وممثليها، كما كتب ناقداً ما يطرأ على العالم من تغيّر علمي أو أدبي أو سياسي... ومن عناوين مقالاته في ذلك: المناهج في فن القصة ـ جائزة نوبل وولادتها الأدبية ـ كيف يفهمنا كتّاب الغرب ـ العظماء المشرّدون ـ تسمية الأمم ـ المثل الاعلى في عالم الحقيقة ـ المسؤولية بين المجرم والمجتمع ـ درسٌ من جزيرة مالطة ـ الفن والحرية صديقان قديمان ـ السليقة العربية ـ التجديد في فن الشعر ـ الادب في مراكش ـ العدد في اللغة العربية..

□ القصاص:

أحب العقّاد عدة مرات في حياته، لكنه لم يتزوج، وكان في السادسة والثلاثين حين احب سيّدة تدعى «أليس» فصور حبّه لها في قصته الوحيدة «سارة»، ونشرها مقالات في مجله «الدنيا»، تحت عنوان «مواقف في الحب» وهي ليست قصة بالاسلوب المعروف، اذ يقول، هو، عنها: «رواية تحليلية أو تحليل روائي كما يشاء» لأنه يعتقد ان «الراوية قد يكون اخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر او الناثر البليغ، ولكن الرواية تظل، بعد هذا، في مرتبة دون الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور»، لذا حاد عنها الى الكتابة النقدية والفنية، ولم يصدر غير «سارة».

□ كان الجالس مع العقّاد يشعر فيه ان فيه عالماً مبهماً مجهولاً، ينطوي على أسرار روحية ومطامح دنيوية، وهو شجاع يجاهر بالصدق والعدل، ويمقت الكذب والظلم، ولم يكتب في تراجمه الا عن مَن هُم شرفُ الانسانية وضميرها. وهو رجل مؤمن، وايمانه لايرتكز على الحواس والعقل فحسب، «لأنهما في رأيه لا يصلحان للكشف عن الحقيقة الكونية الكبرى، اما السبيل اليها فهو الملكة الوجدانية، او سلوك المتصّوفة في اذواقهم ومواجيدهم».

المصادر: لمحات من حياة العقاد المجهولة، عامر العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٦٨ ـ العقاد، د. شوقي ضيف، القاهرة ط ٢ ـ عيد القلم، العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ـ بين الكتب والناس، العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٦٦.

المتنبي

(٩١٥م - ٩٦٥م)

□ أحمد بن الحسين الجعفي. ولد في الكوفة وتربّى يتيماً في حضن جدته، بعد أن فقد أمه وهو صغير، وكان ابوه يعمل سقّاء ويلقب بـ «عبدان السقاء». درس في الكوفة ثم لجأ الى صحراء السماوة حيث اختلط بالبدو، وأخذ عنهم اللغة والبلاغة.

□ نشأ في البؤس والحرمان، وكان طموحاً، يرغب في اعتلاء أرفع المناصب، وهو المعجب بنفسه وبشعره، وقد ساعده في ذلك اضطراب الحالة السياسية، فالفتن والثورات عديدة، والسلطة المركزية في بغداد تتنازعها الأهواء. واطراف الامبراطورية الاسلامية تتقاذفها سيطرة الدويلات، وكان في الشام، حين أقدم على دعوة علوية لنفسه، لاقت تأييداً من بعض القبائل، فأسرع لؤلؤ، أمير حمص، الى اعتقاله، ثم عفا عنه بعد شفاعات كثيرة. وربما، استناداً الى هذه الحادثة لزمه لقب المتنبي أو، ربما لأنه شبّه نفسه بالانبياء في بعض شعره.

□ تابع المتنبي ترحاله، يعصف به القلق والطموح الجارف، فاتصل بأكثر من ثلاثين اميراً وزعيماً لكنه لم ينل مرامه في الوصول الى مناصب زمنية رفيعة، وان كان وصل الى أعلى منها في شعره، مخلّداً به من كان يمدحهم، كما خلّد به نفسه. «فقد رفع المتنبي الكذب الى مرتبة العبقرية» كما قال عمر الفاخوري، وهو لم يمدح احداً الاّ مدح نفسه معه أما قال عن نفسه:

وما الدهر الاّ من رواة قصائدي
اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به مَن لا يغنّي مغرّداً

□ وبعد أن أقام سنتين عند بدر بن عمار، في طبريا، رحل الى انطاكية، وحطّ عند أبي العشائر الحمداني، وهناك سمعه سيفُ الدولة، يوم حلّ على نسيبه ضيفاً، فاصطحبه معه الى حلب حيث أقام لديه تسع سنوات (٩٤٨ م - ٩٥٧ م)، قال فيها ثلث شعره

وأجوده. وثق المتنبي بسيف الدولة، وأعجب بأدبه، وخلقه، وشجاعته، ودفاعه الدائم عن العروبة والاسلام، فمدحه صادقاً:

- تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
الى قول قوم أنت بالغيب عالم
- تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

لقد رفع سيف الدولة فوق اقرانه جميعاً، بل فوق البشر، وجعله بطلاً ملحمياً فريداً، ومدْح المتنبي لسيف الدولة من أصفى الشعر الوجداني وارقّه. امّا انقطاعه له فترة فمردّه الى ان المتنبي كان يرى نفسه في سيف الدولة، او يرى نفسه واياه اميرين متقابلين: فان كان سيف الدولة امير الحرب فالمتنبي امير الكلمة، ومن هنا فخره الدائم بنفسه وتعريضه بالشعراء الآخرين:

- أريد من زمني ذا أن يبلّغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

- ان اكنْ معجباً، فعُجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيدِ

- اجزني، اذا انشدت شعراً فانما
بشعري أتاك المادحون مردّداً

ودعْ كل صوتٍ غير صوتي، فانني
أنا الطائر المحكي، والآخر الصدى

- أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
واسمعتْ كلماتي من به صممُ

□ ثم ترك سيف الدولة، بعد أن كثر حسّاده، الى مصر، واتصل بصاحبها كافور الأخشيدي، ومكث عنده اربع سنوات، طامعاً بولايته يُقطعه اياها، وحين أحسّ ان كافوراً ضيّق عليه فرّ منه، تاركاً هجاءه فيه يدوي ويُصمّ، ليخلد كافوراً العبد على مرّ التاريخ:

لا فخر للأنزال الّا انني
خلّدت ذكرهم بسطر هجاء

لقد جاء المتنبي الى مصر كاذباً، فلم يمدح كافوراً بصدق، بل مدحه تكسّباً وطمعاً، فركّ مدحه الّا ان هجاءه كان مقذعاً قاسياً، تضمّن هجاء للمصريين ايضاً، تقريعاً، وذماً:

- صار الخصّي امام الآبقين بها
فالحر مستعبد والعبد معبود

- جوعان يأكل من زادي ويمسكني
حتى يقال: عظيم القدر مقصود

- ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
الّا وفي يده من نتنها عود

- أكلما اغتال عبد السوء سيده
او خانه فله في مصر تمهيد؟

يقــوم هجـاؤه على سلب الفضـائـل من المهجـو وإلصـاق المسـاوىء بـه، وهجـاؤه خلْقي، يتناول عيوب كافور الجسدية وخُلُقي يتناول عاهـاته النفسيـة، وهو دائمـاً تهكمي ساخر.

□ امّا حكمة المتنبي فقوامها فلسفة القوة، وهي التي حـدّتْـه الى نبـذ الجبن والفشـل والرغبة بالمغامرة الى حدّ المخاطرة:

- الـرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان
هـو أول وهـي الـمـحـل الـثـانـي

- حتى رجعت واقـلامي قـوائـل لي
المجـد للسيف ليس المجـد لـلقلم

- اذا غـامـرت فـي شـرف مـروم
فـلا تـقـنـع بـمـا دون الـنـجـوم

قال اليازجي في حكمتـه: «المتنبي ينطق بألسنة الحـدثان ويتكلم بخـاطر كـل انسان» لكنه لم يكن فيلسوفاً، فلم يكن لديه مذهب معيّن ينظر في خلاله، الى جميع معطيات الحياة، وان ثُقّف ثقافة فلسفية، فقـد يدعى شاعراً حكيماً لأنه عبر عن خواطـره بعمق، حتى فاق غيره من الشعراء شمولية.

□ ان نزعة القوة والثورة ظاهرة في شعره، والطموح وثّاب في قلبه، وشموخ معانيه يدل على انفته وعجْبه، وهـو وقور دائمـاً وجدّيٌّ رصين لم يُعرف انه أحب، بـل فضل طلب المجد والفضيلة على كل شهوة ولذة.

تـركنـا لأطـراف القنـا كـل شهـوة
فـليس لـنـا الاّ بـهـن لـعـاب

لكن كبرياءه اصابته بجنون العظمة، فشطّ وبالغ:

الخيـل والليـل والبيـداء تعـرفـني
والسيف والـرمح والقـرطـاس والقلم.

□ قصائده متماسكة، مبنية بناء سليماً، تبـدأ بـالفخـر أو بـالحكمـة وتتـدرّج الى المقصود، في معانٍ جـزلة والفـاظ مختارة. وقد، اعتنى بديوانه وشذّبه ونقّحه بنفسه.

□ قـال فيـه ابن رشيق: «مالىء الـدنيـا وشاغل الناس». لقد بلغ المتنبي مكانه رفيعة في الشعر العربي لم يبلغهـا غيره. اغـراض شعره المتنّوعة، لم يزد «فيها على ما سار عليه الأقـدمون، الاّ ان صـوره ومعانيـه فيهـا من التجديد ما يؤكد ابداعه، وهو ما جرّ عليه هذا الغرور بنفسه:

اي مـحـلّ أرتـقـي
أي عـظيـم أتـقـي
وكـل مـا خـلق
الله ومـا لـم يـخـلق
مـحـتـقـر فـي هـمـتـي
كـشـعـره فـي مـفـرقـي

فهو شاعر ملحمي، وشاعر الشخصية، والوجدانية، وصنّاجة الجهاد العربي والاسلامي ،وانه حقاًشاعر السيف والقلم.

□ ولمّا ودّع المتنبي عضد الدولة، اتجه الى بغداد ومعه ابنه «محسّد» وغلامه «مفلح»، وفي الطريق لقيه فاتك بن أبي جهل الأسدي مع رجاله وهو خال ضبّة الذي كان المتنبي قد هجاه، واقذع فيه الشتائم. ودارت المعركة بين الفريقين في مكان يدعى «النعمانية»، وانتهت بمصرع المتنبي، الذي آثر الصمود على الفرار تأكيداً لمُثله واخلاقه.



المدخل الرئيسي لقلعة حلب

• المصادر: ديوان المتنبي ـ المتنبي، د. فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٨٩ ـ مع المتنبي، د. طه حسين، القاهرة: ـ المتنبي، محمد شاكر، مصر: ١٣٩٧ هـ. ـ العوامل السياسية في شعر المتنبي، د. عصام السيوفي، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٨١.

الهمذاني

(٩٦٨ م - ١٠٠٧م)

□ أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، كنيته أبو الفضل، والمعروف ببديع الزمان. ولد في همذان ـ فارس ـ وقال في احدى رسائله عن نسبه: «اني عبد الشيخ واسمي أحمد وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد».

درس بديع الزمان اللغة والأدب على ابن فارس في همذان، ثم ارتحل عن همذان إلى الري، وفي مجالس الصاحب بن عباد أفاد منه ومن ندمانه وجلّاسه، فاطلع على مختلف فنون المعرفة، وقد جمعت مجالس الصاحب أعلام أدب في الدين والدنيا، وأدباء وقضاة ومترسلين، وقد أفاد بديع الزمان، أيضاً، من تعرّفه إلى شعراء الكدية الجوّالين، كابن سكرة وابن الحجاج وأبي دُلَف الخزرجي.

وبعد جفوة بينه وبين الصاحب، غادره إلى جرجان، وأقام مدة قريباً من الإسماعيليين، فوسّع آفاقه الثقافية والعقائدية، ثم انتقل إلى خراسان فإلى نيسابور فاتصل ببني الميكالي، وبالاديب ابن المرزبان، وفي دار نقيب السادة في نيسابور وقعت مناظرات بينه وبين أبي بكر الخوارزمي، رفعت قدره وأطارت صيته، فقرّبه الأمراء والعلماء واعترفوا بنبوغه. وفي نيسابور أملى مقاماته. ثم طوّف في البلاد حتى «هراة» حيث توقف أخيراً وتزوج، وعاش في ثراء ورخاء. حتى توفي وهو قريب من الأربعين.

□ كان بديع الزمان طموحاً، وتوّاقاً إلى الثروة والجاه، أنانياً لا يعترف بفضل أحد عليه، وكان مغروراً فخوراً بثقافته وبلاغته. كما كان مزهواً بنسبه العربي، شديد الحماسة للعرب شديد النقمة على الشعوبية ودعاتها.

وكان بديع الزمان ذا ذاكرة قوية «ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم بيتاً ولا يخل بمعنى، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهزها عن ظهر

قلبه هذا ويسردها سرداً». وكان يقوم بعجائب انشائية «فيكتب الكتاب المقترح عليه ويتبدىء بآخر سطر منه ثم هلمّ جراً إلى السطر الأول حتى يخرجه مستوفي الألفاظ والمعاني كأملح شيء وأحسنه»، وكان في مقدوره ان يكتب كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله، أو كتاباً أذا قرىء من أوله إلى آخره كان كتاباً فإذا عكست سطوره كان جواباً، أو كتاباً خالياً من الألف واللام، أو من الحروف العوامل أو أول سطوره كل ميم وآخرها ميم، أو كتاباً إذا فسّر على وجه كان مدحاً وإذا فسّر على وجه آخر كان قدحاً».

□ نتاجه: ديوان شعر، ومجموعة رسائل، واثنتان وخمسون مقامة.

□ قال القلقشندي: «إن أول من فتح باب عمل المقامات علاّمة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذاني فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه وهي في غاية البلاغة وعلو المرتبة في الصفة».

والمقامة هي المجلس أو الجماعة من الناس، وتقدمت في معناها لتصير العظة والخطبة الأخلاقية، حتى أشير اليها أخيراً على أنها نوع من أنواع الأدب كالشعر والخطب. والهمذاني قصد منها: العظة التي يلقيها المكدي على الناس فيذكّرهم بان الدنيا مجاز، ويدعوهم إلى الآخرة بغية الاحتيال عليهم ومخادعتهم.

□ أطلق الهمذاني لفظة مقامة على فنّه الظريف من المقطوعات الأدبية التي ابتدعها، وهي تدور حول الكدية، تتمثل بصورة شيخ المكدين، الاسكندري، يحتال على الناس ببيان رائع. وقد أراد الهمذاني في مقاماته أن يُظهر براعته اللغوية وإلمامه بغريب المفردات ورسوخ قدمه في مذاهب الكلام شعراً ونثراً. وفي مقاماته اشارات اجتماعية لعصره الغني بالمتناقضات، كما كان للوصف حصة في مقاماته، فنقل ملاحظات ولوحات جديرة بالتأمل.

□ تقوم المقامة على خبرٍ يرويه عيسى بن هشام عن ابي الفتح الاسكندري، وتكون المقدّمة قصيرة تذكر سفرةً أو تجواله في زي منكّر، واجتماعه بناس يُنشدهم شعراً أو يخطب فيهم، فيؤخذون به ويقعون بشرْك حيلته، فيتقدم منه عيسى بن هشام ويعرف انه أبو الفتح الاسكندري، وعندها ينشد الاسكندري بعض أبيات الشعر عن موقفه من الحياة...

وفي لغة المقامة كل أنواع السجع، يُكثر منها بلا تكرار، وقد تتعدّد سجعاته حتى تبلغ سبعاً أو أكثر.. وقد يزيّن النص أيضاً

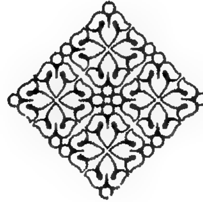
بـالتشبيه وأنـواع المجـاز، وينمّق الأسلوب بأبيات شعر وآيات وأمثال، ويكثر من غريب الكلام ووحشيّه.

□ من المقامة المضيريّة:

«حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الاسكندري، رجل الفصاحة يدعوهـا فتجيبه، والبـلاغة يـأمرهـا فتطيعـه. وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقُدِّمت الينا مضيـرة تثني على الحضـارة وتتـرجـرج في الغضارة... قام أبو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبها وطابخها، وظنناه يمزح، فإذا بالأمر بالضدّ، وإذا المزاح عين الجـد، وتنحّى عن الخـوان، وتـرك مساعدة الاخوان، ورفعناها، فارتفعت معهـا القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلّبت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه... وسألناه عن أمرها، فقال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد... وجعل طول الطريق يثني على زوجته ويفديها بمهجته، ويصف حـذقها في صنعتها وتأنقهـا في طبخها... حتى انتهينـا إلى محلّته ثم قال: يا مولاي ترى هذه المحلّة هي أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار في نزلها ويتغاير الكبار في حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وانما المرء بالجار... كم تقدر انفق على كل دار منها، قله تخمينا؟ وانتهينا إلى داره، فقـال: هذه داري، كم تقـدر يـا مولاي انفقت على هذه الطاقة؟ انفقت والله فوق الطاقة، ووراء الفاقة... انظر إلى دقائق صنعها... وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذه الباب، اتخذه من كم؟ قل، ومن أين؟ اعلم، هو ساج، من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن، إذا حُرّكَ أنّ، وإذا نُقر طنّ... ثم قَرع الباب ودخلنـا الدهليـز، قال... انمـا حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادتي... الله أكبر، لا ينبئك أصدق من نفسك ولا أقرب من امسك، اشتريت هذا الحصير بالمناداة وقـد أخرج من دور أهل الفرات وقت المصادرات وزمن الغارات... ونعود إلى حديث المصيرة، فقد حان وقت الظهيرة، يـا غلام، الـطست والماء، فقلت: الله أكبر، ربما قرب الفرج، وسهُل المخرج، وتقدّم الغلام، فقال: ترى هـذا الغـلام؟ أنـه رومي الأصـل، عـراقي المنشأ، تقدّم يـا غلام، واحسـر عن رأسك وشمّر عن ساقك... وقال التاجر: بالله من اشتراه؟... يا غلام الأبريق، فقدّمه، واخذ التاجر فقلّبه، ثم قال: وانبوبه منه، لا يصلح هذا الإبريق إلّا لهذا الطست، ولا يصلح هذا الطست إلّا مع هذه الدست، ولا يحسن هذا الدسـت إلّا في هـذا البيت... يـا غـلام، الخوان، فقد طـال الزمـان، والقصاع، فقـد طال المصاع، والطعام، فقـد طال الكـلام.

فأتى الغلام بالخوان، قال: تأمل هذا الخوان، وانظر إلى عرض متنه، وخفة وزنه وصلابة عوده، وحسن شكله، فقلت: هذا الشكل، فمتى الأكل؟ فقال: عجل يا غلام الطعام، لكن الخوان قوائمه منه، قال أبو الفتح: فجاشت نفسي وقلت: قد بقي الخبز وآلاته، والخبز وصفاته، والحنطة من اين اشتريت رطلاً، وكيف اكترى لها حملاً، وبقي الخباز... وبقي البقل... هذا خطب يطمّ وأمر لا يتم. فقمت، فقال: أين تريد. قلت: حاجة أقضيها، فقال: يا مولاي، تريد كنيفاً يزري بربيع الأمير، وخريفي الوزير، قد جصص أعلاه، وصهرج اسفله، وسطح سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه... يتمنى الضيف أن يأكل فيه، قلت: كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف بالحساب، وخرجت نحو الباب وأسرعت بالذهاب، وجعلت أعدو، وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح، المضيرة، وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي، فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر بعمامته، فغاص في هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس. فاقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت أن لا اكل مضيرة ما عشت. فهل أنا في ذا، يا آل همذان، ظالم؟

قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا، قديماً جنت المضيرة على الأحرار، وقدّمت الأرذال على الأخيار.



المصادر: بديعات الزمان، د. فيكتور الكك، دار المشرق، بيروت: ١٩٧١ - بديع الزمان الهمذاني، مارون عبود، دار المعارف، بيروت: ١٩٥٤ - المقامة، د. شوقي ضيف. دار المعارف، بيروت: ١٩٥٤.

القيادة الاسلامية

□ حين توفي الرسول الأعظم ﷺ، افتقد المسلمون رجلاً جمع في شخصه مواصفات الرئيس الديني والدنيوي. ولمّا أفاقوا من الصدمة الأولى إثر كلمة ابي بكر الصديق: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ﴿افإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...﴾ التفتوا ليختاروا من بينهم رجلاً يخلف الرسول صلوات الله عليه، لكن من يخلفه؟ كان السؤال يطرح للمرّة الأولى، فالمسلمون يريدون قائداً يتابع المسيرة، فالنبي الكريم قد اسس مجتمعاً جديداً، والدعوة لم تزل قاصرة على بعض انحاء من الجزيرة العربية، اذاً فالخطر المُحدق من الأطراف سيعظم مع الوقت... وهناك مشاكل ستتأتّى، فمن لها؟.

□ وكان الحكم الراشدي، سنوات من القيادة الحكيمة لمجتمع جديد في تطلعاته وتوسعاته واحتكاكه بالحضارات المتاخمة. كان حكماً رائداً لشعب مسلم يحتاج الى رعايته حميمة، من اصحاب رسول الدعوة الاسلامية، والى قيادة تؤصّل فيه فضائل الحاكم المسلم، الذي يستمد فكره وسلوكه، من القرآن الكريم وسنة نبيه.

□ لقد حظي المسلمون الأوائل بنخبة من الصحابة الفاضلين، تربّوا على سيرة الرسول العظيم، وعاشوا في ظلال آيات القرآن البيّنات، وكل منهم وهبه الله ميزات تردف ميزات الآخر، فاذا كان القائد الحاكم من بينهم أحاطوه بخبرتهم وحكمتهم، فسلمت الخلافة من الزلل، واجتمعت الآراء شورى لتعزيز دور هذه الخلافة الراشدة.

□ ثم كان تأسيس الدولة الاسلامية، وتمكين أركانها، خاصة بعد أن اتسعت رقعتها وزاد عدد شعبها وتنوّع، وطرأت المشاكل الجديدة مع الامتزاج الحضاري، والابتعاد عن مركز الدعوة الاسلامية، جغرافياً وزمنياً.

□ ان «امير المؤمنين»، في مسيرة الخلافة الاسلامية، مثله مثل الحكام والولاة والعمّال،

المعينين من قبل الخليفة أو المنفصلين عنه في حكمهم لبلد اسلامي، بقوا يستمدون من «النموذج الراشدي» مقاييس الحكم الفاضل والقيادة العادلة، فالنموذج الراشدي مثّله اصحاب لرسول الله ﷺ تيمّنوا بسيرته صلوات الله عليه، مما أعطاهم هالة بارزة، فصاروا قدوة لمن بعدهم، والجامع المشترك الدائم بين من تولّى الحكم هو العودة الى القرآن الكريم دائماً، لاستمداد العون في احقاق العدل ورعاية المسلمين، ومن بعد القرآن الكريم الرجوع الى السنة الشريفة فالنموذج الراشدي قياساً، لكن لا يفوتنا، ان الحكم بعد ان صار وراثة، وتدخلت فيه عناصر أجنبية احياناً، قد أوصل الى سدّة الحكم رجالاً ضعافاً، ما اتصفوا أبداً بمواصفات النماذج المُشار اليها.

□ امّا في القيادة العسكرية فكانت للنبي ﷺ، ايضاً، الريادة الأولى، وقد أذن الاسلام بالحرب بعد أن فشلت الوسائل السلميّة التي قام بها النبي العظيم دون عدوان قريش. فقد مرّ على النبي صلوات الله عليه ثلاث عشرة سنة يأمر اتباعه بالصبر على الأذى والصفح عن المعتدي، ثم كانت بيعة العقبة الكبرى التي بايع فيها من اسلم من عرب المدينة محمداً ﷺ بيعة دفاعية، وتعهّدوا بحمايته من العدوان. ثم اذن الله لرسوله بالقتال: ﴿**اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير**﴾ الحج / ٣٩. ونزلت بعدها الآية: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾ البقرة / ١٩٣.

□ لقد شرّع الاسلام القتال في حرب دفاعية، حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، وهو قتال في سبيل حرية الدعوة الى الله. وقد أنكر الاسلام حرب الاعتداء، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين**﴾ البقرة / ١٩٥.

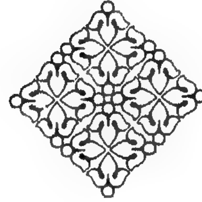
□ وسنّ الاسلام للحرب قواعد لم تعرف قبله، حصرها في صدور ترعى الحرمات تمام الرعاية، فمنع التعدّي والغدر وقتل الشيوخ والاطفال والنساء، وحثّ على حفظ العهود. كما وضع احكام معاملة الاسرى وخيّر الأمم المغلوبة بين الاسلام والجزية.

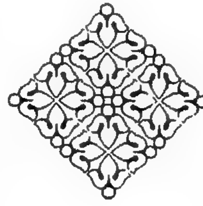
□ فعرفنا قادة فاتحين تحلّوا بالاخلاق الاسلامية الفاضلة، فضلاً عن الموهبة العسكرية في المعارك، وفي ادارة الجند حرباً واقامة.

□ لقد منّ الله على الاسلام بقادة يسّروا نشره في فتوحات جريئة، بلغوا بها أطراف العالم المعروف يومذاك. فكانوا ينتصرون في معارك كبرى، رآها الدارسون اليوم اشبه

بالمعجزات. فالأقوام التي حاربها المسلمون كانت تتمتع بالقدرة العسكرية التامة، وكانت تحارب في ديارها، أمّا أعداد جيوشها فكانت تفوق اعداد جيوش المسلمين بأضعاف، لكنها ما كانت لتصمد امام قوتهم وايمانهم، فتنهزم، ويتقدم جيش المسلمين رافعاً راية الانتصار، لينشر دين الحق.

□ وفي الصفحات التالية نستعرض حياة عباقرة الاسلام في الحكم والقيادة، مُسهبين في ذكر خصائص كل قائد، وكل معركة من المعارك الاسلامية الكبرى الفاصلة.





عباقرة القيادة

ابو بكر الصديق

(ت ٦٣٤م)

□ عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو، التيمي القرشي. ولد بعد النبي ﷺ بسنتين، وكان ذا يسار ووجاهة في قريش، مسؤولاً عن الديّات فاذا تحمّلها صدّقوه. وقيل انه لقّب بالصديق، لأنه صدّق الرسول العظيم في اسرائه الى بيت المقدس. وكان ابو بكر مصاحباً للرسول ﷺ قبل الاسلام. فلمّا شرّف الله تعالى محمداً برسالته، كان أبو بكر أول رجل أجابه، قال عليه السلام: «ما دعوت أحداً الى الاسلام الاّ كانت له كبوة غير أبي بكر». وهو أول العشرة المبشرين بالجنة.

□ صاحَبَ ابو بكر رسولَ الله ﷺ في هجرته الى المدينة، وكان له شرف ذلك بنصّ قرآني: **﴿اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا﴾**، وقد شهد أبو بكر مع رسول الله ﷺ مَشاهدَه كلها، وكان يحمل رايته في آخر غزوة، وهي تبوك.

□ حين مرض رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس. قال فيه عليه السلام: «ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلاً». وجاءته عليه السلام امرأة، فقال لها ان تعود اليه، فأجابت: ان جئت ولم أجدك [كأنها تقول الموت]، قال ﷺ: «ان لم تجديني فائتي ابا بكر».

□ كان ابو بكر ابيض خفيف العارضين، أحنى، معروق الوجه، نحيفاً، غائر العينين، أقنى، وكان له من الأولاد: عبدالله (جرح بالطائف وتوفي في أول خلافة أبيه) - واسماء (زوج الزبير بن العوام) - وعبد الرحمن - وعائشة (ام المؤمنين زوج الرسول ﷺ) - ومحمد (الذي ولي مصر ايام علي بن ابي طالب وقتل فيها) - وأم كلثوم (ولدت بعد وفاته) - .

□ لما مات رسول الله ﷺ، كان أجزع الناس عمر بن الخطاب، فانه أخذ بقائم سيفه، وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ الاّ ضربته بسيفي هذا. فلما جاء أبو بكر، ودخل على النبي وهو مسجى، فوضع

البردة عن وجهه، وقبله ثم سجّاه، والتفت الى الناس وقال: ﴿وما محمد الاّ رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ ومن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات...

□ والأحاديث عن تقديم ابي بكر على أصحابه عديدة، ومثلها الأحاديث التي تستخلفه على الصلاة في غياب الرسول العظيم وخلال مرضه الأخير. ومنه حديث عائشة: «لا ينبغي لقوم فيهم ابو بكر ان يؤمهم غيره»، وحديث عمر بن الخطاب يوم السقيفة: «نشدتكم بالله هل تعلمون ان رسول الله ﷺ أمر ابا بكر يصلي بالناس؟ قالوا: نعم، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام اقامه فيه رسول الله ﷺ؟». وحديث علي رضي الله عنه: «ان رسول الله ﷺ مرض لياليَ واياماً ينادي بالصلاة فيقول: مروا ابا بكر فليصلِّ بالناس، فلما قبض رسول الله ﷺ نظرت فاذا الصلاة علَم الاسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ فبايعنا ابا بكر».

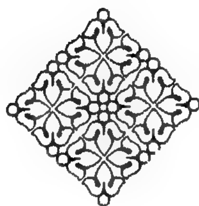
□ مُني الاسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بالمرتدّين، وكانوا كثراً، تبع بعضهم متنبئين كذّابين، وترك بعضهم الآخر الدين كله. ومنهم من ترك الزكاة فقط... فوجّه أبو بكر اليهم أحد عشر لواء عليهم أحد عشر قائداً، وكتب الى المرتدين يدعوهم لاتباع الاسلام، وفيما كتبه لهم «... واني قد انفذت لكم... في جيشٍ من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان، وأمرتُه ان لا يقاتل احداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى، ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة، ويسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد الاّ الاسلام».

□ وانتهى ابو بكر من حروب الردّة، فجمع كلمة العرب كلهم للاسلام، ثم التفت الى الأقوام المتكبرة المجاورة، فابتدأ بدولة الفرس، ووجّه اليها خالد بن الوليد، فبدأ في معركة «الابلّة»، وتتابعت انتصاراته في العراق، حتى أمره ان يخرج الى الشام ليساعد الأمراء الأربعة: عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن ابي سفيان، وأبا عبيدة بن الجرّاح، الذين وجههم ابو بكر الى الشام ليخلصوها من الروم. وفي الشام كانت معركة اليرموك العظيمة التي أسهمت في فتح البلاد كلها للمسلمين.

□ ومرض أبو بكر في السنة الثالثة عشرة

للهجرة، ولما اشتدّ مرضه جمع كبار الصحابة فاستشارهم في العهد لعمر بن الخطاب، فقالوا كلهم خيراً، فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه العهد. وتوفي في ٧ جمادى الآخرة. وكان آخر ما قاله: «توفني مسلماً والحقني بالصالحين».

□ والأحاديث في صفات أبي بكر عديدة ومتنوّعة، منها. حديث في خوفه الله تعالى، وزهده، وورعه، وتعفّفه، وسرعة رجوعه عن غضبه، وتعبّده وحسن صلاته، وسبقه الى أعمال البر، وفراساته وكراماته، وذكر اقتفائه آثار النبوّة واتباعه اياها.



المصادر: الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشّرين بالجنة، المحّب الطبري، بيروت: ١٩٨٨ - تمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر. عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، ط٩، دار المعارف، مصر: ١٩٦٧.

ابو عبيدة بن الجراح

(٥٨٤م - ٦٣٩م)

□ عامر بن الجرّاح القهري ثم القرشي، كنيته ابو عبيدة، ولقبه امين الأمة الاسلامية بشهادة النبي ﷺ. قال الرسول الكريم فيه: «ما من أحد من أصحابي لو شئت لأخذت عليه في خلقه ليس ابا عبيدة بن الجرّاح» وسئلت عائشة: من كان أحبّ الى رسول الله؟ قالت: ابو بكر ثم عمر ثم ابو عبيدة بن الجراح. وقد رشّحه ابو بكر للخلافة يوم السقيفة، بعد موت الرسول الكريم. كان ابو عبيدة صادقاً، نزيهاً، متواضعاً. فحين زاره عمر في الشام، دخل بيته فلم ير شيئاً من اثاث او رياش، فاستغرب وسأله: أعندك طعام؟ فقام ابو عبيدة وقدّم له كسرات، فبكى عمر. وقال: «غيّرتْنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عبيدة».

□ وابو عبيدة بن الجراح مجاهد، مقاتل، سيّره النبي الكريم في بعوث عديدة قبل أن ينتدبه ابو بكر لفتح الشام، ويوجهه الى حمص، كما وجّه عمروِ بن العاص الى فلسطين ويزيد بن ابي سفيان الى دمشق، وشرحبيل بن حسنة الى الاردن.

□ **فتح الشام**: استغرق من ابي عبيدة بن الجراح بقية عمره، فكان مثال القائد والأمير، المقاتل والحليم. وصل الامراء الاربعة الى الشام متفرّقين، وحين جاءتهم انباء حشد الجيش الرومي تنادوا للاجتماع في اليرموك، وبعد مراسلات بينهم وبين الخليفة كُتب الى خالد بن الوليد وكان في العراق أن يأتيهم بمدد. فجاءهم واقترح توحيد القيادة ليلقوا الروم صفاً واحداً على ان تكون القيادة كل يوم لأمير، وطلب جعل اليوم الأول له. وهكذا تلاقى الجيشان الاسلامي والرومي، فهُزم الروم وقتل منهم اكثر من مائة وخمسين ألفاً.

* وقد حضر كتاب من المدينة، قُبيل التقاء الجيشين فيه خبر بوفاة الخليفة ابي بكر واستخلاف عمروعزل خالد من القيادة، وتولية ابي عبيدة بن الجراح مكانه، قرأ خالد الكتاب وابقاه معه حتى نهاية المعركة، ثم تقدّم من

ابي عبيدة، وسلّم عليه بالامارة وناوله كتاب الخليفـة قائـلاً للمسلمين: «ان الخليفة امّـر عليكم امين هذه الأمة».

* وفتح ابو عبيدة دمشق صلحاً، بعد ان احتال الروم فيها عليه إثر دخول خالد عليهم من احد اسوارها عنوة، لكنه كان قـد اعطى كلمته لهم، فصالحهم على المدينة. فسبقت شهرة ابي عبيدة الى مدن الشام كلها، تروي حلمه وحبه للسلام، مما يسّر له فتح المدن الشامية صلحاً فدخل حمص وحلب، وحاصر انطاكية ثم صالحه أهلها على الجزيـة، كما فتح قنسرين بجيش خالد.

* حين خـرجت الشـام من يــد الـروم، حقدوا على المسلمين، فجمعوا جيشاً ضخماً بقيـادة تيودورا البـطريق، وسار جيش الـروم حتى مرج دمشق. وسار اليه أبو عبيدة وخالد في جيش اقـل عدداً. واصـطف ابـو عبيـدة بمقابل جيش للروم بقيادة شنس الرومي الذي جاء لنجدتهم، واصطف خالد بمقابل جيش تيــودورا. وفي صبـاح المعـركـة، اكتشف المسلمــون ان جيش تيـودورا قــد انسحب ليهاجم دمشق. فاتفق ابو عبيدة وخالد على أنْ ينسحب خـالد بجيشه اثناء المعـركة ليلحق تيودورا ويمنعه من بلوغ دمشق.

وسار خالد بجيشه، فلحق بجيش تيودورا على ابواب دمشق، فحمل على مؤخرته في حين كــان المسلمــون من حــاميــة دمشق يـواجهونـه، فأطبق عليـه وألحقت به هـزيمة نكراء. كما ان ابا عبيدة استـطاع ان يقضي على جيش شنس، فكان نصر كبير للمسلمين في الشام.

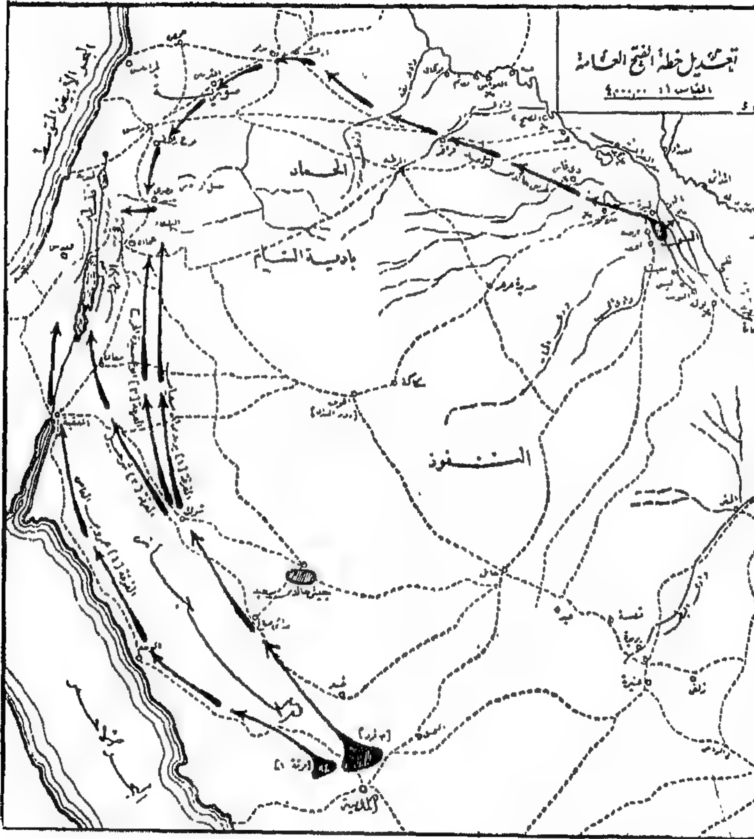
* لكن الـروم لم ييـأسـوا من الصمـود، فجمعـوا جيوشهم في السنـة السابعـة عشرة للهجرة، وقصدوا الأمين ابا عبيدة في حمص ومعهم أهل الجزيرة ممن والوهم. فكاتب ابو عبيدة قادته، كما كاتب الخليفة عمر، فأجابه عمر: «اما بعد، فانه ما نزل بعبد مؤمن شدة الّا جعل الله بعدها فرجاً **﴿يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقـوا الله لعلكم تفلحون﴾**» عمران /٢٠٠ كمـا كتب الخليفة الى قواده المنتشرين في الجزيرة ان تـوجهوا لفك الحصار عـن ابي عبيدة. وحين بلغ اهل الجـزيرة هـذه الامدادات والحشـود، تركـوا الروم، فانقض ابو عبيدة على الجيش الرومي وهزمه.

□ انتشـر الـطاعــون في الشـام ومصـر والعـراق، لكنه في الشـام اكتسح الجيـوش الاسلامية فاوقع اكثر من ثلاثين الف مجاهد. فكتب الخليفة عمر الى ابي عبيدة: «انه قد عـرضت لي حاجـة ولا غنى بـي عنك فيهـا

فعجّل اليّ». وكان غرض الخليفة عمر ان يُبعد أبا عبيدة عن موطن الوباء. لكن ابا عبيدة فطن الى قصده. فاستعفاه «وآثر أن يبقى بين رجاله ويموت بينهم.

□ قال معاذ بن جبل في فجيعة المسلمين بوفاة ابي عبيدة:

«انكم فجعتم برجل ما أزعم والله اني رأيت من عباد قط أقل حقداً، ولا أبرّ صدراً، ولا أبعد غائلة، ولا أشد حياء للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحّموا عليه».



المصادر: فتوح الشام، الواقدي، دار الجيل، بيروت ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول، شكري فيصل، بيروت: ١٩٧٤ ـ معارك العرب الكبرى، محمود الدرّة، بيروت والرياض.

خالد بن الوليد

(ت: ٦٤٢م)

□ خالد بن المغيرة المخزومي. أسلم في السنة الثامنة من الهجرة بعد ان كان شديداً على المسلمين، قال فيه النبي ﷺ: «ما مثل خالد من جهل الاسلام ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدّمناه على غيره»، وحين أسلم خالد، قال النبي الكريم له: «الحمد لله الذي هداك، لقد كنتُ ارى لك عقلاً رجوتُ ان لا يُسلمك الّا الى خير». وقد سمّاه النبي الكريم سيف الاسلام، قال خالد لمشرك رومي سأله عن لقبه: «قال لي [النبي] انت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ودعا لي بالنصر، فسميتُ سيف الله بذلك، فأنا من اشد المسلمين على المشركين».

□ ولي خالد وظيفة القبّة والأعنة (التجهيز والقيادة)، وراثة عن أبيه، لكنه لم يتعلّم فنون القيادة العسكرية على أحد، فقد درّب نفسه على القتال، وكانت خططه وليدة عبقريته الخاصة.

□ في حياة الرسول ﷺ قاد خالد بعوثاً وانتصر في معارك عديدة، منها قيادته لثلاثة آلاف مجاهد في مؤته ضد جيش رومي كثيف، وقد تسلّم قيادتهم بعد سقوط امرائهم الثلاثة. وفي هذه المعركة حارب خالد حرباً لم يجر مثلها في حياته، حتى «اندقت في يده تسعة اسياف»، واستطاع الانسحاب الى المدينة ببراعة وشجاعة.

□ وفي حروب الردّة، بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه، اصطفاه الخليفة ابو بكر لمواجهة الكذّابيْن: طليحة بن خويلد ومُسيلمة بن ثمامة، اللذين ادعى كل منهما النبوة في قومه.

□ ارتدّ طليحة وادعى النبوة، فالتفّت حوله قبيلة بني أسد، فسار خالد اليه مع طيء حتى دحره ورجاله، امّا طليحة فقد عاد الى الإسلام، وحارب في فارس واستشهد في نهاوند.

□ وارتدّ مُسيلمة، فالتفت حوله قبيلة بني حنيفة، وادعى النبوة وجاء قومه بسجع مثل سجع الكهان، وكان عداد رجاله اربعين ألفاً. سار خالد اليهم وواقعهم في اشد معركة شهدها المسلمون في حروب الردّة، وقد انتصر فيها خالد وقُتل مسيلمة، وخسر المسلمون الفاً ومئتي شهيد.

□ ولّى الخليفة ابو بكر خالداً على أجناد العراق، فسار اليهم وكاتبهم ليقابلوه، وصار جيشه هناك ثمانية عشر الفاً. فلما عرف الفرس بمقدمه وجّهوا اليه قائداً خبيثاً اسمه هرمز، سبق جيش خالد الى كاظمة. جاء خالد مع جيشه ونزل قربه. واستعد هرمز لمقابلة خالد، فكبّل كل عشرة من جنوده بسلسلة وقدّم فيلاً امامهم كي لا يتفرّقوا، كما اتفق مع كوكبة من الجند على مكيدة توقع بخالد، ثم تقدّم وطلب خالداً للمبارزة «فخرج خالد يشتهي قتاله، وهجم عليه والتحما، فخرجت كوكبة الفرس لتوقع بخالد، وتنبّه لها القعقاع بن عمرو فهجم مع نفر من المسلمين، وكان خالد ملتحماً بهرمز، فلم يتركه حتى قتله، ثم انفتل مع جيشه يقاتل الفرس حتى أبادهم، وقد خسر الفرس اكثر من ثلاثين الف مقاتل. ثم تابع خالد سيره في بلاد العراق حتى دان له شرقه كله.

□ أمر خالد جيشه بالسير الى الحيرة، ثم خرج وراءه واسرع الى الحجاز ليحجّ مسابقاً الزمن، وقد حجّ وعاد ولحق بمؤخرة الجيش قبل ان يصل الحيرة. وحين علم ابو بكر بحجته، كتب اليه معاتباً تركه الجيش بلا اذن.

□ لم يسجّل التاريخ العسكري انتصارات رائعة ومذهلة ومحيّرة كالتي حققهاخالد بن الوليد في العراق، فجيشه صغير ضعيف وقليل العدّة، انتصر على جيوش جرّارة تحارب في قاعدتها وتسندها دولتها الغنية. لقد انتصر خمسة عشر انتصاراً كبيراً في سنة واحدة. واقتطع من بلاد فارس حوضي نهر الفرات. فكتب خالد بن الوليد تاريخاً جديداً للعراق مكرّساً عروبته واسلامه وحريته.

□ معركة اليرموك التي قادها خالد بن الوليد خلّدت قدرته القتالية، وموهبته القيادية. وقد جرت المعركة قرب نهر اليرموك، في شرقي الاردن، وتقرّرت هذه المعركة الهجومية ضد الروم إثر انتصار خالد في الجبهة العراقية.

* فبعد أن وصلت أخبار الانتصارات في العراق الى المدينة، استشار الخليفة ابو بكر اعوانه، وتقرّر تعديل خطة الفتح العامّة، والانتقال من قتال المشاغلة والإجهاد في

الجبهة السورية الى المواجهة. وتنفيذاً للخطة الجديدة أعلن النفير العام في الحجاز ونجدو واليمن، وجُمع المجاهدون لتأليف فرق أربع، عقد لواء كل منها لقائد محنك كبير:

- الفرقة الأولى: قوامها ٤٠٠٠ مجاهد وقائدها يزيد بن أبي سفيان، وخطّها تبوك - البلقاء - دمشق.

- الفرقة الثانية: قوامها ٧٠٠٠ مجاهد قائدها شرحبيل بن حسنة، وخطّها تبوك - الاردن - بصرى.

- الفرقة الثالثة: قوامها ٧٠٠٠ مجاهد وقائدها ابو عبيدة بن الجراح وخطها تبوك - البلقاء - حمص.

- الفرقة الرابعة: قوامها ٧٠٠٠ مجاهد وقائدها عمرو بن العاص، وخطها - الوجه - العقبة - فلسطين.

* كان جيش خالد راجعاً من الحيرة، فجاءه امر الخليفة: «اما بعد، فدع العراق وخلّف اهله فيه من الذين قدمت عليهم وهم فيه، امضِ مخفّقاً في أهل القوة من اصحابنا.. حتى تأتي الشام..» وانصاع خالد بن الوليد، وكان واثقاً بنفسه وبجيشه، فولى القيادة في جيش العراق للمثنّى بن حارثة الشيباني وتحرّك. وكان معه عشرة آلاف فارس، وهم نصف جيش الفتح العراقي، وقطع الحيرة - اراك - تدمر - مرج - راهط - بصري - وادي اليرموك، ويعتبر اجتيازه هذه الطريق الصحراوية معجزة لا يُقدم عليها الاّ من وهبه الله ما وهب خالداً من حدس وحنكة. فقد نقل الابل معه والماء في جوفها ومحمول فوقها بعد أن أصرّ آذانها وشدّ مشافرها لئلا تجتر، وكلما احتاج للطعام والماء، نحر بعض الابل، فأكل وجيشه من لحمها وشربوا من مائها المحمول، ثم يمزجون ما يبقى من الماء مع ماء جوفها ويقدمونه للخيل. وقد اختار أفضل الادلاّء العالمين بالصحراء. وكان يسير ليلاً وصباحاً وبعد الظهر، خفيفاً سريع الحركة.

* ووافق قدوم خالد الى اليرموك قدوم «باهان» امير الجيوش الرومية، وقد سيّر امامه الرهبان والقساوسة يحضّون الروم على القتال. فتيمّنت الروم بباهان، وفرح المسلمون بخالد. ولما أرسل امراء الأجناد الى أبي بكر يخبرونه عن تجمع الروم، ويذكرونه بعددهم طالبين الامداد. قال: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الولد».

* وصل خالد ودرس طبيعة الأرض والموقف العسكري، فلم يرتح الى حال معسكر المسلمين، اذ كان كل امير مستقل بجيشه، بينما الروم جيش واحد، يقوده رجل

واحد. فتوجه الى امراء الأجناد واقترح توحيد الـجيش وقـال: «فـهـلـمـوا نـتـعـاور [نتبـادل] الامـارة، فليكن عليهـا بعضنـا اليوم، والآخـر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتـأمر كلكم، ودعـوني اليكم اليوم» فـوافقوا وجمعوا الجيوش وأمّروه عليها، فعدّت اربعين ألف فارس مقابـل مئتي الف مقاتـل رومي» ورتّب خالد جيشه وقسّمه الى كراديس، كل كـردوس من الف مجاهـد على رأسه رجـل شديد البأس خبير بالحرب. فسمع احد جنوده يقول: «ماأقلّ الروم واقلّ المسلمين، فزجره خالد وقال: ما اقلّ الروم واكثـر المسلمين، انما تكثر الجنود بالنصـر وتقل بـالخذلان لا بعدد الرجال».

□ وخرج جرجه احد قـادة الفرق الـرومية الكبيرة من بين الصفوف ونـادى على خالـد للمبارزة، فقام اليه خالد، بعد أن سلّم القيادة لأبي عبيدة، ولما تقاربا، سأله القائد الرومي:

ـ هل انزل الله علي بينكم سيفاً من السماء فاعطاكه فلا تسله على قوم الاّ هزمتهم.

ـ قال خالد: لا.

ـ قال جرجة: فيم سُميت سيف الله؟.

ـ قال خالد: ان الله عزّ وجل بعث فينا نبيه محمداً ﷺ، فنفرنا عنه، ونأينا عنـه جميعاً، ثم ان بعضنا صدّقه وتابعـه، وبعضنا بـاعده وكذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله. ثم ان الله اخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، فتابعناه، فقـال: انت سيف من سيـوف الله سلّه على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بـذلـك، فـأنـا من اشـد المسلمين على المشركين.

قـال جرجـه: صـدقتني، فـأخبـرني إلام تدعوني؟.

قال خالد: الى شهادة ان لا اله الاّ الله وان محمداً عبده ورسوله والاقرار بما جاء به من عند الله.

قال جرجه: فما منزلة الذي يدخـل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر اليوم.

قال خالد: منزلتنا واحدة، فما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. فانقلب جرجه الى صف خـالد، وقـاله لـه: علّمني الاسلام. وأخذه خالد الى خيمته واتاه بماء ليتطهر ثم لقنه الشهادتين وخرجا معاً يقاتلان الروم.

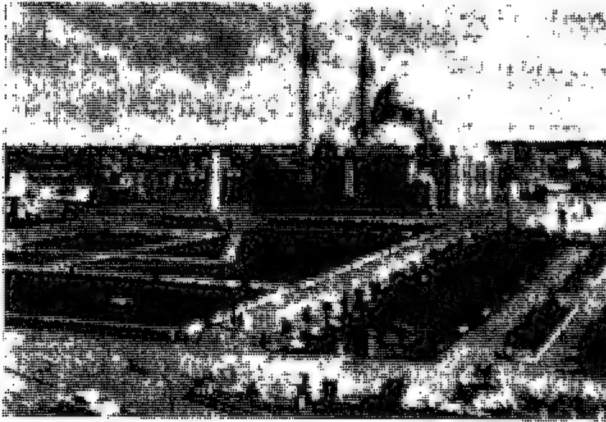
* وجاء البريد الى خالد، فتقدّم حامله منه واسـرّ اليـه ان الخليفـة ابـا بكـر قـد مـات واستخلف عمر، فلم يفتح خالد الكتاب بل أودعه كنانته وتابع القتال دون أن يخبر أحداً كي لا يحدث تخاذل في صفوف المسلمين.

* وكـرّ المسلمون على الروم كالصواعق،

وخالد بينهم كالبركان يضرب بعنف يميناً وشمالاً، وصعد الى ربوة تجمّع نساء المقاتلين وراءها، وصرخ: يا نساء المسلمين، اي رجل أتى اليكنّ منهزماً فاقتلنه بأيديكن. واستثارت النخوة والشجاعة جويرية بنت ابي سفيان، فامتطت جوادها وكرّت مع المسلمين. وتفرّق الروم مخذولين، وسقط فرسانهم، وتضعضع مشاتهم، فانقهروا وفرّوا تاركين اكثر من مئة وخمسين الف قتيل، بينما خسر المسلمون ثلاثة آلاف قتيل.

* وفي المساء تقدّم خالد من ابي عبيدة وسلّم عليه بالامارة وناوله الكتاب، فأكبر ابو عبيدة فيه حنكته واخلاصه كما اكبر عبقريته العسكرية التي انقذت المعركة وغيرت وجه التاريخ.

□ واستأنف خالد الجهاد في جيش أبي عبيدة، فاتحاً الشام، مثل اي جندي عادي، يؤدي الاحترام لقائده وينفذ أوامره، وانعزل آخر أيامه في حمص فأقام فيها حتى احتضر، وكان على فراش الموت يقول: «... ما في جسدي شبر الاّ وفيه ضربة أو رمية سهم وها أنا اموت على فراشي حتف انفي كما يموت العير [الدواب]، فلا نامت أعين الجبناء». ومات البطل خالد بن الوليد عام ٢١ هجرية ودفن في حمص، بلا عقب ولا ثروة.



جامع خالد بن الوليد في حمص

المصادر: عبقرية خالد، عباس محمود العقاد، الهلال - فتوح الشام، الواقدي، دار الجيل، بيروت - حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول، شكري فيصل، بيروت: ١٠٧٤ - معارك العرب الكبرى، محمود الدرّة، بيروت والرياض - سيف الله خالد، محمود شلتوت، دار الفكر العربي، مصر: ١٩٥٨.

سعد بن أبي وقاص

(٦٠٠م - ٦٧٤ م)

□ سعد بن أبي وقّاص الزهري. من أصحاب النبي ﷺ. أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة على يد أبي بكر الصدّيق. ولمّا عرفت امه باسلامه غضبت وأعلنت صيامها عن الطعام والشراب حتى يدع دينه. وبعد ان مكثت يوماً وليلة صائمة، رآها سعد مُجهَدة، فقال لها: «يا امّه، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس فخرجتْ نَفساً نفساً ما تركت ديني، ان شئت فكلي أو لا تأكلي» فلمّا رأت منه الجد أكلت. وفي هذه الواقعة نزلت الآية الكريمة: **﴿وان جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾** لقمان / ١٥.

□ كان سعد من المؤمنين الأقوياء، اشتد به ساعد المسلمين في جهادهم، فأبلى البلاء الحسن في معاركهم، كان النبي ﷺ يعرف بأسه ويستنجد به ويكلفه القيادة. فكان سعد في سريّة عبيد بن الحارث الى رابغ في الحجاز، وكان على رأس بعثة لاعتراض قوافل قريش بأمر من النبي صلوات الله عليه، كما كان في أحد رامياً مجيداً، حمى مُقام النبي محمد ﷺ من كل من يقترب منه، وكان الرسول يناوله السهام ويقول له: «ارم فداك ابي وامي»، فقال علي بن ابي طالب: «ما سمعت النبي صلوات الله عليه يجمع ابويه لأحد غير سعد».

□ بعد أن استتب الأمر للمسلمين في الجزيرة العربية، ارسل ابو بكر جيوشه الى الشام وفارس، وكان اول من هزّ حدود الفرس وأثارهم المثنّى بن حارث الشيباني. ولما علم المسلمون ان الفرس اجتمعوا وجيشوا الجيوش للزحف على المسلمين، رأى الخليفة عمر بن الخطاب ان يخرج بنفسه لملاقاتهم، لكن عبد الرحمن بن عوف نصحه بالبقاء في المدينة وتكليف سعد بذلك، فكتب اليه عمر فحضر، فأمّره على حرب الفرس وأوصاه بهذه الوصية:

«يا سعد اني قدْ ولّيتك حرب العراق، فاحفظ وصيتي، فانك تقدم على أمر شديد

كريه لا يخلص منه الاّ بالحق، فعوّد نفسك ومَن معك الخير واستفتح به، ولا يغرّنك من الله ان قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الاّ طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه، هذه عظتي اياك، ان تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين». ثم عقد له اللواء وشيّعه، وكان معه يوم خرج أربعة آلاف مجاهد.

□ القادسية في اطراف العراق، وقف عندها سعد بجيوشه، بعد أنْ كتب له عمر بذلك لأنها مناسبة للكر والفرّ. واستدعى سعد الامراء والقواد المرابطين في العراق، فجمع المقاتلين، وانتظر قدوم جيش الفرس، وكانت الامدادات تصله تباعاً. ووصل جيش الفرس وعديده نحو مئتي الف، على رأسه رستم، ومعه ثلاثة وثلاثون فيلاً مدرّباً على الحرب.

* وطلب رستم قائد جيش الفرس رجلاً من العرب يحادثه، فأرسل اليه احد دهاتهم المغيرة بن شعبة، فلما دخل المغيرة خيمة رستم، رآه جالساً على سرير من ذهب تحيط به بطانته، فتقدّم وجلس الى جانبه. فقال له رستم: نعرف انكم في شظف من العيش، ولا يسوؤنا ان نفضُل عليكم بالزاد والكساء حتى تنصرفوا فانا لا اشتهي قتالكم. اجابه المغيرة بن شعبة: لقد جئنا ولن نعود، وليس لكم عندنا الاّ واحدة من ثلاثة: إما الاسلام، واما الجزية، وإما الحرب. فغضب رستم، وتوعّد المغيرة بالحرب.

* كان سعد مريضاً يوم الحرب، فجلس على محفة ووضعها في محل مشرف وأمّر على الجيش خالد بن عرفة. استمر القتال في معركة القادسية أبعة ايام، واليوم الثالث منها أستمر ليلاً حتى ظهر اليوم الرابع.

ـ حمل المسلمون في اليوم الأول على الفيلة وراكبيها، فضعضعوها، واخذوا بأذناب الفيلة وقطعوا الحبال التي تمسك رحالها، فهوت وداست الفيلة راكبيها ثم ولّت هاربة.

ـ جاءت نجدة من الشام في اليوم الثاني عليها القعقاع بن عمرو، فخرج القعقاع فبارز القائد الثاني للفرس وقتله، واستمر يقتل كل من يبارزه حتى نهاية اليوم، فضعفت ثقة الفرس بأنفسهم، ولاح الظفر للمسلمين.

ـ استدعى سعد جماعة من الفرس كانت تحارب معهم وسألها: هل للفيلة مقاتل؟ قالوا، نعم، في مشافرها وعيونها. فارسل

سعد الى القعقاع وأخيه ان اهتمّا بأمر كبير الفيلة، وأرسل الى آخرين كي يهتموا بفيل كبير آخر. وهكذا كان اليوم الثالث، اذ عمد القعقاع والآخرون الى الفيلين فأثخنوهما جراحاً في عيونهما ومشافرهما، فولّيا هاربين بين صفوف الاعداء، واحدثا من الاضرار الكثير. ثم حمل المسلمون على الفرس إثر تضعضعهم حتى الصباح، والصراخ يعلو، الله اكبر، الى النصر! وهجم القعقاع ورجاله الى قلب الجيش الفارسي فاذا خيمة رستم تطير، ويظهر على سريره في ظل بغل يحمل مالاً، اقترب هلال بن علّفة وضرب حمل البغل، فوقع على رستم، فصرعه، ثم لحقه علّفة وضره بالسيف، فهرب رستم الى النهر، فاقتحم علّفة النهر وأمسكه من رجله وأجهز عليه. ولما شاهد الفرس ما لحق بقائدهم، تخاذلت عزائمهم، وفرّوا خاسرين.

* كانت المعركة القادسية من اشد المعارك التي خاضها المسلمون، وقد خسروا فيها أحد عشر ألف شهيد، أمّا خسارة الفرس فقد أفقدتهم غرورهم وثقتهم بانفسهم، فكانوا يستسلمون للموت على أيدي المسلمين صاغرين.

* فتح سعد المدائن ـ عاصمة الفرس ـ بعد شهرين من معركة القادسية، ففرّ منها كسرى، وصادر سعد نفائس القصور وأرسلها الى عمر دون المساس بها. وحين رآها عمر قال: ان قوماً أدوا هذا لأُمناء. فرد علي بن ابي طالب: عففت فعفّت الرعية.

* ثم جمع الفرس اعدادهم وواجهوا المسلمين في معركة ثانية، والتقوا سعداً في جلولاء، لكنهم، أيضاً، خسروا، وانتهت دولتهم منذ ذاك الحين.

□ انهى سعد فتح فارس،. واختطّ الكوفة فأمّره عليها عمر، ثم عزله لما شكا الناس قائلاً: ان اجمع الناس على استخلاف سعد فذاك والاّ فلْيستشره من يلي الأمر، فاني لم اعزله عن عجز أو خيانة، واقام سعد في قرية له يرعى الغنم، كما اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان، حتى توفي، وكان آخر المهاجرين وفاة.

المصادر: فتح الفتوح، الواقدي، دار الجيل، بيروت ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول شكري فيصل، بيروت: ١٩٧٤ ـ معارك العرب الكبرى، محمود الدرّة، بيروت والرياض.

صلاح الدين الأيوبي

(١١٣٧ م - ١١٩٣ م)

□ يوسف بن ايوب بن شاذي، لقبه صلاح الدين، من عائلة كردية. ولد في تكريت - قرب بغداد - وكان والده محافظاً لقلعة تكريت من قبل بهروز. وكان عمه اسد الدين شيركوه من القواد العظام في جيش نور الدين زنكي حاكم الموصل وجزء من آسية الصغرى. ولمّا سقطت بعلبك في يد زنكي عام ١١٣٩ م عهد بها الى ايوب وعيّنه محافظاً عليها. عاش صلاح الدين طفولته في بعلبك، وفيها درس القرآن والكتابة، وتعلّم فنون الصيد ومنازلة الحيوانات، وحين أقام في دمشق مع والده، سمع الحديث من الحافظ السلفي وابن عوف وقطب الدين النيسابوري، و «كان فقيهاً يقال انه كان يحفظ القرآن والتنبيه في الفقه، والحماسة في الشعر».

□ طلب الخليفة الفاطمي بمصر معونة نور الدين زنكي لصد هجمات المسيحيين من فلسطين عليه، وكانت الحملات الصليبية تتالي، فمشى شيركوه واخذ معه صلاح الدين الى مصر فأبليا بلاء حسناً، جعل الخليفة الفاطمي يعيّن شيركوه وزيراً له. اتصل صلاح الدين بالشعب المصري، وتقرب منه، وقد اظهر من البطولة والرغبة في العدل والحكمة ما حبّب الشعب به. فلمّا مات عمه، اجمع الرأي ان يحلّ محلّه، فاسندت الوزارة اليه وعمره اثنان وعشرون سنة، مستنداً الى خبرته الحربية ومآثره الانسانية.

□ اعد صلاح الدين جيشاً قوياً منظماً. هابه الصليبيون، بل غزا به مرّة جنوب فلسطين محرزاً نصراً ساحقاً، فثبت أقدامه في مصر، ودعم استقلالها بأن نشر العلم فيها، وأسس مدرستين كبيرتين: المدرسة الناصرية والمدرسة الكاملية، تعملان على نشر المذهب السني وتطهير البلاد من الخوارج والتخفيف من التشيّع. ولمّا مات الخليفة الفاطمي أعلن صلاح الدين انتهاء الحكم الفاطمي ونصّب نفسه حاكماً .على مصر من قبل سيده نور الدين. ونزل قصر الخلافة

جامعاً الاتباع والقواد. فتعلّق به الشعب المصري.

□ عرف نور الدين ان صلاح الدين الايوبي ينوي الاستقلال بمصر عنه. وقبل ان يسيّر اليه جيشاً ليسترجعها منه مات، فزالت عقبة كبيرة من امام صلاح الدين. الّا ان ثورات صغيرة راحت تحصل في الشام طمعاً بملك نور الدين، فزحف صلاح الدين عليها وبقي سنتين فيها ليعيد الحكم الى نصابه، فخافه الجميع ورحّبوا به، وبعد أن استتب الأمر له في الشام وفلسطين عاد الى مصر.

□ وصل مصر فحصّن الاسكندرية، وقبل ان يصل الى القاهرة، وصله خبر وفاة الملك الصالح، فعاد الى الشام، ليحمي أتباعه ويحفظ بلاده، وهكذا صار صلاح الدين سيد البلاد كلها ما خلا الموصل. لكن بعد توقيعه صلحاً مع صاحبها دانت له كلها.

□ وامتدت سلطة السلطان صلاح الدين من النوبة جنوباً وبرقة غرباً الى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً. وقد اعترف الخليفة العباسي بسلطانه، فاتجه حينذاك صلاح الدين الى الاصلاح الداخلي في مصر والشام، والى دفع غارات الصليبية عن بلاده.

□ كانت مملكة بيت المقدس بيد الافرنج قد استقرت منذ خمسين سنة، وكان عليها بلدوين الرابع ثم الخامس، والتنافس فيها على الملك قوي. فلمّا تكامل جيش صلاح الدين فكر بالهجوم والحسم في معركة فاصلة، بدلاً من متابعة القتال كالسابق في إغارات متكررة إضعافاً للأعداء.

□ في حطين قرب طبريا كانت الجموع الصليبية تنتظر، فجاءها صلاح الدين مع جيشه، وبدأت مناوشات قصيرة، افنى فيها صلاح الدين ماء الصهاريج، وكانت الوقت صيفاً، فعطش الصليبيون واجهدوا من الحرّ، ثم كانت المعركة القوية التي دامت يومين، وانتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة. وبعد معركة حطين سقطت طبريا وعكا ويافا وبيروت. وكان صلاح الدين قد عقد النيّة على أخذ بيت المقدس. فجاءها وحاصرها اسبوعاً، ولما رأى المحاصرون ان لا أمل لهم بالصمود، سلّموا بشروط الصلح، فدخلها صلاح الدين.

وفي بيت المقدس أظهر صلاح الدين من التكرم ورقة القلب ما يكشف عن قلبه الكبير، فقد افتدى الاسرى واطلقهم، وقدّم المال للمحتاج، ولم يظهر اي غدر أو تعصّب للاسلام، واخذته الشفقة بكل امرأة وولد وضعيف. وقد أسلم بعض من فيها من شيوخ

ورجال ونساء بعد أن رأوا تطبيق المسلمون لعقيدتهم، وأرجع المسجد الأقصى الى حالته السابقة، وجعل فيه منبراً جديداً وزيّن بناءه، وأصلح المدينة ثم اتجه الى صور.

□ وتنادى الاوروبيون لحملة صليبية ثالثة قوية، بعد أن تناهى اليهم خبر سقوط بيت المقدس، فسار جيشهم على الساحل الشامي، بينما كان صلاح الدين يجمع جنوده ليلاقيهم. سبقوه الى عكا وحاصروها ثلاث سنوات، ولم يستطع صلاح الدين إبعادهم أو انقاذ المدينة حتى استسلمت. وكان قد وصل ريكاردوس قلب الأسد الملك الانكليزي بقطعه البحرية الثلاثمائة، فنزل الساحل، وتقابل جيش المسلمون وجيش الصليبيين بقيادة ملوك أوروبا مجتمعين، وكان كرّ وفرّ، حتىٰ أُبرم الصلح بين الفريقين. واشتُرط ان يحتفظ الصليبيون بالساحل ما عدا عسقلان، ويسمح لهم بالحج الى بيت المقدس، على أن يكون الداخل كله لصلاح الدين.

□ عاد صلاح الدين الى بيت المقدس واقام فترة، ثم انتقل الى بلاد الشام حتى وصل دمشق، فدخلها منتصراً، ورُحّب به، وكان ينوي الاستراحة قبل ان يتوجه الى الشمال للقتال، لكن مرضاً أصابه هناك فمات فيها.

□ كان صلاح الدين مسلماً مؤمناً، وكريماً متواضعاً، ومقاتلاً عنيداً، رويت عن مآثره الانسانية حكايات عديدة تمجّد رقة قلبه وكبر نفسه. حكم مصر ٢٤ سنة وسوريا ١٩ سنة، ودانت له بلاد واسعة ومُلك عريض، وطرد الصليبيين من بيت المقدس في اشرف معركة. مات فقيراً، وفي نفسه رغبة القيام بزيارة الاماكن المقدسة، لكن «خلوّيده عمّا يليقُ بأمثاله» منعه من ذلك.



المصادر: صلاح الدين الأيوبي وعصره، محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٢٧ - أبطال الشرف، محمد عطية الأبراشي، القاهرة، ١٩٤٧ - حياة صلاح الدين الأوبي، أحمد بيلي، القاهرة ١٩٢٦ - الناصر صلاح الدين، د. عبد المنعم ماجد، الانجلو المصرية: ١٩٥٨.

طارق بن زياد

(٦٧٠م - ٧٢٠م)

□ طارق بن زياد، بربري من قبيلة الصَّدَف، مضاربُ خيامها في جبال المغرب العالية المشرفة على البحر الأبيض المتوسط، وهي قبيلة شديدة البأس، منيعة على غيرها. ديانتها وثنية. تربّى طارق في أحضان الطبيعة، فكان فارساً مقداماً، وعاش في رعاية قبيلته، فكان غازياً بطاشاً، واستمد من موطنه متانة البنية، وسمرة البشرة، وسواد الشعر، وضخامة الشفتين.

□ كان عمرو بن العاص قد فتح مصر ونشر الاسلام فيها، في عهد الخلفاء الراشدين، لكن خلفاء بني أمية ما نهضوا ليتابعوا هذا الفتح بعد، لينشروا الاسلام في افريقيا كلها، الّا حين استخلف الوليد بن عبد الملك، فاستدعى اليه موسى بن نصير وحدّثه بالمهمة: عليك ان تبلغ البحر في أقصى الغرب، فتكون قائداً واماماً ترشد الناس الى الاسلام.

□ واستعد موسى بن نصير، فأعدّ جيشاً عظيماً واتجه الى افريقيا. فمرّ في مصر، وزار الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص، ثم تابع الى القيروان في تونس. وكان صيته قد سبقه، فأسرع اليه المناصرون يستقبلونه، وقدم اليه الوثنيون من سكان البلاد يعلنون اسلامهم بين يديه، دون اكراه، وكان من بين هذه الجموع الشاب البطل طارق بن زياد. الذي اصطفاه موسى، بعد اسلامه، وقرّبه منه، معجباً بجرأته وفتوته.

□ وكان أهل البلاد فريقين: فريق وجد في الاسلام خلاصاً روحياً له وسلّم بقيادته السياسية، وفريق اصرّ على وثنيته وعامل المسلمين غزاة. فطلب موسى بن نصير من طارق بن زياد ان يكون في طليعة المجاهدين السائرين الى أطراف افريقيا في حملة على المشركين.

□ حشد طارق فرسان قومه ومضى بهم مع فرقة عربية اخرى الى جبال أطلس. وكان طارق خبيراً في مسالك البلاد وقبائلها،

فحاصر المشركين، وحاور زعماءهم، فأسلم بعضهم وأسر بعضهم الآخر، واقتادهم الى القيروان، فبرهن طارق عن حنكته وبأسه، مما زاد في اعجاب موسى به، فجعله ساعده الأيمن.

□ وكتب موسى الى الخليفة الوليد يبلغه بفتح افريقيا كلها، فأجابه الخليفة مباركاً ولايته عليها. سرّ موسى بذلك وسعى لإنجاح ادارة الولاية الجديدة، بتنظيمه موارد البلاد وبناء المساجد، وتقوية الجيش، وتعيين العمّال، وقد اختار لـ «طنجة» طارق بن زياد والياً.

□ تقع طنجة على سفح جبل ينحدر الى البحر، وهي مدينة تاريخية ذات موقع استراتيجي، فهي مفتاح البحر الى اسبانيا. أسّس طارق فيها ادارة سليمة وانشأ نواة جيش فعّال، وراح يحلم باجتياز بحر الزقاق الذي يفصل بينه وبين اوروبا. وكانت اسبانيا، عهد ذاك، تعيش حكماً ظالماً يقوده «لذريق» ويعاديه في ذلك «يوليان» والي سبته.

□ وقد قام «يوليان» بزيارة لموسى بن نصير يغريه بفتح اسبانيا، الاّ ان القائد المسلم رفض أن يُقدم على الأمر الذي كان يتمناه أيضاً دون اذن من الخليفة، فكتب موسى الى الخليفة يشرح له الموقف الجديد. فأجابه الخليفة بالموافقة على غزو اسبانيا على مراحل، لئلا يسبب البحر كارثة للمسلمين.

□ كان امر الخليفة واضحاً، وقد نفذه موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً. فأرسلت فرقة استكشاف الى اسبانيا، يقودها مجاهد اسمه طريف، فقطع البحر، واحتلّ اول جزيرة فسميت باسمه، ثم أغار على البلاد وغنم مالاً وسبياً وعاد بعد ساعات، ليعلن ان الاعداء قلّة والغزو الكبير ممكن.

□ محز طارق بن زياد مع جيشه على ظهر المراكب قاطعاً بحر الزقاق، ونزل على شواطيء الجبل المسمى اليوم «جبل طارق»، في طريقه الى داخل البلاد. وكان «يوليان» يرافقه دليلاً ومرشداً، فاتفقا على أن «لذريق» لا بد أن يكون قد وصله خبر الفتح، فاذا وصله سيجمع جيشه قرب نهر «لكّة»، فبادر طارق الى تحضير جيشه.

□ فأجا خبرُ الفتح «لذريق» فجمع قواده ومجلس الكونتات على عجل، وتدارسوا الموضوع. وفوراً عمدوا الى جمع الكتائب وتسييرها الى نهر لكّة لمواجهة الجيش المسلم.

□ نظم طارق جيشه، ووقف فيه خطيباً: «ايها الناس اين المفرّ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله الاّ الصدق

والصبر. واني لم أحذركم امراً انا عنه بنجوة، واعلموا أنكم ان صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً... واني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتلُه ان شاء الله تعالى، فاحملوا معي...» وكان طارق قد أمر باحراق السفن التي حملت الجيش المسلم الى بلاد اسبانيا، فشهر سيفه وتقدّم مكبّراً: الله اكبر.

□ تعالى الغبار ودوّت الهتافات، والتحم الجيشان... وكان لذريق في قلب جيشه جالساً فوق سريره الذهبي متفائلاً بنتيجة المعركة. وهجم المسلمون هجوماً صاعقاً فرّق الميمنة والميسرة، فانكشف القلب. واذ بالفونس قائد الميسرة يتقدّم من طارق طالباً الأمان، فاتفقا، وانحازت الميسرة بكاملها الى جيش طارق. فدبّ الذعر في صفوف القوط، واتسعت رقعة المعركة، فهب لذريق من مكانه، وحين لمعت خوذته الذهبية المزركشة، لمحه طارق، فسعى وراءه حتى دخلا النهر، فشكه برمحه وارداه عن حصانه، ليصبغ الماء بدمه. وصاح طارق: لقد قتلت الطاغية... قتلت لذريق... وانفتحت طريق الأندلس للمسلمين.

□ تابع جيش طارق زحفه فحاصر طليطلة العاصمة، فاندحرت حاميتها، ودخلها الجيش المسلم ليغنم منها ما لا يحصى من التيجان والجواهر والمال. ثم قصد «وادي الحجارة» و «سالم» مطارداً فلول الهاربين، ومفتتحاً المدن، واحدة إثر الأخرى، متغلغلاً في بلاد الأندلس، ناشراً قواته، مما أضعفها واوهن خطوط المواصلات وراءه. فصار في موقع عسكري حرج، واسرع بالكتابة الى موسى بن نصير: «ان الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث... الغوث!».

□ جمع موسى بن نصير جيشاً كبيراً من العرب وأهل البلاد، تعداده ثمانية عشر الف مجاهد، ونزل الأندلس، فاستقبله يوليان، وتشاور معه على خطة الزحف. تقدّم موسى باتجاه «شذونة» ففتحها، ثم اتجه الى «أشبيلية» عاصمة الفكر، فحاصرها أشهراً قبل أن تسقط، ثم مضى الى «ماردة» فحاصرها، ولم تسقط حتى استخدم معها حيلة تشبه «حصان طروادة»، وقد استشهد في المعارك عدد من المسلمين، لكن ذلك لم يمنع موسى بن نصير من متابعة الزحف ليلتقي مع طارق بين «ماردة» و «طليطلة» في وادي «اروكامبو». وحين تقابلا، عاتب موسى طارقاً على تهوّره في الفتح، فأجاب طارق: انني لم استطع كبح جماح انتصاراتي، لكن كل ما كسبته وفتحه منسوب اليك. وسارا معاً الى وادٍ سُمي «وادي موسى»، كان القوط قد تجمعوا

فيـه، لكن المسلمين هزمـوهم، فدانت لهم الأندلس كلها.

□ تـابع الجيشـان معاً السيـر شمالاً حتى «سرقسطة» ففتحوها، ثم تـوقفا بعـد أن كادا يصلان الى جنوب فرنسا، وقفلا عائدين بناء لأوامر الخليفة، فافتتحا، في طريق العودة، «جيليقية»، ثم توجه موسى بحراً الى دمشق، امّا طارق فقد عاد الى المغرب.

□ بطلان كبيران نحتـار من نسميه منهمـا فاتح الأندلـس. لكنهما معاً يسّرا هذا الفتح الكبير، فوسّعا رقعة الدولة الاسلامية، واوصلا علمها الى اوروبا. عبقرية طارق العسكريـة وعبقرية موسى السياسية، تجلتا معاً في هذا الانتصار الكبير.



حدائق في غرناطة

المصـادر: البيان المغـرب في اخبار الانـدلس والمغرب، ابن عـذارى المراكشي، دار الثقـافة، بيروت ـ ظهر الاسلام، احمد أمين، ط ٣ مكتبة النهضة المصرية: ١٩٦٢ ـ المعجب في تلخيص اخبـار المغرب، عبد الوهاب المراكشي. ط١، القاهرة: ١٩٤٩.

عثمان بن عفان

(٥٧٧م - ٦٥٦م)

□ عثمان بن عفّان بن أبي العاص... القرشي، كنيته ابو عبدالله وابو عمرو، ولقبه ذو النورين. ولد في السنة الخامسة من ميلاد النبي ﷺ. وشب على الأخلاق الكريمة، فكان حيياً عفيفاً، فلما بعث الله محمداً ﷺ كان من السباقين الى الاسلام على يد الصدّيق، فزوّجه عليه السلام ابنته رقية. هاجر الى الحبشة مع عائلته يوم آذى المشركون المسلمين، ثم عاد الى مكة. فلما أذن الله هاجر مع رسول الله ﷺ الى المدينة، وحضر معه كل مشاهده الآ بدراً، لانشغاله بتمريض زوجه، وقد توفيت بعد انتصار المسلمين، فزوجه الرسول ﷺ ابنته الثانية ام كلثوم. قال فيه الرسول ﷺ: «انه اشبه الناس بي خلقاً وخُلقاً وديناً وسمتاً، وهو ذو النورين زوّجته ابنتي، وهو معي في الجنة كهاتين». وحرّك السبابة والوسطى».

□ كان حيياً يعرفه النبي ﷺ بذلك، كما كان كريماً قدّم لجيش العسرة ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وقال ابو عمر بل جهز عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً واتم الالف بخمسين فرساً. ولما قدم المهاجرون الى المدينة استنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمدّ، فقال له رسول الله ﷺ: تبعيها بعين في الجنة؟ فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي عين غيرها. لا استطيع ذلك، فبلغ عثمان ذلك فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: اجعل لي مثل الذي جعلت له عيناً في الجنة، قال نعم. قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين. وعثمان هو الذي زاد في مسجد رسول الله ﷺ زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عُمُده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج.

□ بويع بالخلافة يوم السبت عاشر المحرّم سنة اربع وعشرين، بعد دفن عمر بثلاثة ايام باجتماع الناس عليه. فاتخذ حاجباً هو حمران

مولاه، وكاتباً هو مروان بن الحكم، وخاتمه نقشه آمنت بالله مخلصاً وقيل آمنت بالذي خلق فسوّى، وكان في يده خاتم رسول الله ﷺ يطبع به الى أن وقع منه في بئر أريس.

□ وفي خلافة عثمان تمّ فتح الاسكندرية ثم افريقيا، ثم قبرص، ثم سواحل الروم، ثم طبرستان ودارا ، وجرد وكرمان. . . ثم ساحل الاردن، ثم مرو. وكان قد وجه معاوية والي الشام الى غزو الروم فبلغ عمورية، كما سار سلمان بن ربيعة الباهلي الى أهل أرمينية في اثني عشر الفاً فشتت شملهم ورجع الى الوليد (في الكوفة) عن طريق الموصل، كما غزا ابن سعد افريقيا فحارب جرجير ملكها في سبيطلة، بعد أن دعاه الى الاسلام أو الى الجزية، فأبى، وجاء المدد الاسلامي في جيش على رأسه عبدالله بن الزبير، فتناوب الجيشان المسلمان على جيش جرجير حتى قتلوه وانهزم جيشه، وبلغت غنائم المسلمين الفي الف وخمسمائة دينار.

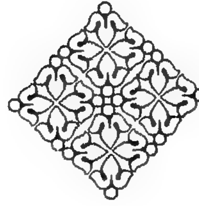
□ قدم حذيفة على عثمان فزعاً، بعد أن كان في غزو أرمينيا واذربيجان، وقال له انه يخاف اختلاف المسلمين في قراءة القرآن: «فيا امير المؤمنين ادركْ هذه الأمة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى». فأرسل عثمان الى حفصة كي تسلّمه ما عندها من نسخ المصاحف، وطلب عثمان من زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام، فنسخوها في مصحف واحد، وقال لهم عثمان: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم، ففعلوا. وكان هذا العمل أو عمل علمي وثّق القرآن الكريم بأن جعله نسخة واحدة وحيدة، طُبقت آياته بشهادة حافظيه ونقلاً عن النسخ المتوفرة، وبعد ان انتهى النسخ ارسل عثمان بمصحف مما نسخ النسّاخ الى كل جهة من بلاد الاسلام، وأمر ان يحرق كل ما سواه من صحيفة أو مصحف، وهكذا حُفظ القرآن الكريم في كل نسخه مُوحّداً في كل الاقطار الاسلامية حتى اليوم.

□ والأحاديث عن فضائل عثمان عديدة ومتنوعة، منها في ذكر كراماته، وفراسته، ومتابعته للسنة، وتعبّده، وزهده، وكثرة اعتاقه. وقد ذكر له الرسول ﷺ ان له شأناً في اهل السماء، وقد بشّره عليه السلام بثبوت الايمان وذكر بأن له الشفاعة يوم القيامة، كما ذكر بأنه على الحق، وضرورة اتباعه عند ثوران الفتنة. اما أفضليته فقد جعلها رسول الله ﷺ بعد صاحبيه ابي بكر وعمر، وشهد له

عليه السلام بالجنة. كما كثرت الاحاديث في خوفه وتواضعه وشفقته على رعيته، وذكْرِ كثرة الخير في زمن ولايته.

□ امّا قتل عثمان، فقد روي عنه الكثير، دار معظمه حول أقاويل عن ايثار عثمان لقومه في الحكم والمال، فلما ولّى عبدالله بن سعد بن ابي سرح مصر، شكا منه اهل مصر فخرج جيش منهم في سبعمائة رجل الى المدينة وطلبوا من صحابة الرسول ﷺ إنصافهم، فدخل علي وصحبه الى عثمان ينقلون الشكوى، فوافق على عزل ابن ابي سرح وتعيين محمد بن ابي بكر، فكتب عهده وولّاه، وخرج المصريون. وفي الطريق صادفوا عبداً يحمل رسالة لوالي مصر أن اقتل جميع من سيحضر لك. عاد القوم الى المدينة، وحاصروا بيت عثمان، وبعد مفاوضات عرفوا ان مروان قد يكون الكاتب، بعد ان حلف عثمان انه لم يكتب الرسالة. فأمر علي ابنيه الحسن والحسين بحراسة باب عثمان كي لا يدخل عليه من يقتله، الاّ ان بعض المحاصرين دخلوا عليه من بيت مجاور وقتلوه وهو يقرأ القرآن.

ثم جرت مبايعة عليّ، فجاء المسجد وصعد المنبر وخطب، فبايعه طلحة والزبير وسعد واصحاب رسول الله ﷺ الاّ نفر، وطلب مروان فهرب، فابتدأت الفتن.



من المصادر: الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشّرين بالجنة، المحب الطبري، بيروت: ١٩٨٨

ـ اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، المكتبة التجارية بمصر.

علي بن ابي طالب

(٦٠٠م - ٦٦١م)

□ علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي، ابن عم رسول الله ﷺ، كنيته ابو الحسن. ولد في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ. فلما بعث عليه السلام كان علي دون البلوغ وكان مقيماً معه في منزله، يهتدي بهديه، ولم يتدنّس بدنس الجاهلية. وكان ابن ثلاث عشرة سنة حين أسلم. وشهد له النبي ﷺ بالجنة.

□ هاجر الرسول ﷺ وصحبه الى المدينة، فنام علي في فراشه معرّضاً نفسه للخطر فداه، وبقي نائماً حتى أمن أنّ المشركين لن يلحقوا بالنبي صلوات الله عليه، ثم لحقه، وشهد معه كل غزواته ما عدا تبوك، فانه خلفه في أهل بيته. وكان علي صاحب بأس شديد في الغزوات جميعاً، فهو أول المبارزين يوم بدر، ومن الثابتين يوم أحد وحنين، وعلى يديه فتحت خيبر.

□ في السنة الثانية من الهجرة تزوج علي من فاطمة ابنة الرسول ﷺ، فجاء منها بالحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى.

□ كان رضي الله عنه ربعة من الرْجال، ادعج العينين، عظيم البطن، ضخم عضلة الذراع وعضلة الساق، حسن الوجه كثير التبسّم، أصلع ليس في رأسه شعر الاّ من خلفه.

□ وكان عليّ أقرب الناس قرابة من النبي ﷺ، وقال عليه الصلاة والسلام: من احب علياً فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن آذى علياً فقد آذاني، وقد اختص بإخاء النبي، اذ انه عليه الصلاة والسلام لما آخى بين اصحابه، بقي علي، فسأله، فأجابه رسول الله ﷺ: انت أخي في الدنيا والآخرة، وقد اختصّه صلوات الله وسلامه عليه باعطائه الراية يوم خيبر وبفتحها، كما حمل راية النبي يوم بدر، وكان كاتب الصلح يوم الحديبية.

□ وكان عليّ مع ابي بكر وعمر وعثمان خير صاحب يسألونه ويستنصحونه، فعن سعيد بن المسيّب انه قال: لم يكن احد من اصحاب رسول الله ﷺ يقول سلوني الاّ علياً. وعن عمر انه قال: أقضانا علي بن ابي طالب.

□ والأحاديث في فضائل علي كثيرة، منها في ذكر شجاعته، وشدّته في دين الله عز وجل ورسوخ قدمه في الايمان، وتعبّده، وصدقته، وزهده، وتحمّله ضيق العيش وصبره الصبر الجميل، وتواضعه، وورعه، وعدله في رعيته، وتفقّده أحوالهم.

□ حين قُتل عثمان، اضطرب الناس، فأتي معظمهم علياً في داره وقالوا له: لا بدّ للناس من خليفة ولا نعلم احداً احق بها منك. فقال لهم التمسوا غيري فاني لكم وزير خير مني أمير، فلمّا كرروا عليه، قال ان بيعتي لا تكون سرّاً، ولكن ائتوني المسجد، فمن شاء ان يبايعني بايعني، وخرج الى المسجد فبايعه الناس.

□ بايع العامّة لعلي بن ابي طالب في مسجد الرسول ﷺ، وبايع له أهل البصرة بعد موقعة الجمل، وأهل اليمن، وفي المدينة بايع له طلحة والزبير، وتخلّف نفر من الصحابة عن مبايعته، فسأل عنهم ولم يكرههم، فقالوا: اولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل.

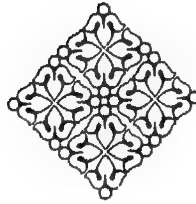
□ بعث علي، اول خلافته، عمّالاً على الأمصار غير جميع عمّال عثمان. امّا معاوية والي الشام فامتنع من بيعته، واحتجّ على خلافته لأنها لم تنعقد بإجماع ذوي الحل والعقد، ولأنه رأى انّ عليه الاقتصاص اولاً من قتلة عثمان.

□ خرج عليّ الى الكوفة فجعلها مقرّ خلافته وارسل الى معاوية يدعوه الى ما دخل الناس فيه ويُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، فامتنع حتى يُقتصّ من قتلة عثمان حيث كانوا، ثم يختار المسلمون لأنفسهم اماماً. وكان لا بدّ من المقابلة. فخرج جيش علي وجيش معاوية، والتقيا في سهل صفين على نهر الفرات شرقي حلب، ودامت المراسلات بينهما طويلاً، لكنها لم تثمر، فابتدأ القتال من أول صفر حتى الثامن منه. ثم بعد أنْ رفع جيش معاوية المصاحف، اتفقا على التحكيم، فانتدب علي ابا موسى الاشعري وانتدب معاوية عمرو بن العاص، فتوعد الحكمان على الاجتماع في رمضان، فرجع علي الى الكوفة الاّ ان فريقاً رفض التحكيم فاعتزله.

ولما اجتمع الحكمان اتفقا، بعد النقاش،

على خلـع علي ومعاوية معاً، اما الاشعري فاقترح بديلاً منه عبدالله بن عمر فرفضـه ابن العـاص ولم يقتـرح أحـداً. وحين عـاد ابن العــاص رأى ان الأمـر صــار شــورى بين المسلمين حسبما خطّ الحكمان في كتابهما، فبايع مع اهل الشام معاوية بالخلافة. وبرأي عليّ ان الحكمين لم يفيـا بما تعهّـدا به من الحكم بـالقرآن بـل اتّبع كـل منهما هـواه، فصمّم على حرب معاوية.

□ وشقّ الخوارج عصا الطاعة، ونصبـوا راية الخلاف بين المسلمين، ثم جاء أحدهم واسمـه عبد الـرحمن بن ملجم فضرب علياً بالسيف عند صلاة الصبح، واجتمـع الناس عليه، فقال علي: احبسوا الرجل فان أنا متّ فاقتلوه، وان اعش فالجروح قصاص. ومات علي في رمضان سنة أربعين للهجرة.



المصـادر: الريـاض النضـرة في منـاقب العشـرة المبشرّين بالجنة، المحب الطبري، بيروت: ١٩٨٨ - اتمام الوفـاء في سيرة الخلفـاء، محمد الخضـري، المكتبة التجارية بمصر ـ الامام علي بن ابي طالب، عبد الفتاح مقصود، دار مصر للطباعة، ١٩٥٣.

عمر بن الخطاب

(٥٨٤م - ٦٤٤م)

□ عمر بن الخطاب بن نفيل... القرشي، كنية ابو حفص ولقبه الفاروق، ولد في السنة الثالثة عشرة من ميلاد النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ وصحبه مختبئين في بيت الارقم حين جاءهم عمر بن الخطاب، فضرب الباب، فخرج رسول الله ﷺ وأخذ بمجامع ثيابه فنتره فما تمالك ان وقع على ركبتيه، فقال: ما أنت بمنتهٍ يا عمر؟ قال عمر: اشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له واشهد أنك محمداً عبده ورسوله. فكبّر أهل الدار تكبيرة سمعها اهل المسجد. فقال عمر: يا رسول الله ألسنا على الحق ان متنا وان حيينا؟ قال بلى. قال عمر: ففيما الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن...

وروي ان اسمه في السماء فاروق، وفي الانجيل كافي، وفي التوراة منطق الحق، وفي الجنة سراج.

□ قال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر». وقال: «كان اسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً، وامارته رحمة، لقد رأيتنا ولم نستطع ان نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا» و«لما اسلم عمر ظهر الاسلام ودعا الى الله علانية». وعن علي رضي الله عنه: «ما سمينا مؤمنين حتى أسلم عمر». وعن ابن عباس: «لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا». وقال رسول الله ﷺ له: «انت معي في الجنة ثالث ثلاثة».

□ توفي ابو بكر، واستخلف عمر، فبويع صبيحة وفاة ابي بكر، وكان المثنى بن حارثة أميرجيش العراق في المدينة يطلب المدد، فندب عمر الناس، فتقدم ابو عبيدة الثقفي وسعد بن عبيد الانصاري... فعقد اللواء لأبي عبيدة وسار الجيش الى العراق ليسجّل الانتصارات الكبيرة وينشر الاسلام. (وقد قتل ابو عبيدة في معركة الجسر بعد أن داسه أحد الفيلة، كما جرح المثنى وتوفي بعد ذلك متأثراً بجراحه).

□ ثم كانت معركة القادسية الكبيرة، التي انتصر فيها سعد على رستم، فهزم جيشه شر هزيمة، وقد قاتل في هذه المعركة أغلب رؤساء العرب، فان عمر لم يترك واحداً منهم الاّ كتب له وحثّه، ثم أقام سعد شهرين في القادسية حتى جاءه أمر عمر بالتوجّه الى المدائن، ففعل، ففتحت بابل وكوثى وساباط ونينوى والموصل. ولما رأى عمر ضرورة انشاء مدينة غير المدائن كتب الى سعد، فاختار مع رجاله موقع الكوفة واختطها وبناها بالقصب اولاً، وبعد حريق اصابها استأذن عمر فبناها باللبن.

□ ثم كان غزو الفرس من البحرين، وفتح الأهواز، وفي معركة نهاوند التي سماها المسلمون فتح الفتوح كسروا شوكة فارس الى الأبد. ثم كان فتح همذان واذربيجان والباب (ثغر يقع بين بلاد فارس وروسيا) ثم خراسان وسجستان.

□ وفي الشام تابعت الجيوش العربية سيرها بعد اليرموك فاحتلت حمص ودمشق والساحل، ولما تفشّى الطاعون في الشام، أراد الخروج اليها فنصحه اصحابه بالبقاء، فبقي في المدينة. واتى الطاعون على ابي عبيدة، ومات يزيد بن ابي سفيان، فكتب المسلمون في الشام لعمر، فجاءهم وقسّم المواريث، ورتب الغزوات، وعيّن الامراء ثم رجع الى المدينة.

□ ولما كان في الشام استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر، فوافقه على مضض، وسار عمرو فانتصر على الروم فيها، ومدّ سلطانه الى مُدنها، وهكذا في خلافة عمر، تمّ فتح مصر والشام وفارس.

□ قال الزبير عن عمر انه قال: «لما ولي كان ابو بكر يقال له خليفة رسول الله ﷺ، وكيف يقال لي خليفة خليفة رسول الله يطول هذا، فقال له المغيرة: انت اميرنا، ونحن المؤمنون، فأنت أمير المؤمنين». وكان عمر أول من تلقّب بهذا اللقب.

□ كان عمر بن الخطاب مهاباً، قوياً في ايمانه. روي عن علي انه قال: «ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر الاّ متخفياً الاّ عمر بن الخطاب فانه لما هاجر تقلّد سيفه، وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً ومضى قِبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلّى متمكناً، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: «من أراد أن يثكل امه أو ييتم ولده أو يرمّل زوجته فليقني وراء هذا الوادي»، قال علي. فما اتبعه احد الاّ قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم، ثم مضى لوجهه». وعن

سعد بن أبي وقاص انه قال: «دخل عمر على رسول الله ﷺ وعنده نسوة في قريش يسألنه ويستكثرنه رافعات أصواتهن، لما سمعن صوت عمر انقمعن [ذللن وارتدعن] وسكنّ، فضحك رسول الله ﷺ، قال عمر: ياعدوات أنفسهم تهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: يا عمر ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً (وادياً) الا سلك فجاً غير فجّك» وقال رسول الله ﷺ: «اشد امتي في امر الله تعالى عمر».

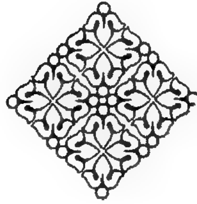
□ وهناك احاديث كثيرة عن فضله على غيره من الصحابة ما عدا الصديق، فذُكر اختصاصه بأنه أول من يُعطى كتابه بمينه يوم القيامة، وهو حامل مفتاح الاسلام، واول من يُسلّم عليه الحق يوم القيامة واول من تنشق عنه الأرض، بعد النبي صلوات الله عليه وبعد أبي بكر.

□ وقد حثّ النبي العظيم على محبته وقال «اتقوا غضب عمر فان الله يغضب لغضبه». وأُسهِبَ في ذكر فراسته وعلمه وفهمه، وتلطفه في استنباط الحكم، وكراماته ومكاشفاته، وحسن نظره، واصابة رأيه، ووقوفه عند كتاب الله واقتفائه النبوة وايثاره لها وكثرة اتباعه للسنة.

□ وكان عمر متعبداً يحب الصلاة في الليل، زاهداً في الدنيا، جبّته مرقعة يأك التمر والخبز الغليظ واللبن وقلّما اكل اللحم قال عمر: «والله ما نعبأ بلذات العيش ولكـ نستبقي طيباتنا لآخرتنا.». واجتمع زه خمسون رجلاً من المهاجرين فقالوا: ما ترو الى زهد هذا الرجل والى حليته وقد فتح ا على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفي الشر والغرب، ووفود العرب والعجم يأتون فيرو عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتي عشرة رقعة فلو سألتموه. . . فقال القوم ليس هذا الاّ عا عليّ بن ابي طالب فانه صهره، فكلمو فقال: لست بفاعل، ولكن عليكم بازو النبي. فقالت عائشة، وحفصة معها، نسأل ودخلا عليه فكلماه فأجاب: سألتكِ بالله ه تعلمين ان رسول الله ﷺ شبع من خبز عشرة أيام أو خمسة او ثلاثة، او جمع ب عشاء وغداء حتى ألحق الله؟ قالت لا. قال أنشدك الله هل تعلمين ان رسول الله ﷺ قُرّ اليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر الأرض كان يأمر بالطعام فيوضع ع الأرض. . انتما تعلمان ان رسول الله ﷺ لب جبة من صوف فربما حكّ جسمه خشونتها. . فهل تعلمان ان رسول الله ؛ كان يرقد على عباءة على طاق واحد. . . تعلمين ان رسول الله ﷺ كان مغفوراً له تقدّم من ذنبه وما تأخر ولم يزل جائعاً سا

راكعاً ساجداً باكياً متضرّعاً آناء الليل والنهار، الى أن قبضه الله تعالى الى رحمته ورضوانه؟ لا اكل عمر طيباً، ولا لبس ليناً أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين أدمين الاّ الماء والزيت، ولا اكل لحماً الا في كل شهر».

□ وكان عمر يصلي حين فاجأه ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بسكين مسموم، فضربه ثم انفتل يضرب من حوله فأصاب ثلاثة عشر رجلاً مات منهم تسعة. فقدّم عمر عبد الرحمن بن عوف ليتابع الصلاة، فتابعها قصيرة، ثم حُمل عمر الى بيته، فنادى ابنه، وطلب منه الذهاب الى امهات المؤمنين واستئذانهن ان يدفن مع صاحبيه، فجاءه بالايجاب، وأتاه الناس يثنون عليه، فأمر بالشورى، بين ستة هم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. فلما طلبوا منه ان يستخلف قال: أتحمل امركم حياً وميتاً، ووددت ان احظى منكم الكفاف، لا علي ولا لي، ان أستخلف فقد استخلفَ من هو خير مني (يعني ابا بكر) ـ وان اتركهم فقد ترككم من هو خير مني (يعني رسول الله ﷺ).



المصادر: الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشّرين بالجنة، المحب الطبري، بيروت: ١٩٨٨ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ عبقرية عمر، العقّاد، م. المصرية ـ سيرة عمر بن الخطاب، الطنطاوي، م. العربية. دمشق.

عمر بن عبد العزيز

(٦٨١ م - ٧٢٠ م)

□ عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم كنيته ابو حفص. لُقب بالخليفة الراشدي الخامس. امه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولد في المدينة، وشب فيها. ولما ولّي ابوه على مصر كتب لزوجته ان تقدم عليه مع ابنها، فأتت عمّها عبدالله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها: فقال لها: «هو زوجك فالحقي به، وخلّفي هذا الغلام عندنا، فانه أشبهكم بنا اهل البيت»، فبقي في المدينة. ولما وصلت امه الى مصر اخبرت اباه بالأمر، فسرّ، وكتب الى اخيه عبد الملك بن مروان يخبره، فكتب عبد الملك ان يُجرى عليه ألف دينار في كل شهر. ثم قدم عمر الى ابيه في حلوان فأقام عنده. ولما وقع عن دابته فشجّ رأسه سُمي أشجّ بني امية فقال له أبوه: «ما ينبغي لمن كان يُرجى لما يرجى له أن يكون تأديبية الاّ بالمدينة، فبعثه الى المدينة».

□ نشأ عمرو وتغذّى بالملك وكان يمشي مشية عُمرية، فيها تبختر، فلما استخلف كان يقول لخادمه مزاحم: «ذكّرني اذا رأيتني أمشي» فيذكره، فيتركه ثم لا يستطيع فيرجع اليها، و«هو مع ذلك لا يغمص [يعاب] عليه في بطن ولا فرج ولا حكم».

□ روى عمر عن أبيه، وعن أنس، وعن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وعن سعيد بن المسيّب، وعن عروة بن الزبير، وعن عامر بن سعد. كما روى عنه: الزهري، ومحمد بن المنكور، ومسلمة بن عبد الملك، ورجاء ابن حيوة، ويحيى بن سعيد الأنصاري.

□ حين توفي والد عمر، استدعاه عبد الملك بن مروان الى دمشق، فأقام عنده. وزوّجه من ابنته فاطمة. وأمّره الوليد على المدينة من سنة ٨٦ هـ الى ٩٣ هـ، ثم عُزل، فعاد الى الشام. فاستوزره سليمان بن عبد الملك، وبعهد من سليمان تولّى الخلافة سنة ٩٩ هـ. وبويع له بها في مسجد دمشق. فكان حسن الادارة، ارتاح الناس في عهده،

وكان بنو أميّة يسبّون علياً في الخطبة، فأبطل ذلك، وقرأ مكانه: ﴿**ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ واستمرّت قراءتها منذ ذلك الحين.

□ من مآثر عمر بن عبد العزيز:

* ما أن دفن سليمان بن عبد الملك، حتى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بدواة وقرطاس فكتب ثلاثة كتب لم يسعه ان يؤخّرها، فاستغرب الناس هذه العجلة وعزوها الى حُبّ السلطان، واستكانوا لمّا عرفوا ما فيها: الرسالة الاولى كانت امراً برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وكان قد غزاها بأمر من سليمان فَخُدع عنها بعد أن فتحها وبات مع جيشه بلا طعام حتى اكلوا الدواب، فحلف سليمان ان لا يُقفله منها ما دام حيّاً، فاشتدّ ذلك على عمر، فكان كتابه الأول اليه بالرجوع بعد وفاة سليمان. والكتاب الثاني كان بعزل اسامة بن زيد التنوخي عن خراج مصر مع الأمر بحبسه، لأنه كان غشوماً ظلوماً معتدياً في العقوبات، يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به. والكتاب الثالث كان بعزل يزيد بن أبي مسلم عن افريقية، لأنه كان يظهر التألّه مع النفاذ لكل ما أمر به السلطان. فيقول للقوم وهم بين يديه يُعذبون: سبحان الله والحمد لله شدّ يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب...

* وكان زاهداً بالملك فلم يقرب ما تركه الخليفة السابق، وما هو عُرفاً له من ممتلكات عند استخلافه، فرفض الدواب والسرادقات والجواري والثياب، واعاد كل ذلك الى بيت مال المسلمين. وبعد أن احتجب ثلاثة أيام، خرج الى الناس وخطب:

«... ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته، ويدلنا على العدل نهتدي به، ويكون عوناً لنا على الحق، ويؤدي الأمانة الينا والى الناس، ولا يغتب عندنا أحداً، ومن لم يفعل، فهو في حرَج من صحبتنا، والدخول علينا».

□ كان عمر بن عبد العزيز يتقدّم الى الحرس اذا خرج عليهم ان لا يقوموا اليه، ويقول لهم: «لا تبتدئوني بالسلام انما السلام علينا لكم».

* قال في خطبة له:

«ايها الناس انه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي انزل عليكم كتاب. فما أحلّ الله على لسان نبيه فهو حلال الى يوم القيامة، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام الى يوم القيامة، الاّ اني لست بقاضٍ وانما انا

منفذٌ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، لست بخيركم وانما انا رجل منكم، الّا اني اثقلكم حملاً».

□ أبطأ عمر يوماً عن الجمعة قليلاً، فعوتب في ذلك فقال: انما انتظرت قميصي غسلته أن يجف.

□ وكان عمر اذا أراد أن يقيم الناس الذين عنده في الدار، وبدت له حاجة يخلو بها. قال: نعم اذا شئتم رحمكم الله. ولم يكن يأمر أحداً بالانصراف من عنده.

□ لما ولي عمر بن عبد العزيز ردّ المظالم والقطائع، وكتب الى عمّاله يحملهم على الزهد والانتصاف للمظلوم، وكان يتسلّم البريد من كل الناس مهما دنت مقاماتهم أو علت ويجيبهم وينصفهم، او يجيبهم ويكتب الى ولاة بلادهم للنظر في امورهم. وكانت عادته اطلاق الحرية للعامل فلا يشاوره العامل الّا في المهمات الصعبة، وما يشكل عليه.

□ سُقي عمر بن عبد العزيز السم وهو في دير سمعان من أرض المعرّة، فأرسل له ملك الروم رأس اساقفته ليعالجه، فرفض ذلك، واستدعى المتهم بسمه، وسأله: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خُدعت وغررت، فقال عمر. نحّه خُدع وغُر، خلّوه. وتركه حراً. ومات عمر بن عبد العزيز، وقد حكم سنتين واربعة أشهر وبعض الشهر.



المصادر: سيرة عمر بن عبد العزيز، الامام مالك بن أنس، دمشق: ١٩٢٧.

عمرو بن العاص

(٥٧٤م - ٦٦٤م)

□ عمرو بن العاص السهمي. أسلم في السنة الثامنة للهجرة. وكان سن دهاة العرب في الجاهلية. أبلى اشد البلاء في الدفاع عن الاسلام، فكان مجاهداً بطلاً وقائداً صلباً، ولّاه النبي ﷺ بعثات وغزوت، وكان له شرف المشاركة في فتح الشام، كما كانت له امارة فتح مصر وولايتها حتى وفاته. قال في نفسه: «فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من الصحابة في أمر حرب منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بهذه المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب».

□ اول لواء عقد له كان في الاسلام، حين ارسله النبي ﷺ ليفرّق جمعاًلقضاعة يريدون غزو المدينة، فسار على سريّة «ذات السلاسل» في ثلاثمائة مجاهد، لكنه اكتشف ان العدو اكثر عدداً، فأمدّه النبي العظيم بمائتين من المهاجرين والأنصار برئاسة ابي عبيدة بن الجراح، وفيهم ابو بكر وعمر. وصمّم عمرو ان يبقى رئيساً على الجميع فقبل ابو عبيدة. وكان ان انتصر المسلمون في المواجهة، ففرّ الاعداء، ورفض عمرو أن يتبعهم المسلمون، كما رفض، حين باتوا ليلتهم هناك، ان يوقدوا ناراً للتدفئة. امّا تبرير ذلك، كما قاله للنبي العظيم حين سأله، فكان: «كرهت ان يتبعوعهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، وكرهت ان يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلّتهم!» فحمد الرسول الكريم حُسن تدبيره.

□ اختار الخليفة ابو بكر عمرو بن العاص اميراً على جيش من الجيوش الأربعة التي أرسلها لفتوح الشام. وقد وجه عمرو بن العاص الى فلسطين في ثلاثة آلاف مجاهد، ثم أمدّه بنجدة حتى وصل عداد جيشه الى سبعة آلاف، فاشترك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش، بعد أن وصل خالد بن الوليد

من العراق الى الشام بناء لطلب الخليفة، وقد اقترح خالد توحيد الجيوش الاسلامية، على أن يتولّى كل امير يوماً من أيام المعركة ورغب ان يكون اليوم الأول له. وقد انتصر المسلمون في معركة اليرموك وهزموا جيش الروم شر هزيمة، وانفتحت لهم بلاد الشام كلها، فتابع ابو عبيدة بن الجراح سيره الى مدنها. امّا عمرو بن العاص فانفتل الى مدن فلسطين وكان قد افتتح منها غزة، سبسطية، ونابلس، ويبني، وعمواس، وبيت جيرين، ويافا، ورفح.

□ فتح مصر كانت فكرةً راودت عمرو بن العاص وهو في الشام بعد فتحها، فعرض الأمر على عمر بن الخطاب خلال زيارته للشام. تردّد عمر لكن عمرواً أقنعه ببيانه وحجته. فوافق الخليفة على مضض على ان يراسله في ذلك وهو في طريقه.

ومضى عمرو بن العاص الى مصر في أربعة آلاف مقاتل فقط، لكن الخليفة بعد أن استشار كبار الصحابة في الأمر. ورأى استعظامهم ايقاع المسلمين في حرب قاسية اخرى، كتب الى عمرو قائلاً: «اذا بلغتك رسالتي قبل دخولك مصر فارجع، والاّ فسرْ على بركة الله». وحين وصل البريد الى عمرو وفطن الى ما في الرسالة، فلم يتسلّمها حتى بلغ العريش، فاستلمها وفضّها ثم سأل رجاله: أنحن في مصر الآن أم في فلسطين؟ فأجابوا: نحن في مصر. فقال: «اذن نسير في سبيلنا كما يأمر امير المؤمنين».

□ دخل عمرو بجيشه مدينة الفرما، وكان أول اشتباك له مع الروم، ثم فتح بلبيس وقهر قائدها الروماني اريطيون الذي كان قائداً للقدس وفرّ منها. وكان المدد الاسلامي قد وصله فتابع فتوحاته لأم دنين، وحاصر حصن بابليون حيث المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل، حاصرها عمرو سبعة اشهر، ولما قبل المقوقس دفع الجزية، غضب منه هرقل واستدعاه الى القسطنطينية ونفاه، فهاجم المسلمون عند ذلك حصون بابليون، مما اضطر الروم الى الموافقة على الصلح، فدفعوا الجزية وغنم المسلمون منهم كثيراً.

□ واستأنف عمرو فتوحاته للمدن النيلية: نقيوس ودمنهور.. . حتى بلغ اسوار الاسكندرية فحاصرها وفيها اكثر من خمسين ألفاً من الروم. وخلال فترة الحصار مات هرقل وجاء اخوه بعده مقتنعاً بان لا امل له في الانتصار على المسلمين، فاستدعى المقوقس من منفاه وكلّفه مفاوضه المسلمين للصلح.

فحضر الى مصر واتمّه. وكانت اهم شروط العقد: ان تُدفع الجزية عن كل رجل ديناران ما عدا الشيخ العاجز والصغير. ان يرحل الروم باموالهم ومتاعهم عن المدينة، ان يحترم المسلمون حين يدخلونها كنائس المسيحيين فيها. وان يرسل الروم مئة وخمسين مقاتلاً وخمسين من امرائهم رهائن لتنفيذ الشروط.

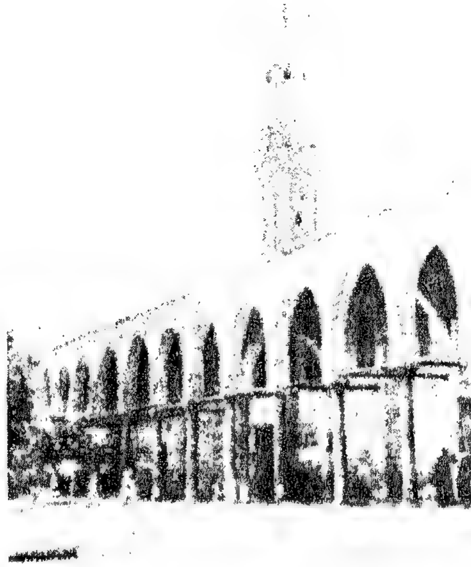
وأرسل عمرو بن العاص معاوية بن حُديج ببشارة الفتح الى الخليفة، فوصل المدينة وقت القيلولة، وتحرّج من اقلاق الخليفة، لكن الخليفة سرعان ما علم بالأمر فاستدعاه وعلم منه النبأ. وقام الى المسجد يصلي صلاة الشكر، ولما سأل معاوية عن امره، اعتذر انه كان يخاف اقلاقه في ساعة القيلولة، فقال عمر: بئس ما قلت وبئس ما ظننت، لئن نمتُ النهار لأضيعنّ الرعية، ولئن نمتُ الليل لأضيعنّ نفسي فكيف بالنوم مع هذين؟.

□ لقد استغرق فتح مصر من عمرو بن العاص ثلاث سنوات، اختط خلالها عمرو مدينة الفسطاط ولم يتخذ الاسكندرية مقراً له خوفاً من هجوم بحري عليه. وأعاد حفر خليج تراجان الموصل الى البحر الأحمر لينقل الغنائم الى الحجاز بحراً. وقد تيسّر فتح مصر لأنه جاء بعد فتح الشام، فكانت انباء قوة المسلمين قد وصلت الأقباط والروم فيها، فضلاً عن ان الاقباط كانوا يعانون من قسوة الروم عليهم وإلزامهم لهم بترك مذهبهم واعتناق المذهب الرومي. وقد حدث ان كان للقبط رئيس ديني اسمه بنيامين فرّ حين قسا عليه الروم، ولما عَرف المسلمون بذلك بعد الفتح، ارسلوا يعلنون انه في امان اذا خرج، فجاءهم بنيامين واحسنوا استقباله وولوه رئاسة القبط في دينهم، ففرح القبط بعمل المسلمين واحسنوا التعامل معهم.

□ ثارت الاسكندرية مرّة، حين علم ملك الروم ان الحامية الاسلامية فيها قليلة العدد، فأرسل ثلاثمائة سفينة محملة بالجنود والعتاد، وانتصر واحتل الاسكندرية ثم نوى السير الى الفسطاط. عاد عمرو بن العاص من الحجاز سريعاً وجمع جيشه لملاقاة الروم، وقد عانى المصريون من الزحف الرومي كثيراً في ارواحهم وارزاقهم، لكن لما تقابل الجيشان الرومي والمسلم كانت الغلبة لجيش الاسلام ولحق عمرو بالروم الهاربين باتجاه الاسكندرية، فحاصرها ثم فتحها عنوة، وأعمل السيف في الروم حتى أفناهم. ثم عوّض على الاهلين ما اصابهم من ضرر بفعل

ظلم الـروم لهم، ولأنهم سـاعـدوه وأمـدوه بـالغذاء والاخبـار خـلال مسيـرتـه الى الاسكندرية.

□ بعد معركة الاسكندرية، عزل الخليفة عثمان بن عفان عمرواً عن ولاية مصر وولى عليها عبدالله بن سعد بن ابي سرح، ثم عاد اليها عمرو خلال عهد معاوية بن أبي سفيان، واستمر والياً حتى وفاته.



مسجد عمرو بن العاص من الداخل

المصادر: فتح مصر، الفرد تبلر، القاهرة: ١٩٣٣ ـ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، شكري فيصل، بيروت: ١٩٧٤ ـ فتح الفتوح للواقدي، دار الجيل، بيروت، معارك العرب الكبرى، محمود الدرة، بيروت والرياض.

المثنى بن حارثة الشيباني

(ت ـ ٦٣٥م)

□ المثنّى بن حارثة الشيباني. اسلم في السنة التاسعة للهجرة امام النبي محمد (ﷺ)، مقاتل وشجاع لا يرهب المغامرة. يقيم مع قومه في شمال شرق الجزيرة العربية. قدم الى الخليفة ابي بكر يوم استخلف وقال له: «يا خليفة رسول الله، ان في قومي اسلاماً كثيراً، فأمّرني عليهم حتى أجاهد اعداء الله فارس، وأكفيك ناحيتي»، وكانت منازل شيبان ملاصقة لأرض العراق حيث يرتع الفرس. فعقد له ابو بكر لواءً على قومه.

□ لبني شيبان تاريخ نضال طويل ضد الفرس، فقد كانوا مع بني بكر بن وائل في معركة ذي قار (٦٠٥ م) حين انتصروا مجتمعين ضد امبراطورية الفرس. ولما رجع المثنى الى قومه. جمع منه الفرسان والمقاتلين الأشداء وراح يشن حرب عصابات على الفرس في حوض الفرات الأدنى، مصيباً منهم مغانم وموقعاً فيه قتلى كثيرين. فكان المثنّى، عملياً، هو أول من أخذ على عاتقه تحرير العراق من الفارسية واعادته الى العروبة.

□ ما لبث الخليفة ابو بكر ان اعتمد خطة للفتح في السنة الثانية عشرة للهجرة، فوجّه خالد بن الوليد في عشرة آلاف مقاتل الى جنوب العراق، الى الابلّة، ثم طلب منه التوغل بعد ذلك باتجاه الحيرة، على ان يواصل المثنّى غاراته على الحيرة ليضعضع القوات الفارسية، ثم يلتحق بجيش خالد، ولم يجد المثنى في هذا الأمر اية مهانة، بل قام بواجبه على أكمل وجه، وكان ذراع خالد اليمني في المعارك الكبرى داخل العراق.

وحين اشتبك جيش خالد مع الجيش الفارسي بقيادة هرمز في الكاظمة، واستطاع جيش الاسلام تسجيل أول واكبر انتصار على الامبراطورية الفارسية، اراد خالد، بعد قتل هرمز وفرار من بقي حياً في المهزومين، ان يطاردهم ليطهر منطقة الابلّة منهم، فكلف المثنى بذلك، فسار شمالاً الى نهر المرأة

حيث حاصر مع أخيه الحصن القائم على ضفته وأسر من فيه وطهّر المنطقة من الاعداء. ثم شارك مع خالد في معركة المذار التي قُتل فيها قائد الجيش الفارسي قارن، وكان السعيد في جيشه من استطاع الفرار الى السفن الراسية عند شاطىء النهر. وبعدها قام خالد والمثنى وصحبهما بتنظيم الجيوش وتوزيع الغنائم والتحضّر للمعارك القادمة.

□ واجتمع الجيش الفارسي في الشام لمنع خطة فتحها، وكانت جيوش المسلمين تزحف باتجاهها بقيادة الامراء الأربعة: ابو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن ابي سفاين، وشرحبيل بن حسنة، ولما تجمعوا في اليرموك وكتبوا لأبي بكر عن عدد الفرس، أرسل الى خالد انْ وافي الجيوش العربية في الشام مع نصف جيشك الفاتح، فقام الى المسيرة المظفّرة واستخلف المثنى بن حارثة الشيباني مكانه.

□ بقي مع المثنى، بعد سفر خالد، تسعة آلاف مقاتل، وكان عليه واجب ثقيل يقتضي المحافظة على الأرض والثغور والتوزّع في الشمال والجنوب في المراكز الخطيرة. وتجمّع الفرس في عشرة آلاف مقاتل ونووا الهجوم علّهم يسترجعون العراق. فتقابل الجيشان في بابل، وكانت معركة شرسة استطاع المسلمون فيها كسر شوكة الفرس وهزمهم والتنكيل بهم. وقد لحق المثنى بفلول الفرس مطارداً، ولمّا تيقّن ان امكاناته الضعيفة لن تسمح له بملاحقتهم حتى عاصمتهم، لعددهم وتجهيزاتهم، انسحب بجيشه الى غرب الفرات، ولكنه رأى أن الوقت مناسب للايقاع بالفرس، فهم على خلاف حول العرش، ومنشغلون بجيشهم المهزوم، لذا قرّر الذهاب سريعاً الى المدينة واقناع الخليفة بضرورة اشراك المرتدين الى الاسلام في الجهاد. وكان قد سبق لأبي بكر ان اتخذ قراراً خطيراً وهو حرمان من عاد الى الاسلام من الاشتراك في الجهاد، ترفعاً عن الاستعانة بمن كفر بالله على جهاد اعدائه.

□ وصل المثنّى الى المدينة، وكان ابو بكر على فراش الموت، فحضر دفنه، وأجتمع في يوم خلافة عمر بن الخطاب في مسجد النبي ﷺ وخطب بعد الخليفة في المسلمين:

«يا ايها الناس، لا يعظمن عليكم هذا الوجه [الجبهة العراقية]، فانا قد تبحبحنا [تمكنّا] ريف فارس وغلبناهم على خير شِقّي السواد [جانب العراق الغربي] وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها».

وطلب الخليفة عمر السير في الجهاد مع

المثنى، فوثب المؤمنون واحداً واحداً يتبعون المثّنى، وعُقدت القيادة لأبي عبيدة الثقفي من بينهم، فسار المثنى معه مقاتلاً متواضعاً حتى العراق، اذ كانت العادة ان يتسلّم قيادة الجيوش الاوّلون في الاسلام، ومن ذوي المكانة والوجاهة في قريش اولاً.

□ حين سمع رستم قائد الجيش الفارسي بتجمّع المسلمين هذا في العراق، أرسل لقتالهم جيشاً من ثمانين ألف رجل يتقدمهم عشرون فيلاً، وعليهم «بهمن جاذويه» ومعه الراية المقدّسة، واتجهوا الى الحيرة، وعند شاطىء الفرات في قرية «قس الناطق»، وعند جسر بين الضفتين وقعت المعركة بين الجيش الفارسي والجيش الاسلامي. وقد طلب القائد الفارسي من أبي عبيدة الثقفي قبيل المعركة ان يختار المكان المناسب، فإما على الضفة الشرقية فيفسح، هو، للجيش العربي بالتقدم، واما على الضفة الغربية، فيسمح للفرس بالعبور اليها. وقرّ رأي ابي عبيد على العبور الى الضفة الشرقية، رغم معارضة المثنى لأسباب منها: تفوق الفرس عددياً - خلو ميدان المعركة في هذه الضفة من قابليّة المناورة - صعوبة الانسحاب في حال الخسارة لأن النهر يصير وراء العرب وليس عليه سوى جسر واحد.

□ **معركة الجسر**، نشبت في صباح خريفي من العام الثالث عشر للهجرة واستمرّت سجالاً حتى العصر، وكان ابو عبيدة الثقفي، يقاتل في المقدّمة دفاعاً عن شرف الراية وهو يصرخ، «لن يكونوا اجرأ على الموت منا»، وقبيل مغيب الشمس هجم فيل على أبي عبيدة فأوقعه عن فرسه ووطأه برجله، وتناوب ابطال العرب على حمل الراية وهم يتساقطون على التوالي، مما أضعف ثقة الجيش العربي بقوته، فبدأ فرسانه ينهزمون ويعبرون الجسر. وهنا انبرى أحد القادة المسلمين وأسرع برجاله الى الجسر يريد قطعه صارخاً في المحاربين: «موتوا على ما مات به امراؤكم أو تظفروا». الاّ ان المثّنى، وقد شاهد جيشه يتراجع، وراقب عمل القائد المسلم، سارع اليه والدم يقطر من ثيابه، وقلبه يتميّز غيظاً، واصدر أمره الى عروة بن مسعود: «انطلق الى الجسر فقف عليه وحلْ بين العجم وبينه»، ووثب مع اعوانه الى الجسر ونصبوه من جديد مفسحين للجيش العربي بالتراجع، وفي خلال وقفة المثّنى بصمود عجيب امام جحافل الفرس، جاءته طعنة رمح في جنبه فجرح جرحاً مميتاً، لكنه استمر واقفاً يناضل حتى عبر جيشه الى الضفة المقابلة، حينذاك عبر بنفسه اخيراً. وقد

قدّرت خسارة العرب في هذه المعركة بأربعة آلاف شهيد قتيلاً، وألفين غرقاً في النهر اثناء الانسحاب، ولولا خطة المثنى لقضي على الجيش المسلم كله.

□ استنجد المثنى بالقبائل العربية لنصرته، ولأخذ ثارات ابي عبيدة الثقفي والشهداء في معركة الجسر، وجمع جيشه من جديد في البويب على ضفة الفرات الغربية، وطلب من القائد الفارسي «مهران الهمداني» ان تكون المعركة في هذه البقعة، بعد أن وصله أمر الخليفة بألا يعبر نهراً أو جسراً.

وزّع المثنى جيشه محتفظاً بقيادة القلب، وكان الزمن في شهر رمضان، فطلب من رجاله أن يفطروا. وتقدم الفرس امامهم في خطوط ثلاثة متوازية، أولها المشاة ووراءهم الفيلة، وتصادم الجيشان وكان القتال عنيفاً، في الأطراف وفي القلب معاً، واذ بصراخ فتى: انا الغلام التغلبي انا قتلت المزربان [قائد الفرس]. واسرع المثنى الى الجسر فقطعه، مما حبس الجيش الفارسي بين النهر والجيش العربي، فانهزم جنود الفرس وتبعثروا، فطوردوا يوماً وليلة بعد المعركة... وكانت خسائرهم مائة الف قتيل.

□ وقلّ جيش المثنى بعد رحيل خالد بن الوليد وخسارته في معركة الجسر، فكتب الى الخليفة يستشيره، وانسحب الى غرب الفرات، فجاءه كتاب الخليفة موافقاً ما قام به. وأنشأ المثنى خطاً دفاعياً راقياً يؤكد نضج فكره وحسن قيادته.

وارسل الخليفة جيشاً جرّار بقيادة سعد بن ابي وقّاص بعد أن كان يعتزم بنفسه قيادة الجيش، وكتب الى المثنى يأمره ان يجمع الرجال لمعركة كبرى، وقد كانت معركة القادسية معركة مصيرية بين امتين، هزمت فيها امة فارس وسقطت بعدها عاصمتهم المدائن، لكن المثنى لم يسعه المشاركة فيها، فقد سارع اليه اجله بعد اصابته البالغة في معركة الجسر، ومات ودفن في «شراف» حسب وصيته بعد أن كتب الى سعد: **«اذا قدم** سعد فليقاتل على حدود ارض العجم على ادنى حجر في أرض العرب ولا يقاتلهم في عقر دارهم. فان يظهر الله المسلمين وينصرهم فلهم ما وراءهم، وان كانت الاخرى، رجعوا الى فئة... الى ان يعيد الله الكرّة عليهم».

المصادر: معارك العرب الكبرى، محمود الدرة، بيروت والرياض ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول، شكري فيصل، بيروت: ١٩٧٤.



الفهرس

عباقرة العلم

عباقرة الفكر

عباقرة الادب

عباقرة القيادة

موسوعة

عباقرة الإسلام

في العلم والفكر والأدب والقيادة